

تراثيل في زمن الذئاب

* مخاضات السنين * نيرون العرب * سقوط الطاغية

«رواية تاريخية تتناول أحداث الحقبة السامرائية من تاريخ الخلافة العباسية
من بناء سامراء ٢٠هـ ٨٣٤م وحتى مقتل الطاغية العباسي
جعفر المتوكل سنة ٤٧هـ ٨٦١م»

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات أو أفكار يتبناها مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة وإن كانت تقع في دائرة اهتماماته وأولوياته..



الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م



من أهداف مركز عيدين :



مركز "عين" للدراسات الفكرية المعاصرة، يعنى بتفاعلات الواقع الإسلامي، ويحاول أن يؤصل للحلول والمقترحات تجاه مشكلات الإنسان المعاصر..

كما وينطلق من رؤية راسخة بقابلية الحضارة الإسلامية على قيادة الحياة وتقديم نموذج يتناسب مع احتياجات العصر من غير أن ينقطع عن أصوله ومنطلقاته وثوابته..

يسعى المركز ضمن برامج بحثية وهموم ثقافية ودورات لكتابة البحوث وتصديرها، لتعزيز الوعي الاجتماعي بقضايا الثقافة والأفكار ومناقشة مطاريح التخلف والتسيد لقيم غير أصيلة في المجتمع..

ليس من أهداف المركز أو مطاريحه الاعتناء بالتبشير الطائفي، ويؤمن أن ما يحدث اليوم هو طائفية سياسية تسعى لتجسير كل الدين والإنسان في أتون معركة مصالح دنيئة.. ولا تمنع من دراسات تنطلق من التسامح في التعايش والإيمان بمشتركات الإنسان دون إلغاء الآخر مع الاحتفاظ بالرصانة العلمية وشروطها..

كما يؤمن المركز أن الحلول الإسلامية تنطلق من جذورها المناسبة، ولهذا فهي تحاول التأسيس من منطلقات إسلامية خالصة، بعيداً عن كل التحيزات المحيطة..

الاهداء

الى الفنان الايراني الملهم
الاستاذ فرج الله سلّحشور
و «الحرّ تكفيه الإشارة»..

تراثيل في زمن الذئاب

◆ كمال السيّد



مخاضات السنين

(١)

في عام ٢٢٠هـ كانت الجيوش الاسلامية المرابطة في الجبهة الشمالية قد استكملت انسحابها، وكان قد مضى عام وشهور على وفاة الخليفة المأمون، وترجع على عرش الخلافة الاسلامية أخوه محمد أبو اسحاق فكان الخليفة الثامن.. أبوه الرشيد وأمه جارية تركية اسمها «ماردة» ورث عنها صفات اخلاقية أشبه ما تكون بسكان الصحاري القاسية حيث القوّة والفظاظة ابرز ما فيها..

ثلاثة أمور كانت تشغل بال الخليفة التخلص من «محمد الجواد» صهر الخليفة الراحل والشاب الذي حيرّ عصره بعلمه وانسانيته.. فأغرى ابنة أخيه «أم الفضل» أن تدس له السم وانتهى الأمر، واحتمال قيام ثورة شعبية في بغداد بعد تدفق عدد هائل من الأتراك الأجلاف الى عاصمة الشرق، واستياء البغداديون منهم، والتمرد الخطير في أرمينيا بقيادة «بابك الخرمي» وقد مضى عليه عشرون سنة.

7 وذات صباح انطلقت سفن شراعية تحمل الخليفة ومجموعة من المهندسين الى الشمال من العاصمة وقطعت السفن ستين ميلاً عربياً لترسو عند الخليج الصغير حيث يتفرع نهر «القاطول» مصيف هارون الرشيد_ ومنتجعه في الأزمات السياسية.

وعلى امتداد جبهة النهر تتناثر الأديرة التي تقدم للمسافرين والباحثين عن المتع الحسيّة الخمرة المعتقدة.. وراح المعتصم من خلال نوافذ القصر الذي بناه الرشيد يمدّ النظر لاختيار الأرض التي ستنهض عليها العاصمة الجديدة، وهكذا بدأ اسم «سام راه» «سرّ من رأى» يلج ذاكرة التاريخ والانسان.

وانطلق الخليفة يحفّه حرس تركي تشبه وجوههم وجوه الصقور في جولة على امتداد جبهة دجلة المتدافعة مياهه الى بغداد ومنها الى البصرة فالخليج. فتح راهب عجوز بوابة الدير بعد أن تناهت الى سمعه أصوات سنابك خيول تدك الأرض سأل المعتصم الراهب عن اسم المكان أجاب الراهب بلهجة من يتنبأ بالمستقبل:

- نجد في كتبنا القديمة اسمه «سامراً» وأنه كان في مدينة سام بن نوح وأنه ستنهض مدينة فيه بعد مدة طويلة على يد ملك جليل مظفر منصور له اصحاب كأن وجوههم وجوه طيور البراري.

نظر الخليفة الى وجوه حرسه القاسية كانت تشبه الصقور تتمم قائلاً:
- أنا والله ابنيها وأنزلها وينزلها أبنائي.

ولم تمرّ سوى اسابيع حتى بدأ عشرات الآلاف من العمال المهرة بالتدفق من مصر فعرفوا بـ «المغاربة» ومن «سمرقند» و «فرغانة» و «اشروسنة» فعرفوا بـ «الفراغنة» ليستخرجوا له مدينة غافية في اعماق النبوءات القديمة وليؤلفوا فيما بعد حرسه الخاص..

كان الخليفة يقود عملية البناء بأسلوب حربي فقد وزع مسؤوليات التنفيذ على أركان دولته، فعلى «خاقان أبوالفتح» بناء القصر الذي سيعرف بالجوسق الخاقاني.

وعلى «عمر بن الفرج» بناء القصر المعروف بالقصر «العمرى» وعلى ابن الوزير بناء القصر المعروف بالقصر الوزري، كما وزع اسناد الأراضي الشمالية على القادة الأتراك لينوا أحياءً مستقلة تمنعهم من الاختلاط ببقية الاجناس الأخرى، وكان اهتمامه بالعنصر التركي يعود الى تأثير والدته التركية فنشأ كما نشأ أخواله لا يحتفلون بالعلم والعلماء ولا يجدون شيئاً غير السيوف والخيل ولا يتحدثون إلا عن بناء القلاع وشنّ الحروب.

الخليفة الجديد له مقاييس جديدة في اختيار القادة، ف«أشناس» التركي الفارع الطول والأمي أصبح قائداً كبيراً في الجيش و«وصيف» الذي كان يعمل زراداً أصبح هو الآخر قائداً عسكرياً يتبعه آلاف الجند.

وعهد الخليفة الى قاداته بناء الاحياء التركية على مساحات شاسعة من الأراضي، كما عهد اليهم بناء ثكنات الجيش لتستوعب مساكن ٢٥٠/٠٠٠ جندي واصطبلات واسعة لاستيعاب ١٦٠/٠٠٠ حصان..

ولم يكن يمرّ يوم حتى يصل مئات الحدادين والنجارين والفلاحين حاملين معهم أدوات البناء واشجاراً مثمرة لغرسها في «سامراً».

وهكذا كان هناك الف رجل يعملون ليل نهار في البناء وتعبيد الشوارع وكان المرمر والرخام يتدفق من «اللاذقية» في سوريا وغيرها.

ولم تمض سوى شهور حتى كانت مدينة سامراً تولد في الجغرافية والتاريخ.

(٢)

فرك عمر بن الفرّج كفيه وهو يراقب العمال منهمكين في بناء قصره وقد ارتفع البناء سافات عديدة.. يتوجب عليه العودة الى بغداد فلديه مهمّة حساسة لم يطلع عليها أحد سوى الخليفة، وقاضيه المتنفّذ احمد بن أبي دؤاد.

لن يمكث سوى ليلة واحدة فقط ثم ينطلق الى المدينة المنورة.. في شارع الخليج قريباً من مرسى السفن كان عمر بن الفرّج على حصانه وقد مالت الشمس باتجاه المغرب..

انحنى ربّان السفينة لعمر فم نظره يوحي أنه من كبار رجال الدولة.

لا توجد رحلة أمتع من رحلة في سفينة تحملها مياه دجلة.. يكفي تيار المياه المتدافعة برفق ليحيل المركب المائي الى مهد هادىء أو زورق أحلام في بحيرة تغمرها السكينة..

على أن عمر بن الفرّج لم يكن يشغل باله بمثل هذه المشاعر فهو رجل دولة طموح عليه أن يثبّت أقدامه وسط آلاف الدسائس والنمّامين الذين يحوّلون خليفة يكاد يكون أمياً، يصدّق الشائعات كما لو كانت حقائق!

رست السفينة في الشماسية وترجل عمر بن الفرّج وانطلق الى منزل أخيه محمد.

عندما طرق الباب استقبله بحفاوة بالرغم من الجفوة التي بينهما.. ان رابطة الأخوة أقوى من تضعفها الولاءات السياسية المتباينة..

محمد يظن أن أخاه لا يكره «أهل البيت» في قرارة نفسه ولكنه رجل طموح ويعرف أن الطريق إلى تسنّم المناصب في هذه الدولة سيكون سهلاً إذا أعلن عداؤه للعلويين..

كثيرون جداً أصبحوا حكماً في الولايات وأثرياء بهذه الطريقة.. قال محمد لأخيه وقد اشرق بدر ذي القعدة فوق ذرى النخيل على شطآن دجلة.

- كيف تجري الأمور؟

- العمل على قدم وساق.. لن يمرّ عامان حتى تكون سامراً مثل بغداد..
- هيهات.. انت تبالغ كثيراً.. لقد مررت بتلك الأرض وأنا في طريقي إلى مصر_ الأرض لا تصلح لذلك..

- سوف نرى عندما أعود من المدينة سأرى سامرا مدينة عامرة وسترى «العمرى» قصرًا منيفاً..

مرّت لحظات صمت قال عمر بعدها:

- أنت أخي ولا أكتفم النصيحة عنك..

- تكلم فأنا أصغي!

- ابتعد عن أبناء علي أنت لا تعرف ما يجري في القصور من دسائس

وبنو العباس لا يغفرون لأحد ذلك.

- حقاً أنها نصيحتة لو كنت أطلب الدنيا والمجد والنفوذ والسلطة ولكن

يا أخي لا أرى لديني كمالاً إلا بحب أهل بيت النبي..

وقرأ محمد بخشوع:

- «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى».

- الشيعة يرجفون أن «المعتصم» سمّ «محمد الجواد» وفي هذا خطر عليك.

- هذه هي الحقيقة.. كيف يعقل أن يموت شاب في مقتبل العمر كان عمره خمسة وعشرون سنة..

لقد قابلته مرّات عديدة ولم أره يذكر الدولة بسوء ولم تكن له اطماع في الحكم.. ولكنهم قتلوه.. لأن الناس كانوا يحبّونه.. كان تقياً وفتياً كريماً.. رحمه الله..

قال عمر بجفاء:

- لقد انتهى أمره.. ليس لكم إمام.

هتف محمد:

- كيف؟! لقد اجتمع زعماء الشيعة في منزلي، ورأيت بنفسي عشرة نسخ من وصية الجواد مازلت أحفظها حرفاً حرفاً: «أنا ماض، والأمر صائر الى ابني علي وله عليكم بعدي ما كان لي عليكم بعد أبي»-.

- انني اعترف بصدق ما تقول ولكن اتدري في أية مهمة أنا ذاهب الى المدينة.

استوى محمد جالساً وهتف متوجساً:

- احذرك يا أخي من اغتياله!

- أنا لا أقتل الاطفال.. لقد ارسلني الخليفة لانتخب له معلماً يبغض علياً وابنائهم وأن امنع الشيعة من زيارته.. يعني سأصبح بواباً في قصره في «صريا»- ولن اسمح لأحد من الشيعة في لقائه أبداً.

اطرق محمد حزيناً وقال:

- الآن أدركت ما رواه لي عثمان الكوفي لقد ذكر له الجواد انه سوف تكون «فترة حيرة» لا يعرف الناس فيها الى من يرجعون ونصحه بالسفر الى المدينة المنورة_ تائب عمر وأبدى رغبته في النوم فنهض أخوه بعد أن اطلق آهة أسف أودعها حسرة من أجل أخيه.

(٣)

وصل عمر بن فرج الدخجي المدينة المنورة واتصل بالوالي واطلعه على طبيعة مهمته..

كان موسم الحج قد أطلّ عندما عقد اجتماع في قصر الوالي حضرته شخصيات معروفة بعدائها لأهل البيت..

أوجز عمر حديثه بكلمات معدودة:

- أريد رجلاً من أهل الأدب والقرآن والعلم لا يوالي عليّاً وابنائهم..

الخليفة يطلب رجلاً يتكفل بتعليم هذا الصبي ويمنع الشيعة من الاتصال به.

اقترح المجتمعون بعض الأسماء ولم يمض وقت حتى اجمعوا على اسم

«الجندي» أنه اكثر الناس تقدماً في الأدب والعلم بالرغم من مزاجه الحاد..

وفي نفس الوقت تم الاجتماع وعيّن له الوالي مرتباً شهرياً في مقابل

مهمته.

قرية «صرّيا» ليست بعيدة فهي على بعد عدة أميال.. قرية كانت في

الاصل بستاناً صغيراً غرسه موسى بن جعفر جدّ الصبي الاكبر، ثم سكنها

فلاحون فقراء.

كانت شؤون الحياة تجري بصورة طيبة فهذا الصبي من الذكاء والخلق

الكريم وشخصيته المحببة بحيث يهابه الجميع ويحترمونه.

لم يكن يودّ أحداً من سكان القصر مثلما يودّ عمّة أبيه ، وهي امرأة

عجوز طيبة القلب ظلّت عانساً بسبب ظروف عصيبة مرّت بأسرتها.. وبين

اسبوع وآخر كان أخوها «زيد بن موسى» يزورها ويتفقد الصبي الذي آتاه
الله الحكم صبيًا.

مرّت أيام عندما جاء زيد وهو ينوء بحمل ثمانين من السنين، فوجيء
بوجود بواب على القصر معيّن من قبل الخليفة مباشرة.

نهض عمر هيبة للشيخ الذي استأذن في الدخول لزيارة الصبي..

دلف الشيخ الى البهو حيث يجلس الصبي.. كان وحيداً ومع ذلك فقد
كان عليه من الوقار ما يثير اعجاب شيخ عركته السنون..

ان السرّ الذي كان مودعاً في قلب ابن أخيه علي بن موسى قد انتقل الى
حفيدة.. مهابة وجلال..

ونهض الصبي احتراماً وجلس الشيخ بين يديه تكريماً واعترافاً بامامته،
كان البواب الذي دفعه الفضول يراقب من طرف خفي اللقاء العجيب! ما
الذي جعل هذا الشيخ يجلس كصبي في حضرة صبي جالس بوقار شيخ؟!
وجاء «الجنيدي» المكلف بتنشئة الصبي نشأة تنسجم مع تطلّعات
الخليفة.

طلب البواب من الشيخ مغادرة المكان وانهاء اللقاء، فيما جلس
الجنيدي في إحدى الحجرات التي انتخبها لالقاء الدروس وأراد الصبي
الدخول فبادره:

- انتظر حتى تحفظ عشراً من الآيات قال الصبي الذي حفظ كتاب الله:

- أي السور تحبّ أن أقرأها.

- آل عمران.

وراح الصبي يتلو عليه بصوت رخيخ آيات الله وسقط فك الجنيدي الى الاسفل دهشة، وذهل عن نفسه لكأنه يصغي الى داود النبي يترنم بمزماره!
ودمعت عينا المعلم خشوعاً.. إن لهذا الصبي شأناً أي شأن وتساءل في نفسه: هذا صبي مات أبوه بالعراق وهو صغير بالمدينة ونشأ بين هذه الجواري السود فمن أين له هذا العلم؟

واستحال المعلم الى تلميذ في حضرة الصبي المعلم.. إنه يصغي اليه فيتعلم المحكم من آيات الله والمتشابه ويتعلم منه احكامها واسباب نزولها..
وهيمن صمت تغمره سكينه قال الصبي بأدب الأنبياء:

- اتحب أن احديثك ما حفظته من أبي:

هزّ الرجل موافقاً وراح يصغي الى كلمات الصبي:

- عن أبي عن آبائه قال أمير المؤمنين علي: «إياكم والمنى فانها من

بضائع الفجرة».

عن آبائي قال أمير المؤمنين: «من اصبح والآخرة همّة استغنى بغير مال واستأنس بغير أهل وعزّ بغير عشيرة».

وعن أبي عن آبائه عن علي قال: «العلم وراثه كريمة والآداب حلال اللسان، والفكره مرآة صافية، والاعتبار منذر ناصح، وكفى بك أدباً لنفسك

16 تركك ما كرهته لغيرك.

وسكت الصبي الحكيم، قال الجنيدي:

- زدني يا بني!

- قال أمير المؤمنين: «من دخله العجب هلك»

وقال: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية».

شعر الجنيدى بأن اعماقه تمتلئ بنور الكلمات الصادقة تجري على فم
صبي لم ير مثله في أدبه وخلقه.
وانبثق نداء في اعماقه أن قدراً ما ساقه الى هذا الصبي المبارك.. قدر
غامض لقد فتح الله عينيه على النور.. النور الذي يضئ ظلمات النفوس
الحائرة.

(٤)

ولدت مدينة «سرّ من رأى» كحسناة خرجت من شواطئ دجلة ارتفعت القصور الكبيرة والصغيرة، وتنفتت الحدائق الغناء وكان «الجوسق الخاقاني» قصر الخليفة الكبير مهيباً متربعاً فوق التلال المطلّة على دجلة، اما المسجد الجامع فقد توسط المدينة الجديدة.

في حين نهضت جدران السجن القاسية في الجنوب، وكان الجسر الكبير يربط الضفتين، وسمّى الجانب الآخر بالكرخ ليكون حيّاً تركياً مغلقاً يمنع دخوله على غير الاتراك، وسلّم ادارته للخادم اشناس الذي اضحى قائداً عسكرياً كبيراً! ولم ينس المهندسون تنفيذ رغبة المعتصم بعدم الاختلاط بين الاحياء لذا وضعوا في بالهم تخصيص أرض لتكون أسواقاً متعددة يختص كل حي بسوق، وعلى بعد أميال من مركز المدينة خصص الخليفة لقائد تركي بارز هو «الأفشين» أرضاً واسعة اتخذت لكي ينهض فوقها حيّ خاص بالنازحين من مدينة اشروسنة التي ينحدر منها «الأفشين»، القائد العسكري المحنك..

وكان اجمل ما في المدينة شوارعها الواسعة المستقيمة المنظمة، وقد برز شارع «السريجة» ليكون الشارع الكبير، حيث يمتد من «المطيرة» الى الوادي، في حين اختص شارع «الرشيد» بالمنازل التي يقطنها القادة الميدانيون وفي طليعتهم القائد «عجيف بن عنبسة» كما يوجد على امتداد الشارع «سوق الرقيق»، ومقر الشرطة والسجن ثم السوق الكبير ثم المسجد

الجامع وبعده تأتي منازل عامّة الناس التي تتخللها باعة «الفقاع»، و«الهريسة»
 فاذا أراد المتجول الامعان فإنه سوف يرى أحياء المغاربة، وهم العمال
 القادمون من مصر والذين سيصبحون جنود في حرس الخلفاء فيما بعد.
 وينفرد شارع «الخليج» بجماله الأخاذ.. فمن أراد النزهة انطلق الى ذلك
 الشارع ومتع بصره بمنظر السفن الشراعية الصاعدة من البصرة وبغداد
 والمنحدرة من الموصل..

ولكن أحداً لا يأتي للنزهة فالجميع قد سيطرت عليهم حمى البناء
 والمال والثراء؛ والحياة الباذخة حلم الجميع.. وكل الوسائل لتحقيق ذلك
 باتت مشروعة!!

وأصبح اقتناء الغلمان ثقافة عامّة فالغلام يصبح عاملاً، خادماً، جاسوساً
 وفي بعض الاحيان مصدر لذّة مجنونة اشعلتها الأديرة وزادت أوارها كثرة
 الأديرة المتناثرة شمال وجنوب العاصمة الجديدة.

كان الخليفة قد شعر بالضيق بعد أن وصلته أنباء عن هزيمة «بغا» في
 الاشتباكات مع بابك الخرمي، ولذا عزز قوّات الأفشين بامدادات عسكرية
 على رأسها «ايتاخ» الطباخ التركي الذي انتخبه المعتصم لشباهته، بـ
 «مسرور» خادم الرشيد ذي الشخصية الغامضة.. وابتاخ هذا يمارس ذبح
 الأغنام والبقر بنفسه.. ثم دفعه المعتصم للقيام بعمليات اغتيال لبعض الأفراد
 فكان ينفذها ببرود قاتل.. كما أرسل جعفر الخياط أيضاً.. ووضعها معاً
 تحت تصرّف الأفشين القائد الميداني العام.. ومازاد ضيق الخليفة وشعوره
 بالسأم حريق بغداد الذي أضطره الى دفع تعويضات هو في أمسّ الحاجة
 اليها في استكمال بناء المدينة.

لهذا أوعز الى حرسه الخاص بعدم السماح لأي شخصية في الدولة بدخول القصر ولكنه أرسل من يأمر مهرّجه «الهفتي» بالحضور فوراً. تواري الخليفة بين الاشجار وابتسم وهو يتصوّر الرجل السمين القادم وقد تعب من البحث عنه في أروقة القصر.

دلف المهرّج من بوابة القصر التي تطلّ على مدرج ينحدر الى شاطئ دجلة.. واجتاز متثاقلاً رواقاً يؤدي الى قاعة الشرف.. كان المكان مقفراً وصاح «الهفتي» متعمداً:

- أين أنت.. والله لا تفلح أبداً!

بحث في اجنحة القاعة التي تشبه الصليب_ ولكن دون جدوى حدس المهرّج أن يعثر على سيّده في الاصطبل، فاتجه الى الجهة الشرقية من القصر حيث توجد السلالم المؤدية الى سرداب محفور في داخل الصخر أنه يعرف الخليفة.. انه لا يحب شيئاً حبّه للخيل والحرب والطبول.

وكانت الخيول تتناول حصتها من الشعير بصمت.. فغادر المكان من ممر يؤدي الى السرداب الكبير.. هناك وسط السرداب حوض من المياه في وسطه نافورة تأخذ مياهها من قناة جوفية_ تمتد تحت الأرض الى دجلة..

هتف في نفسه وهو يراقب منظر المياه التي تتدفق الى علو مترين:

- ما ابرع هذا المهندس النصراني!!؟

من الذي لا يعرف «دليل بن يعقوب النصراني» مهندس «الكهاريز»؟؟ غادر المهرّج السرداب الكبير وهو ينوء بسمنته وبدانته متأففاً من فرط ما أصابه من التعب:

- والله لا تفلح أبداً.

لم يبق أذن الا أن يفتش عنه فى حديقة القصر الخلفية حيث تنتشر
الظباء والايائل.. وانفجر الخليفة متضحكاً من منظر مهرّجه وهو يتميال من
فرط سمته، هتف به:

- مالك لا تسرع المشي ها؟! مالك

وسكت المهرّج وبخفة اسرع الخليفة في المشي بين الاشجار وصاح
بمهرّجه:

- اسرع!

اطلق المهرّج زفرة وصاح:

- والله لا تفلح أبداً.. كنت اظن أنني أماشي خليفة وليس «فيجاً».. والله لا
أفلحت أبداً.

قهقه المعتصم:

- وهل بقي من الفلاح شيء لم ادركه؟! لقد اصبحت خليفة!

- اتظن أنك افلحت؟ لا والله مالك من الخلافة إلا اسمها وما يتجاوز
أوامرك أذنيك.. انما الخيفة الفضل.

توقف المعتصم وقال متسائلاً:

- وأي أمر لي لم ينفذ.

قال المهرّج:

- ألم تأمر لي بجائزة قبل شهرين؟

- نعم.

- لكنني لم استلم حتى حبة واحدة.

صرّ الخليفة على اسنانه واجتاحته موجة من الحقد المدمر وادرك
الهفتي أن المعتمصم سوف يقضي على رئيس وزرائه في نفس اليوم_.
هكذا تجري الامور في الدولة العباسية.. صعود سريع وسقوط مريع_.

(٥)

انقشع الضباب في مرتفعات أرمينيا وذابت ثلوج الشتاء، وحلّ النيروز في تلك الربوع متوتراً ذلك العام.

واستأنفت القوات الاسلامية المؤلفة من الجيش وقوات المتطوعين زحفها باتجاه قلاع «بابك» المحصنة.

وكانت طلائع الرصد تنتشر فوق رؤوس الجبال تزوّد القائد الزاحف بأخر الأخبار.

تناثرت كتائب القوات في الوديان وعلى السفوح، وكانت العلامة الوحيدة للتوقف والزحف صوت الطبول التي كانت تختلط بأمطار الربيع الغزيرة وهي تتدفق من قلب الغيوم..

كان شهر رمضان قد أطلّ فأسهّم في تخفيف اعباء الامدادات الغذائية خاصة في صفوف المتطوعين للقتال.

اختار الأفشين ثلاثة قمم تطلّ على واد فسيح حيث المرتفعات الوعرة التي تجثم فوقها «قلعة» بابك الكبرى.

سُدّت الطرق المؤدية الى القمم بالصخور وحُفرت خلفها الخنادق، وبدأ الأفشين خططه العسكرية بحرب الاعصاب ففي الفجر من كل يوم كان يعبأ قوّاته للاشتباك ثم يزحف باتجاه القلاع الحصينة ثم يتوقف ويعود عند الظهر للصلاة.. فيما ترابط بعض الوحدات العسكرية بقيادة «جعفر الخياط» تاهباً للطوارئ.

واثمرت الخطة إذ فقدت قوَّات بابك المتحصَّنة وراء القلاع أعصابها وفتحت بوابة القلعة لتتدفق في هجوم مباغت وحدثت اشتباكات ضارية. وكان المتطوعون في الجيش الاسلامي يتحرَّقون للقتال وحسم المعركة، فعبروا الوادي دون أوامر من القيادة العامة، وانشب المهاجمون أيديهم في الحصون الصخرية، ثم صدرت أوامر بالانسحاب والتراجع فعاد المتطوعون وهم غاضبون واندفع جندي متطوِّع الى الأفشين ومعه صخرة انتزعها من القلعة:

- اتردِّنا وهذا الحجر أخذته من السور؟! -

غير أن الأفشين كان يدرك أن وراء تراجع قوَّات بابك خطَّة للانقضاض فهناك خلف القمم القريبة قوَّات كامنة تنتظر مثل هذه اللحظة لاستدراج الجيوش الاسلامية الى كماشة رهيبة تكون فيها ابادتهم.

قال بعض المتطوعين:

- اننا جننا للشهادة ايها القائد فلا تحرمنا.

وأطرق القائد ثم رفع رأسه قائلاً:

- اذا كان الأمر ولا بدّ، فاعزموا على بركة الله.. لا حول ولا قوَّة إلا بالله..

وعبأ جعفر الخياط قوَّات المتطوِّعين من جديد وعزز القائد العام

للمهاجمين بفرق من الرماة وفرقة أخرى تسمى «النفاطون» ولكن الهجوم

فشل فشلاً ذريعاً بسبب عنف المقاومة، وأصدر القائد العام أوامره بالانسحاب وحمل الجرحى واصيب المتطوعين بحالة من الاحباط والمرارة.

وبعد اسبوعين وضع الأفشين خطته موضع التنفيذ فدفع بفرقة مجهزة من الرماة في حركة التفاف تحت جناح الظلام وفي حذر تام لتسلق القمم المشرفة من الخلف وتنتظر أصوات الطبول التي ستكون ايذاناً ببدء الهجوم الشامل.

كما حرك قطعاً من قوَّاته باتجاه قلعة «البد» الكبرى فتحرك «أحمد بن الخليل» وجعفر الخياط، وبعد لحظات من الفجر تكفي لأداء الصلاة، بدأ التقدم العام، وقبل أن تشرق الشمس أحرق المهاجمون بالحصون، وكان قوات بابك الخرمي قد أعدت عجلات معبأة بالصخور فأرخت جبالها واندفعت الى قلب الوادي وهي تقذف بالصخور وافسح جنود الاسلام لها لتهوي في الوادي ثم استأنفوا زحفهم باتجاه القلاع، وفي تلك اللحظات المصيرية أرسل بابك صيحة استغاثة الى القسطنطينية وأنباء مثيرة بأن «سامراء» لم تعد تملك جيشاً للدفاع عن حدودها الشمالية.

وأيقن بابك بالنهاية السوداء فغادر قلعته لاجراء مفاوضات سريعة وتسليم الحصون دون قتال مقابل الحفاظ على حياته وحياة أسرته ومعاملة المحاصرين كأسرى حرب.

ووافق الأفشين وأصدر أوامره بوقف العمليات العسكرية ولكن الاخبار جاءت باقتحام الحصون، وقد دخلت فرق الفراغنة قصورها، وانتهز بابك الفرصة للنجاة بجلده، فالهب حصانه بالسوط وهو ينظر الى السنة النار تتصاعد من قلاعه التي أحرقها «النفاطون».

وانطلق عشرات الجواسيس لمطاردة خطواته في الوديان والسفوح.. وفي تلك الاثناء وصل تعهد رسمي من الخليفة يعد بابك بالحفاظ على حياته اذا سلّم نفسه.

أرسل الأفشين رجلين من جنود بابك كانا قد استسلما كما كتب ابن بابك رسالة الى والده يحثه فيها على الاستجابة.

وعندما حصل اللقاء مزّق بابك تعهد الخليفة وبصق في رسالة ابنه وقتل أحد المبعوثين، وحمل الآخر رسالة شفوية الى ابنه:

- قل لابن الفاعلة لو كنت ابني للحقت بي ولكنك لست ابني، ولأن تعيش يوماً واحداً وأنت رئيس خير من أن تعيش أربعين سنة عبداً ذليلاً! وذات يوم عندما استيقظ بابك وجد أن حرسه الخاص وهم أربعة جنود قد فروا فغادر المكان ومعه أمه وأخوه وزوجته متجهين صوب أرمينيا. ولكنهم وقعوا في كمين، فقفز على صهوة جواده وأفلت وحده بإعجوبة.

ولكنه ما لبث أن سقط في شرك رجل باعه للأفشين بدراهم معدودة فسيق أسيراً الى معسكر الأفشين، الذي تألق مجده العسكري في انهاء تمرد دام عشرين سنة.

وفيما كان الأفشين يقود قواته المظفرة في طريق العودة كان الروم يحشدون قواتهم لهجوم بربري على مدن الجبهة الشمالية فسقطت «زبطرة»، و«ملطية» ونفذ «تيفوئيل» مجازر وحشية بحق الابرياء.

كانت سامراء مشغولة باحتفالات النصر الكبير، وقد تألق اسم الأفشين عالياً الذي كان يتسلم يومياً حلّة جديدة وفساً هدية الخليفة..

من «برزند» الى «سامرا» أيام حافلة بالحلل والخيول والأمجاد وصل الأفشين قناطر «حذيفة» ليجد في استقباله ولي العهد «هارون» نجل الخليفة الذي تسلّم الأسير الكبير حيث أفرد له مكاناً في قصره في «المطيرة».. لم يصبر المعتصم على رؤية «بابك» فأرسل رئيس السلطة القضائية «أحمد بن أبي دؤاد» ليراه ويصفه له.. لكن المعتصم لم يرتو فغادر سامرا جنوباً ليدخل على بابك في زي جندي ويشاهده عن كثب.. هذا الرجل الذي روّع بغداد زهاء ربع قرن من الزمن هاهو يجلس ساكناً مستسلماً لمصيره المجهول في ذلك المساء الشتائي من سنة ٨٣٨م.

ومع خيوط الشمس الأولى اصطفت الجماهير على جانبي الطريق من قصر «المطيرة» جنوب العاصمة الى قصر الخلافة العام في سامرا. ليس هناك من لا يودّ رؤية بابك الخرمي الذي دخل اسمه في القصص الشعبي والاساطير، وكان اكثر الناس تحرقاً لرؤيته شبان ذهب آباؤهم الى مرتفعات أرمينيا قبل سنوات طويلة ولم يعودوا.. سقطوا في السفوح والوديان المخضبة بالدم.

لقد عمت الفرحة ربوع الوطن.. عودة الجيش الاسلامي ظافراً.. تحرير آلاف الاسرى والمعتقلين، ونهاية القلاقل في تلك الأقاليم.

الأطفال الذين جاءوا مع امهاتهم شدّهم منظر الفيل بخرطومه الطويل ولم ينظر الى الرجل الذي استوى فوقه مرتدياً حلّة من الحرير وتاجاً مرصعاً.

لقد حرص المعتصم الشهير بأسيره ليعرف الجميع أي صيد ثمين وقع في قبضته.. ولكن بابك ابدى مقاومة مدهشة.. منظره الصامت حمل الكثيرين ممن التقوه على احترامه!
حتى الخليفة شعر بالدونية عندما رآه ولذا أضمر له استقبالاً فيه قدر من الارهاب والاذلال..

المعتصم مترع على سريره الملكي في قاعة البلاط وقد جىء بالاسير. نظر المعتصم الى حرسه فاندفع جندي تركي في وجهه صورة جلاّد.. انشب الجندي اظافره في حلّة بابك فمزّقها وأطاح بالتاج المرصع. وظهر جلاّد استخدم أخيراً.. انه جلاّد بابك الذي كان يتلقى الأوامر من بابك أنه الآن في خدمة الخليفة..

أصدر الخليفة أمره للجلاّد أن يقطع يدي سيّده بالأمس فبترهما في لحظات..

ثم أهوى بسيفه الذي يشبه الساطور على قدميه وسقط بابك وسط بركة من الدماء.. جلس الجلاّد ليذبحه فغاص الحديد في اللحم والشرابين.. والدماء.

لم يكتف الخليفة بذلك فطلب من الجلاّد أن يقر بطنه فغاص السيف في الأحشاء..

نهض الخليفة بعد أن أمر بانفاذ رأس بابك الى اقليم خراسان وأن يصلب جسده المقطوع الاطراف على خشبة في العاصمة.

ولم ينس المعتصم أن يصدر أمراً بتسليم أخيه «عبدالله» الى قائد شرطته
بيغداد مع توصيات بقتله بنفس الطريقة وتقدم المعتصم الى الأفشين فتوجه
بتاج مرصع والبسه وشاحين مليئين بالجواهر...
وجاء الخدم فمسحوا الدماء القانية، وعادت ارضية البلاط أنيقة من
جديدا!

وفي تلك الليلة استدعى المعتصم مطربه الخاص «زنام» فراح يعزف له
على الناي الحاناً فيها انغام تركية، وكانت رياح شباط تهب مولولة في
دروب المدينة الجديدة.

(٦)

لم يعد الزاهبون الى السوق الكبرى في سامراء، يتوقفون أو يذهبون الى «خشبة بابك» _ فقد اصبح المنظر عادياً وإن استحال الى معلم من معالم المدينة.

فالجميع بات مشغولاً بالاستعدادات العسكرية الضخمة في الجانب الغربي من دجلة حيث عسكر الخليفة استعداداً للثأر من العدوان الرومي الأخير..

وتناقل الناس قصة الأسير الذي أفلت من الأسر ونقل الى الخليفة صرخة استغاثة أطلقها امرأة سبية «وامعتصماه!».

منظر المجانيق الكثيرة يدلّ على أن خطة الثأر تتضمن احتلال مدن هامة.. كما أن اصطحاب معظم القادة العسكريين يؤكد أن المعركة القادمة ستكون مصيرية..

وأكد المعتصم على اصطحاب ابن أخيه العباس بن المأمون، فابن الأخ تبرق في عينه اطماع لاحدّ لها.. أطماع يؤججها القادة العرب الغاضبين من تدرج الاتراك في المناصب العليا للجيش والدولة _

كان الرتل الذي يقوده حيدر الأفشين في طريقه الى جبال طوروس على أن يتقدم باتجاه «انقرة» فيصلها في يوم محدد. تحركت طلائع جيش الخليفة بقيادة «أشناس» ثم عززها بقوات أخرى.

عين المعتصم على الجناح الايمن طباخه السابق «ايتاخ» وعلى الجناح الايسر جعفر الخياط، وعلى «القلب» عجيف بن عنبة القائد العربي المستاء من النفوذ التركي والسياسة العباسية الجديدة..

عبر الرتلان اللذان بلغ مجموعهما مئتي الف جندي جبال طوروس وأصبح الصيف في تلك الوديان منعشاً بسبب لطافة النسائم التي راحت تهب على القمم المكّلة بالثلوج.

فوجيء الرتل الذي يقوده الأفشين بهجوم الجيش الرومي بقيادة الامبراطور تيفوثيل فحدث ارتباك في صفوفه، ولكن الأفشين استطاع أن يردّ بهجوم معاكس دحر فيه القوّات البيزنطية والحق بها هزيمة ساحقة.

كان حزيران يللملم أيامه الأخيرة عندما التقا الرتلان العظيمان في انقرة، ومن تلك المدينة بدأ الزحف الموحد العام باتجاه عمورية التي تعدّ العاصمة الثانية بعد القسطنطينية.

أحدقت الجيوش الاسلامية بالاسوار، وفيما كان القادة يتدارسون خطة الاقتحام فرّ اسير مسلم كان قد تنصّر من المدينة المحاصرة ليدلي بمعلومات هامة..

وقف الرجل الذي كان يرتدي زيّاً رومياً في خيمة القيادة العامّة وعيناه تبرقان بالفرح والأمل:

- هناك ثغرة في سور عمورية.

- اين؟

- في الجانب المطلّ على الوادي..

هتف المعتصم وهو يعبث بلحيته الشقراء:

- لكنني لم ألمح شيئاً من هذا لقد درت حول المدينة.

- يا سيدي ما تقوله صحيح لأنها تبدو من الخارج هكذا..

ولكن امطار العام الماضي دمّرت هذا الجزء من السور فلم يعيدوا بناءه
الأبعد أن سمعوا بانباء الزحف، ولم يكن هناك من وقت فبنوه حجراً فوق
حجر وجعلوا خلفه حشواً.

برقت عينا الأفشين وهتف:

- الافضل أن نحشد المجانيق مقابل هذه المنطقة.

أصدر المعتمصم أمراً بنقل خيمة القيادة العامة الى الوادي للاشراف على
العمليات العسكرية القادمة.

بدأت مع الصباح الباكر حمم المجانيق تنهال على منطقة محددة من
السور ودفع المعتمصم بجزء من القوّات تحت قيادة عجيف بن عنيسة لبدء
عملية الاقتحام..

واجه المهاجمون مقاومة شديدة، وعزّز الروم دفاعاتهم في تلك الثغرة.
انهار جزء من السور بسبب ضعفه الشديد وكان الجنود المحاصرون
يعوضون عن ذلك بنصب الواح كبيرة من الخشب سرعان ما تدكها
المجانيق بقذائفها المدمّرة.

كتب «ياتس» قائد القوات الرومية الى الامبراطور طالباً ارسال امدادات
على وجه السرعة، ولكن الجنديين واحدهما يجيد العربية بطلاقة وقعا في
قبضة الجيش الاسلامي.

استدعى المعتمصم القائد العربي وعنّفه بقسوة في حضرة القادة الاتراك
فعاد الى مقر القيادة غاضباً.

وفي تلك الليلة وفيما كان العباس بن المأمون يتناول عشاءه بشراهة قال
عجيف بمرارة:

- ما الذي فعلت بنفسك وبناء.. كان عليك أن ترفض بيعته.. أنت ابن
المأمون.. والقادة كلهم معك..

- لقد ارغمني على البيعة.. لم يكن ذلك بارادتي.

- عندما تسكر لا تعرف ماذا تفعل..

- لقد انتهى كل شيء.

- كلاً.. هناك وقت لأن تتلافى ما حصل.. في مثل هذه الأيام نستطيع أن
نضرب ضربتنا القاضية.. الجيش كله معك، والأتراك يحنون رؤوسهم للمال
أنهم عبيد الذهب، والجنود سيفرحون بوقف القتال والعودة.

ازدرد ابن المأمون لقمة كبيرة:

- اننا الآن في حرب ولا ندري ما الذي سيحصل دعنا نفرغ من فتح هذه
المدينة أولاً..

- انت متردد وخائف.

- الأمر ليس بهذه السهولة التي تتصورها.

- انه ليس بالمستحيل أنا اتكفل لك اغتيال جميع القادة الاتراك.

- كيف؟!!

- الحارث السمرقندي رجل أديب وهو صديقك أنك تثق به أليس

كذلك؟

- نعم.

- اجعله سفيراً بينك وبين القادة العرب انهم يتحمسون للانتقام من القادة الأتراك..

وفي الظلام كان «الحارث السمرقندي» يدور في الخيام ويلتقي بعض القادة العرب الغاضبين من سياسة المعتصم في اسناد القيادة العليا للجيش الى الأتراك.

كانت الخطة تقضي بتحديد ساعة الصفر وفي تلك اللحظة يقوم كل قائد بمهمته، فالقادة الذين في قوات أشناس يتكفلون تصفيته، والقادة في قوات الأفشين يتكفلون تصفيته أما عملية اغتيال المعتصم فقد تكفل انجازها العباس بن المأمون.

كانت فكرة عجيف تنفيذ الخطة الانقلابية بأسرع وقت، لأن الخليفة وقيادته التركية مشغولة بالعمليات الحربية وفي مثل هذه الظروف يخف نشاط الجواسيس، ولكن العباس كان يرى ذلك مغامرة قد يستثمرها الروم لصالحهم.

كان «عمر الفرغاني» من القادة الذين فوتحوا بخطة الانقلاب وكان ضمن القوات التابعة لقيادة «أشناس»، ومعه احمد بن الخليل الذي لم يكن قد ففتح بعد بسبب مواقفه الانتهازية.

(٧)

واصلت المجانيق قصفها العنيف للسور الممتد بين برجين حيث توجد
الشجرة التي توسعت بشكل يبشر بانهيار السور بما يكفي لاقتحام المدينة.
كانت حالة الاستعداد قد بلغت الذروة وبات الجنود خاصة سلاح
الفرسان على ظهور الخيل والجميع متأهب لخوض معركة المصير.

وفي السحر سمع دوي هائل، وتصوّر البعض أن الجيش الرومي قد شنّ
هجومه المرتقب، ولكن الاخبار سرعان ما وصلت تفيد بانهيار السور في
تلك المنطقة التي ركزت عليها المجانيق بالقصف وعمّت القيادة العليا
للجيش أوامر بالتزام الهدوء والحذر.. وفي لحظات الفجر الأولى تقدمت
«دبابات» كبيرة تسع الواحدة منها عشرة جنود مهمتها ردم الخندق أمام
السور المنهدم وملئت جلود الأغنام بالتراب لردم الخندق وانشاء مناطق
للعبور.

بدأت قوآت أشناس بالتقدم ولكنها واجهت مقاومة ضارية وكانت
قوآت الروم قد نجحت في احراق الدبابات، ولم تسمح المساحة الضيقة
للقوآت المتقدمة بالمانورة ولذا تراجع بعد أن نجحت في توسيع ثلثة
السور المنهدم.

كثفت المجانيق في اليوم التالي قصفها العنيف لتوسيع الثلثة في السور
وكان المعتصم ومعه كبار القادة يراقبون المنطقة بدقة واهتمام.

وكان على حيدر الأفشين وحسب الخطة أن يتقدم مع قوّاته.. وعبر الوادي زحفت القوات الاسلامية باتجاه الاسوار، وقد احدثت شجاعة القائد العسكري حماساً في قلوب جنوده الذين ما يزالون يتذكرون انتصاراتهم في أرمينيا وأذربيجان.

وكانت شخصية الأفشين بطبيعتها قد جعلته محبوباً في نفوس كثير من الجنود فالمرتبات التي يتقاضونها عالية بالنسبة لغيرهم ونظراً لثقافته العالية فقد كان مؤدباً في تعامله مع جنوده بعكس أشناس الذي لا يتورع عن استخدام الكلمات البذيئة في حديثه مع القادة الصغار في قوّاته.

من على التلال المشرفة كان المعتصم ومعه كبار القادة يراقبون سير العمليات والتقدم الذي احرزه فقال المعتصم فرحاً:

- ما أحسن الحرب هذا اليوم؟!

علّق عمر الفرغاني قائلاً:

- إنها أفضل من الأمس.

وأيد أحمد بن الخليل رأيه.

وكاد اشناس يتفجر من الحقد لكنه لاذ بالصمت وفي منتصف النهار غادر المعتصم مقرّ القيادة العامّة الى خيمة الاستراحة وكذا فعل القادة

36 الكبار.

انصرف اشناس الى خيمته المصنوعة على الطراز التركي، وترجّل له القادة فألقى نظرة شزراء على عمر الفرغاني وأحمد بن الخليل وخاطبهم بقسوة:

- يا أولاد الزنا أيش تمشون بين يدي.. كان ينبغي أن تقاتلوا بالأمس لا أن تتحدثوا عن الحرب وتقولون لأمير المؤمنين: الحرب اليوم أفضل منها أمس.. هيّا الى خيامكم!!
أطرق الرجلان ثم قاد حصانيهما ساكتين فيما كانت نظرات الجنود الاتراك تشيعهما باحتقار.
آثر أحمد بن الخليل أن يجلس في خيمة صديقه عمر الذي غمغم باستياء:

- ابن الفاعلة.

- عار علينا أن نسكت لهذا العبد الحقير.. ابن الزانية.

واستطرد بعد لحظات:

- اللجوء الى الروم أقلّ عاراً مما سمعته من هذا الكلب.

قال عمر مسلياً صاحبه.

- سيلقى جزاءه قريباً.

- ماذا تعني؟!!

- لا شيء.. لا شيء يا صديقي.

قال احمد بالحاح:

- انت لا تتحدث عن لا شيء.. اذا كان هناك أمر فأخبرني.

قال الفرغاني بحذر وقد برقت عيناه.

- اتصل بالعباس بن المأمون.. هناك خطة مبيته للقضاء على جميع القادة

الاتراك بما في ذلك الخليفة.

قال أحمد بن الخليل متوجساً:

- انها مهمة خطيرة لا أحسبها تنجح.

قال الفرغاني مبتسماً بشماتة:

- لقد تم كل شيء.. ماذا تقول يا صاحبي.. هناك رجال ينتظرون الاشارة فقط.. اشارة واحدة وينقض كل منهم على قائد تركي أنصحك بالاتصال بالحارث السمرقندي فهو سيتكفل بكل شيء وتكون واحداً منا!

ورفع الحارث اسمه الى العباس، فقال:

- انني أخشى هذا الرجل.. اتركه بلا جواب.

واتصل احمد بن الخليل بالفرغاني فنصحه بالانتظار فقال أحمد:

- أنا معكم شرط تنفيذ الخطة خلال عشرة أيام، فإذا لم يحصل شيء فأنا لست معكم.

اكتفى الفرغاني بأن رمق صاحبه بقلق وقال:

- كما تشاء.. ولكن لا تحدّث أحداً بشيء.

هزّ أحمد رأسه علامة النفي.

أطلّ اليوم الثالث وأصدر المعتصم أوامره الى القوّات المنضوية تحت قيادته الميدانية المؤلفة من «المغاربة» و«الأتراك» بالتقدم وأسند القيادة الميدانية الى «إيتاخ».

وقد نجحت القوّات المتقدمة باحداث توسع في الثغرة وتساقطت اجزاء اضافية من السور.

طلب القائد الرومي المسؤول عن خطوط الدفاع في ذلك الجزء من السور إمدادات ولكن دون جدوى. فأصدر أمراً الى قواته بوقف القتال من جانب واحد، وغادر الحصن طالباً الاجتماع مع الخليفة.

أمر المعتصم بتوقيف القائد الرومي في خيمة ولم يجتمع به، وكانت قواته تتقدم نحو الأمام فاقتحمت السور في تلك المنطقة وقد أوقف الروم هجماتهم بالسهام.

وهنا طلب المعتصم باحضار القائد الرومي قائلاً له:

- والآن ماذا تريد؟!

- لقد أوقفت القتال من جانبي وجئتك للتفاوض.. ولكنك غدرت بي؟

- ماذا تريد؟!

- ما معنى هذا وقد دخل الجنود المدينة..

وفي الاثناء اشتعلت الحرائق في المدينة واستسلمت جميع الحاميات الرومية وتم الفتح.

(٨)

وضعت الغنائم تحت حراسة قوّات «ايتاخ» لتعرض للبيع في المزاد الذي سيبدأ غداً..

انطلق «عمر الفرغاني» و«احمد بن الخليل» لانتخاب الرقيق الذي سيعرض للبيع في معسكر الأفشين.. فصادفا القائد الكبير في الطريق وترجلا له فحيّاهما بكلمات فيها ودّ واحترام وعندما اجتاز القائد في طريقه الى عيادة «اشناس» الذي المّت به وعكة صحية ولزم خيمته قال أحمد:
- انني احترم هذا الرجل.

- وأنا أيضاً.. ولكن ماذا افعل وقد جعلني الخليفة تحت قيادة ابن الفاعلة اشناس.

امتطيا جواديهما ولم يشعرا بالجاسوس الذي كان يراقب حركاتهما.
كانا ينتظران الرقيق عندما جاء مبعوث من قبل اشناس يستوضحهما سبب مغادرة المعسكر قال الفرغاني:
- ننتظر عرض الرقيق.

قال المبعوث:

- وكّلا وكيلاً يشتري لكما.

قال ابن الخليل:

- نريد أن نشترى حسب رغبتنا.

قفل المبعوث عائداً الى خيمة القائد التركي الذي صرخ مهدّداً:

- ليعودا فوراً قبل أن ابطش بهما.. لا أريد قادة يتسكعون.

تلقى عمر الفرغاني التهديدات بحزن، وانطوى احمد على نفسه وتبادلا النظرات قبل أن يتفقا على تحرير طلب للخليفة بنقلهما الى وحدات عسكرية أخرى غير تابعة لقيادة اشناس.

تحت جناح الظلام اجتمع «عجيف» بالعباس بن المأمون وكان العباس يعبّ من كأس ملىء بالنبيذ قال عجيف بمرارة:

- يا نائم كم تنام؟! قد فتحت عمورية والرجل ممكن.. دسّ رجالاً يسطون على الغنائم.. لتحدث الفوضى وعندها اضرب ضربتك..
قال العباس:

- كلاً انتظر حتى تصل الجيوش المناطق الجبلية ثم ننتهز وجوده في قلّة من الجنود..

- انتهى كل شيء.. لقد دسست جماعة لافتحال حادثة السطو وأنت يتوجب عليك أن تنهض بمهمتك عندما يهبّ المعتصم لإعادة النظام أو تأمر رجالك باغتياله في الطريق الى معسكر «ايتاخ».

وفي الصباح الباكر نفذت حادثة السطو بنجاح، وحدثت الفوضى وكما متوقع هبّ المعتصم ومعه مجموعة من حرسه الخاص المؤلف من أتراك ومغاربة وكانت صيحات الخليفة:

- اقتلوا كل من يشك فيه!

كان المتوقع أن يعلن العباس ساعة الصفر قبل أن يصل المعتصم معسكر ايتاخ ولكن شيئاً لم يحدث، مرّ الحادث بسلام وعاد النظام من جديد الى المعسكر وعندما حلّ المساء كان أحد أفراد الحرس الخاص وهو فتى

تركي في مقبل العمر في طريقه الى خيمة عمر الفرغاني ليشرب مع ابنه تلك الليلة..

ودارت الكؤوس ودار معها الحديث على ما وقع من فوضى في الصباح
قال الفتى الأمر:

- كان الخليفة غاضباً جداً حتى اصبح وجهه مخيفاً.. صاح بي: اضرب كل من يصادفك كائناً من يكون.

شعر عمر الفرغاني بالشفقة لصديق ابنه فقال:

- يا بني أنت أحق.. لا تلازم الخليفة ليلاً والزم خيمتك.. ما تزال صغيراً بعد.. فاذا سمعت شغباً أو ضجة فلا تغادر الخيمة أبداً فأنت لا تعرف بعد

العساكر والجيوش وما يدور في رؤوس القادة والجنود!

أدرك الفتى التركي أن هناك أسراراً فالتزم الصمت.

بعد صلاة الصبح كان المعتصم في طريقه الى خيمة اشناس يتفقد صحته وكان من المقرر أن تبدأ الجيوش انسحابها من المناطق المحررة،
قال المعتصم لقائده التركي:

- أحسن أدب الفرغاني وأحمد انهما يتصرفان بغباء.

فارت الدماء في عروق القائد فما أن غادر المعتصم الخيمة حتى نهض

42 كمن مسّه الشيطان وأصدر أمراً بالقاء القبض عليهما فوراً.

القي القبض على عمر الفرغاني أما أحمد فلم يكن موجوداً.. جرّد عمر من ثيابه ليتلقى السياط اللاهبة، وما لبث الجنود أن جاءوا بأحمد أيضاً فتم توقيفهما معاً.

وبدأت الجيوش انسحابها في طريق خالية من ينابيع المياه والانهار ولذا تولى «بغا» مسؤولية رقد الجنود بالماء فأنشأ احواضاً من الجلد وملأها بالمياه على طول طريق الانسحاب.

شاع خبر اعتقال القائد عمر الفرغاني، مما أثار شكوك الفتى التركي الذي سكر في خيمته الليلة الفائته، ولذا بادر الى المعتصم ليحيطه علماً بما سمع.. قال الفتى:

- لقد قال لي عمر شيئاً يبعث على الشك.

- وماذا قال؟

- قال لي كأنه ينصحني: اذا رأيت شغباً فالزم خيمتك.

كلف المعتصم «بغا» بإحضار الفرغاني مخفوراً، فكان على «بغا» أن يتوقف في منعطفات «بدندون» الجبلية ريثما تصل قوات أشناس ومالبت أن ظهرت طلائع القوات فهمز بغا حصانه والتقى القائد أشناس وأحاطه علماً بأمر المعتصم.

كان أحمد بن الخليل وعمر في عدلين على بغل نكاية في إهانتها وفوجئاً بكوكبة من الفرسان ورجال غلاظ كأن وجوههم وجوه الصقور تنتزع عمر الفرغاني تاركة رفيقه في حيرة مدمرة.

ذهبت بأحمد الهواجس وتحول الزمن اليه الى بحر متلاطم بالوساوس والمخاوف، خاصة عندما سمع أن الفرغاني مكث في خيمة المعتصم مدة ساعة سلم بعدها الى «ايتاخ» المعروف بدمويته.. ومعنى هذا أن المعتصم قد حكم عليه بالاعدام.

لهذا سطر أحمد بن الخليل كلمات مختصرة للقائد أشناس: «عندي نصيحة لأمير المؤمنين».

عندما اطلع أشناس على مضمون الكلمات أرسل اليه «أحمد بن الخصب». كانت الجيوش الاسلامية تواصل سيرها في طريق العودة، وحدثت فوضى في بعض القطعات المكلفة بنقل الاسرى وبرزت مشكلة المياه واحتمال نضوبها مما يؤدي الى تهديد سلامة الجيوش، أصدر المعتصم أمراً بتصفية آلاف الاسرى فأخذوا الى واد قاحل وتم اعدام ستة آلاف.

جاء «أحمد بن الخصب» للاطلاع على طبيعة هذه النصيحة، قال ابن الخليل:

- انني لن أخبر أحداً غير أمير المؤمنين شخصياً.

استشاط أشناس غضباً وكانت عيناه تقدحان شراً فأعاد أحمد بن الخصب وحمله رسالة تهديد:

- قل له انني أقسم بحياة المعتصم أن يطلعني على السرّ وإلا سأقتله بسوطي!

استسلم أحمد بن الخليل وراح يتقياً الاسرار التي يعرفها وأكد على أن

44 لدى «الحارث السمرقندي» جميع أسرار المؤامرة الانقلابية! وأن الذي

فاتحه بها هو عمر الفرغاني!

(٩)

أخذت الأمور شكلاً أكثر إثارة وحساسية، وكان المعتصم يصدر أوامره بسرية تامة معتمداً على المقربين اليه من حرسه التركي؛ ولكنّ اشناس اطلع على تفاصيل الخطة قبل المعتصم ولذا انتظر حلول الظلام لتهاجم مجموعة من الحرس خيمة «الحارث السمرقندي» وتقتاده مخفوراً الى خيمة المعتصم وعلى ضوء قنديل في داخل خيمة الخليفة، أدلى الحارث بتفاصيل مذهلة عن المؤامرة وكان عدد الأعضاء من القادة لا يصدّق.. كان الكاتب يسجل تفاصيل المؤامرة واسباب الأنخراط فيها.

أمر المعتصم باطلاق سراحه وكافأه، واصدر أوامر مشددة بالقاء القبض على جميع القادة المتآمرين بما في ذلك العباس بن المأمون.

وفي الطريق بين عمورية وجبال طوروس، وفيما كانت الخيام تنصب لاستراحة المبيت أمر المعتصم بأحضار العباس - فأمر بفك قيوده، وتظاهر المعتصم بأنه قد تناسى ما حصل ومدّ الخوان لتناول طعام الغداء، وخلال ذلك حاول المعتصم انتزاع اعتراف حول القادة، ولكن العباس كان يلتزم الصمت مطرقاً برأسه وهو يزدرج طعامه.

وبعد انتهاء الطعام أحضر أحد القادة المتآمرين واسمه «الشاه بن سهل».

رمقه المعتصم بحقد وخاطبه بفضاظة:

- يا ابن الزانية.. احسنت اليك فلم تشكر!

وردّ «الشاه» بالمثل وهو يشير الى ابن المأمون:

- ابن الزانية هذا الذي بين يديك.. لو تركني ما كنت تجلس هذا المجلس وتقول لي يا ابن الفاعلة!

استحالت عينا المعتصم الى جمرتين، وأمر باعدامه فوراً.

كان الشاه بن سهل أول من تمت تصفيته.

سُلم «عجيف بن عنيسة» الى ايتاخ، وسُلم «أحمد بن الخليل» الى اشناس واطلق سراح العباس بن المأمون ولكنه وضع تحت حراسة مشددة في معسكر الأفشين.. وفي نفس الليلة استدعي العباس ليشرب مع الخليفة وكان المعتصم يسقيه حتى اذا سكر العباس راح الخليفة يستجوبه مرة أخرى فاعترف العباس بكل التفاصيل وكان الكاتب يسجل الاعترافات المثيرة وقد غاص ريقه!!

وتم تنفيذ أحكام بالاعدام بحق الكثير من العناصر المشتركة في العملية الانقلابية الفاشلة، وقد تمت التصفيات بصورة سرية وكان المعتصم يحرص على تنفيذ الاعدامات في محطات الطريق الطويل.

في مدينة «منبج» السورية توقف المعتصم، وحبس العباس في خيمة ليترك دون طعام.. لا شيء اكثر عذاباً للانسان من الجوع خاصة لدى انسان يتفنن في ملء معدته بكل مالذ وطاب..

أمر المعتصم بتقديم أنواع الطعام الحلو والمالح، وراح العباس يلتهم من هذا وذاك بشراهة، وكان الحرس ينظرون اليه وهزّ أحدهم رأسه: أنه يحفر قبره بأسنانه.

امتلأت بطنه بالطعام وشعر بحرق يشعل في احشاءه كل خلاياه تصرخ: ماء! ماء! ماء لاطفاء اللهب.

صرخ العباس..
- اريد ماءً.

ومرّ الزمن مدمراً وألسنة اللهب تحرق أمعاءه.. قلبه.. كبده.. كل شيء
في داخله يحترق.. واستحالت الصرخات المجنونة الى أنات واهنة متعطفة..
وكان المعتصم يتلذذ بعذابه.

أشار المعتصم الى أربعة من الحراس الغلاظ فدخلوا الخيمة ولقوا ابن
المأمون بجلد ثور وحالوا بين الحطام الملفوف والهواء.. نسي المأمون الماء
وراح يتوق الى نسمة هواء لكن دون جدوى.. الحياة تتسرب من جسده
شيئاً فشيئاً وخمدت أنفاسه لينطفئ..
وأجريت مراسم الدفن بسرعة وباختصار.

وتحركت الجيوش تاركة العباس جثة هامدة تحت التراب على قارعة
الطريق، وكانت آلاف الخيول والبغال تدوس فوقه التراب دونما اكتراث!
في «نصيبين» توقف المعتصم واتخذ من بستان فيها مقراً لأستراحته..
وكان القدر يختار هذه المرّة ضحية أخرى.

خاطب المعتصم صاحب البستان وهو يومي الى بقعة فيه:
- احفر بئراً هنا.

47 انبرى الفلاح لتنفيذ أمر الخليفة وقائد الجيوش، وراح يحفر بحماس بئراً
وأما المعتصم فكان يكرع كؤوس النيذ منتشياً، أصدر أمره باحضار عمر
الفرغاني فجيء به مكبلاً بالاغلال.
- جرّدوه!

صرخ المعتصم بحراسه الاتراك.

اصبح الرجل عارياً.

صاح المعتصم:

- السياط.

فانهالت عليه، وكان الفلاح ما يزال يواصل عمله.. السياط تلهب الجسم العاري والبئر تتسع كقم حيوان مخيف وعندما انتهى عمله قال متذلاً.

- قد حفرتها يا سيدي.

وفي الاثناء سقط الفرغاني فوق الأرض الندية.

صرخ المعتصم:

- جرّوه الى البئر.

وسقط الجسد الحطام في البئر.. وهيمن صمت ثقيل كان المعتصم ينتظر كلمات متوسّلة خاضعة ولكن لا شيء سوى الصمت..

أشار الى حراسه بإهالة التراب ليستحيل البئر الى قبر.

وقريباً من العاصمة وفي بلدة تدعى «باعيناثا» قال المعتصم وقد ضربت

الخيام لمحمد بن ابراهيم بن مصعب وهو المسؤول عن «عجيف»:

- لم يمت عجيف بعد؟!

- يا سيدي اليوم يموت.

انطلق الرجل الى خيمته حيث حبس عجيف وخاطب السجين:

- يا أبا صالح أي شيء تشتهي.

أجاب عجيف وقد دمّرتة رحلة الجوع الطويل.

- حلوى و«فالودج» و«اسفيدباج».

وقدّمت له انواع الطعام، وتكررت نفس محنة العباس وراح الرجل المسكين يبكي من أجل قطرة ماء، وراحت السياط تنهال عليه وهو يركض فيتأجج عطشه الى أن سقط جثة هامدة، فدفن.

وصل المعتصم سامراء واقامت احتفالات النصر ولم يبق من أعضاء المؤامرة سوى «احمد بن الخليل» ورجل تركي كان مكلفاً باغتيال اشناس.. كان القائد التركي يريد لهما الموت البطيء.. تعذيب جوع ثم زنانة لا يزورها الهواء..

وبين تفرّع نهري يمتد الكرخ بالماء وبين دجلة تمّ حفر بئر لأحمد بن الخليل وأودع في ظلمتها الرهيبه وكان غذائه الوحيد الخبز والماء، وأما الرجل التركي فقد اودع في حجرة وبني حائط من الطين على الباب وأصبح اتصاله بالعالم مقطوعاً.. وكان حقد اشناس عليه يزداد كل يوم ولم يكن يتوقع ذلك من رجل تركي كان ينادمه في الخمر ويشرب معه! وبعد أيام سمح لابنه بزيارته على أن يتحدث معه من خلال الكوة الوحيدة.. قال الابن بعد أن انتهت مدّة اللقاء:

هل تحتاج شيئاً يا أبي.

- اريد أن توصل لي سكيناً فقد استطيع الإفلات من هذا السجن.

مضت أيام معدودة وسأل المعتصم أشناس عن مصير أحمد بن الخليل فقال القائد التركي:

- لقد وضعته في بئر وغذاؤه الخبز والماء فقط.

قال المعتصم بحقد:

- أظنه قد سمن الآن.

وفي نفس اليوم أمر اشناس الحارس بفتح الماء على البئر ومنع الخبز عنه
ثم ردمت البئر.

وفي اليوم التالي وجد الرجل التركي ميتاً والدماء تنزف منه لقد انتحر
بسكين أوصلها ابنه اليه!

وهكذا انطوت آخر أوراق الحركة الانقلابية الفاشلة التي لم تسفر عن
شيء سوى عن الوجه الحقيقي للمعتصم كطاغية أرعن.

(١٠)

اطلت سنة ٢٢٤هـ وتجمعت في السماء غيوم تنذر بانفجار آلاف الصواعق، وكان الناس يتابعون بقلق أنباء تدهور الأوضاع في مناطق الشمال الايراني، إذ أعلن «المازيار» تمرده على الخلافة، وكانت الاطماع في الحصول على المزيد من النفوذ والاقليم يزيد من حدة الصراع بين شخصيات الدولة.

الأفشين يتطّلع الى حكم الاقليم الذهبي الغني «خراسان» وعبدالله بن طاهر نجل فاتح بغداد في الحرب الاهلية يحاول ازاحة الأفشين؛ وامتدت حمى التآمر الى سامراء، فلأسباب مجهولة كان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد يحقد هو الآخر على الأفشين ويتربص به الدوائر، واستطاع أن يستميل اليه القائد التركي «اشناس» رغم اقدام الأفشين على خطبة ابنة اشناس «اترنجة» الى ابنه «الحسين».

كان عمر بن فرج ما يزال في المدينة عندما تلقى نبأ الزواج وأن مراسم الزفاف ستقام في قصره الذي عرف آنذاك بـ «العمرى»_ وان احتفالات كبرى ستقام بهذه المناسبة، ولذا راح يستعد للعودة الى سامراء بالرغم من فشل مهمته في المدينة، ففكرة تنشئة علي بن محمد الجواد بعيداً عن ثقافة أهل البيت واجهت الاحباط، وقد بهر الصبي الجميع.. حتى استاذة الجنيدى الذي كان يناصب العلويين العداة بات يتعاطف معه ويميل الى الاعتراف بامامته وفي هذا خطر كبير!

ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ إن هذا الصبي الذي بلغ العاشرة يتدفق حكمة وأدباً ويظنه المرء وهو يتحدث قد عاش ألف سنة وشهد دورات الزمان، واندثار الدول وزوال الامم.. أنه لا يستطيع أن ينسى كلماته ذات يوم وهو يتحدث مع المسؤول عن نظافة القصر قال له بأدب: «إن الله يحب الجمال والتجمل ويكره البؤس والتبؤس... وعندما ينعم الله على عبده أحب أن يرى أثرها».

وسأل الرجل: وكيف ذلك؟ قال الصبي: ينظف ثوبه، ويتعطر، ويحسن داره، ويكنس أفنيته.. ويضيء المنزل قبل غروب الشمس.. حتى إن السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق..

ولن ينسى أيضاً كلماته العميقة الغور:

«صلاح من جهل الكرامة هوانه»..

«الناس في الدنيا بالمال، وفي الآخرة بالاعمال».

«وتريك المقادير ما لا يخطر ببالك»..

«مخالطة الاشرار تدلّ على شرّ من يخالطهم».

«إذا كان زمان العدل فيه أغلب من الجور، فحرام أن يظن بأحد سوءً حتى يعلم ذلك منه؛ وإذا كان زمان الجور أغلب فيه من العدل فليس لأحد أن يظن بأحد خيراً ما لم يعلم ذلك منه».

«الدنيا سوق ربح فيها قوم، وخسر فيها آخرون».

كان عمر في طريقه الى مسجد النبي ذلك المساء، وقد مضى وقت على انفضاض الناس من صلاة الجماعة، وكانت طائفة منهم في فناء المسجد

يحدّقون ساهمين باتجاه الكوكب المذنب_ الذي ظهر يسار القبلة قبل أيام،
سمع أحدهم يهتف:

- أظن أن ذنبه يمتد الى آلاف الأميال!!

وعلق آخر متوجساً:

- هذا نذير شؤم.

ولج عمر حرم المسجد، ووقعت عيناه على الصبي الذي لم يكد يبلغ
العاشرة حتى اصبح شخصية علمية لها شأنها الكبير، وتساءل في نفسه كيف
يمكن لصبي نشأ في قرية وفي بيت ليس فيه سوى نسوة زنجيات أن يكون
له كل هذا العلم والحكمة؟!

واستعاد ذكريات حوارهِ مع أخيه محمد في بغداد قبل أن ينطلق في
مأموريته الى هنا.

انتبه الى نفسه على جلبة وضوضاء عكرت السكينة الغامرة كانوا
مجموعة من الصوفيين زائغي العيون؛ راحوا يطلقون التهليل ويترنحون
ويحركون رؤوسهم ويؤدون حركات تشبه رقصاً حزيناً كانوا ذاهلين لكأنما
مسّهم طائف من الجن.

المصلّون المتناثرون في زوايا المسجد النبوي راحوا ينظرون اليهم؛ حتى
الذين كانوا مع الامام التوت اعناقهم باتجاه الصوفيين.. يراقبون حرّكاتهم
الثملة، عندها قال الصبي:

- لا تلتفتوا الى هؤلاء الخلدّاعين، فانهم حلفاء الشياطين، ومخربوا قواعد

الدين...

انهم ليسوا إلا أناساً ينشدون الراحة فاختاروا التظاهر بالزهد، يظهرون العبادة لاصطياد المغفلين، «أورادهم الرقص والتصدية» وأذكارهم الترنم والغناء.. لا يتبعهم إلا السفهاء، ولا يعتقد بهم إلا الحمقى.. فمن ذهب الى زيارة أحدهم فكأنما ذهب الى زيارة الشيطان».

قال رجل:

- حتى لو كان معترفاً بحقوقكم.

أجاب الامام بحزم:

- دع هذا! من اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا.. ان هؤلاء هم اسوأ طوائف الصوفية، والصوفية كلهم مخالفونا، وطريقهم مغاير لطريقنا.. وإن هم إلا نصارى أو مجوس هذه الأمة».

المسلمون الحقيقيون يمارسون إعمار الأرض باعتبارها جزءاً من السماء يتطلعون اليها ويسهمون في إعمارها لأنهم خلفاء في الأرض، وهم أبعد ما يكونون عن الزهد السلبي الذي يقعد الانسان عن دوره في الخلافة وأقرب ما يكونون الى الزهد الايجابي الذي جعل منهم سادة الدنيا لا عبيداً، ويحصنهم ضد التحول الى طواغيت لاستغلال الآخرين.

كان عمر بن الفرج يريد احاطة الصبي العلوي بسفره الوشيك ولذا جلس قريباً منه وكان الامام في حالة استغراق شفاقة وسمعه يقول في

دعائه:

- يا من تفرّد بالربوبية!

وتوحد بالوحدانية!

يا من اضاء باسمه النهار!

واشرقت به الانوار!

واظلم بأمره هندس الليل!

وهطل بغيثه وابل السيل!

أسألك أن تصلي على محمد وآله محمد.

وأن تجعل شيعتي من الذين حملوا فصدقوا، واستنطقوا فنطقوا آمين
مأمونين.

اللهم! إني أسألك لهم توفيق أهل الهدى.

وأعمال أهل اليقين.

ومناصحة أهل التوبة، وعزم أهل البصر، وتقية أهل الورع حتى يخافوك
اللهم مخافة تحجزهم عن معاصيك.

وحتى يناصرحوا لك وفيك خوفاً منك.

وحتى يخلصوا لك النصيحة في التوبة حياً لهم فتوجب لهم محبتك.

وحتى يتوكلوا عليك في أمورهم كلها حسن ظن بك.. وحتى يفوضوا
إليك أمورهم ثقة بك..

اللهم اقصم الجبارين وابر المغترين وأبد الأفاكين الذين إذا تتلى عليهم
آيات الرحمن قالوا: أساطير الأولين.

وانجز لي وعدك أنك لا تخلف الميعاد.

أقفر المسجد إلا من الصبي الطاهر.. حتى عمر بن الفرج فضل
الانصراف على أن يكلف شخصاً يبلغه خبر السفر الى سامراء.

كانت القناديل ترسل ضوءً شفافاً بهيئاً، واتجه الصبي الى ضريح آخر
الانبياء، مسّ بكفّه الصغيرة الندية الضريح المضمخ بالرسالات الالهية
وهمس بأدب:

- السلام عليك يا ابتي!

واحنى بوجهه المستدير الاسمر ليشم شذى التراب الطاهر كأنه يملأ
صدره بأريج الجنّات.. جنّات الفردوس.

كان يفضل العودة وحيداً الى قرية «صريّاً» خارج المدينة - مستعذباً
صمت الصحراء ومتأملاً بخشوع السموات المرصعة بألاف النجوم.

(١١)

وصل عمر بن فرج سامراء التي كانت تستعد لحفلة زفاف كبرى سوف
يرعاها الخليفة بنفسه.

كان قصر العمري، يتألق ذلك المساء وقد أضاءت عشرات القناديل
أروقتة وحدائقه الغناء، وجاء الخليفة في موكبه تحفه كوكبة من الحرس
الأتراك والمغاربة الزوج.

لم يكن هناك من هو أكثر اهتماماً بهذا الزواج من الخليفة.. خاصة بعد
الاجراءات التي اتخذها في منع زواج الأتراك الأ من التركيات ومنع الطلاق
بينهم في جميع الظروف.

اقفرت العاصمة أو بدت هكذا فقد هرع جميع السكان الى قصر العمري
لحضور الاحتفالات الكبرى في زواج فريد من نوعه.
ووزعت على المدعوين زجاجات من أعلى أنواع العطر مصنوعة من
الفضة الخالصة.

اتخذ المعتصم مكانه فوق سرير الملك وحواله القادة العسكريين وقد
ظهر جلياً أن موقع «الأفشين» قد احتل الصدارة فقد برز كقائد عسكري
كبير، وغطى وجوده على شخصية المعتصم بسبب تصرفه الرزين الذي يدلّ
على ثقافة واسعة، أمّا اشناس فقد عوض شعوره بالنقص بارتداء حلّة من
الديباج الأصفر، وكان ينظر بطرف خفي الى منافسه الأفشين ولم تمنح هذه

الزبيجة من صدره وساوس القلق وهو اجسه، وقد لاحظ هذا قاضي القضاة احمد بن أبي دؤاد فأضمر في نفسه استغلال ذلك في أول فرصة!
 أما الأفشين فكان يسعى الى الاستيلاء على حكومة خراسان والابتعاد عن العاصمة ما أمكن، فهناك يستطيع أن يؤسس له كياناً شبه مستقل لا يتبع الخلافة إلا بالاسم.

وكانت عقبته الوحيدة هو أن يزيح عبدالله بن طاهر بن الحسين عن طريقه ولكن ابن فاتح بغداد عرف كيف يضرب ضربته فيتغدى باعدائه قبل ان يتعشوا به.

فجأة ظهرت القلاقل في المناطق التي كانت تحت سيطرة «بابك الخرمي» وبدأت التقارير ترد من حاكم خراسان حول آخر التطورات.. ولكن ما أثار قلق المعتمصم تقرير خطير حول دور الأفشين في تغذية القلاقل في آذربيجان والاصقاع المتاخمة لبحر قزوين.

التقارير تترى واختلطت فيها الاحقاد والاطماع والوقائع، وكان قاضي قضاة الدولة حاذق في تأجيج الحقد والخوف في نفس الخليفة، ولم تمض مدة حتى اصبح الأفشين بعباً يتوجب القضاء عليه، وما ساعد على ذلك نفسية الأفشين التي تأبى التملق والتزلف والخنوع، ومن الصعب على انسان تحدر من اصلااب الملوك_ أن يصبح عبداً خانعاً ذليلاً حتى لو دفع ذلك حياته، إنه لا يجد لكرامته ثمناً إلا الموت.

ولم تمض سوى اسابيع قليلة، حتى تفاقمت الامور بشكل يندر بوقوع كارثة، وصلت العلاقات بين القائد حيدر الأفشين والخليفة الى برود قاتل، ومع ذلك فقد ظل الأفشين في منصبه كقائد أعلى لقوات الحرس الخاص،

فكانت اخبار القصر تصل اليه وتعكس له ما يدور في الأروقة من دسائس ومؤامرات.

ولذا فكر في توجيه ضربة انتقامية والقضاء على الخليفة وطاقمه المؤلف من القادة الاتراك ومن ثم الهروب الى الموصل ومنها الى أرمينيا فبلاد الخزر، ثم الى مسقط رأسه «اشروسنا» في شرق خراسان. وفي مكان ما اصدر الأفشين أوامر بصنع طوافات خشبية لعبور نهر الزاب.

وذات ليلة وفيما كانت رياح الخريف تهب بهدوء كان القائد «واجن الاشروسني» يتسلم مهامه اليومية في قيادة حرس القصر، اقترب منه أحد جنوده ودار بينهما حوار هامس، قال الجندي بحذر:
- الأفشين قلق جداً لقد وقع المازيار أسيراً في يد عبدالله بن طاهر.

- وما في هذا؟!!

- انت تعرف مقدار العداء بينهما.. ابن طاهر يقول أن الأفشين هو الذي شجع المازيار على العصيان والتمرد.
وسكت قليلاً ليقول:

- هناك من يتآمر على الأفشين في الخفاء.. الخليفة غاضب عليه.. أنه يصغي الى وساوس الحساد والحاقدين.

- لا اظن ان الخليفة ينسى فاتح عمورية وقاهر بابك الخرمي.

- ماذا تقول يا سيدي الأمر قد بات خطيراً، الأفشين يائس من الخليفة، وقد فكر في القضاء على مناوئيه.. يريد أن يتغدى بهم قبل أن يتعشوا به.

- ماذا تعني؟!!

- لقد كلفني أن افتحك.. الأفشين ينوي توجيه دعوة الى الخليفة و كبار القادة ايتاخ و اشناس وعندما يتناولون طعام الغداء فأنهم سوف ينامون الى الابد.

- هذه مغامرة.. قتل الخليفة أمر خطير.. لا تنس أننا لن نصبح خلفاء سوف يأتي خليفة جديد و ينتقم من القتلة.

- لقد دبر الأفشين خطة للفرار.. والطوافات سوف تجهز بعد أيام.

- واذ لم يحضر الخليفة و يلبي الدعوة؟!

- نقل هؤلاء القادة الذين باعوا انفسهم للشيطان.. انسيت ما فعل ايتاخ و اشناس انهم يقتلون الناس دون رحمة.. والخليفة لا يفكر الا بنفسه و أولاده، وهذا القاضي الحقير أنه يزوّق له الباطل فيبدو له كأنه حق!

هزّ «واجن» رأسه و لوّح بيده:

- هذه افكار صبيانية لا أظن أن الأفشين سيحالفه الحظ.

- ماذا تعني؟!

- هذه خطة فاشلة.. مكتوب عليها الفشل..

سدّد الجندي الاشروسي نظرة قاسية الى القائد «واجن» الذي بدا شارداً الذهن.

60 قبل منتصف الليل انتهت نوبة الحراسة، و سلّم القائد «واجن» مفاتيح الأبواب الى القائد ايتاخ، و امتطى صهوة جواده عائداً الى منزله في المطيرة، جنوب سامراء.

وكان الجندي المكلف باطلاع «واجن» قد انتهز الفرصة وهمز حصانه وانطلق الى «المطيرة» حيث يربض قصر الأفشين ويطلعه على موقف «واجن».

- الأمر جد خطير!!

هتف القائد الذي وصل ذروة مجده العسكري وأردف بقلق:
- ان واجن ذا إرادة ضعيفة.. يخشى ظلّه.. لقد اخطأت بمفاتيحه.
قال الجندي مبهور الانفاس:

- وماذا نفعل الآن.

قال الأفشين.

- ان واجن يجب أن يموت قبل شروق الشمس.

كان أحد الخدم يصغي الى حوار الرجلين، وسمع بوضوح كلمات التهديد، إن صديقه في خطر، فتسلل تحت جناح الظلام الى منزل «واجن» الذي لم يكذب يخلع بزّته الرسمية كقائد في الحرس الخاص، حتى استحال قلبه الى طبل مجنون وهو ينصت الى تهديدات الأفشين باغتياله.. سهل الحصان الذي لم يلتقط انفاسه بعد، حتى وجد نفسه يتجه شمالاً الى «سامراء».

ليس هناك من وقت يجب اطلاع المعتصم على كل شيء «هذا هو الطريق الوحيد لكي يحتفظ برأسه.. عشرات الهواجس تزدهم في راسه كخيول بريّة، وخيل اليه أن أحداً يتبعه فألهب ظهر حصانه بالسياط.. لم تكن السماء صافية وكانت ثمة غيوم بدت كالحبة تعبر في فضاء كحلي مرصع بالنجوم..

قفز من فوق حصانه وأهوى على البوابة الكبرى للقصر بطرقات شديدة
تعكس رعباً مدمراً.

وفي ضوء المشاعل ظهر وجه «واجن» مخطوفاً وخرجت الكلمات من
فمه مبعثرة بعدما وقعت عيناه على «ايتاخ»:

- يجب أن اقابل الخليفة حالاً هناك أمر خطير.

قال ايتاخ الدموي:

- هو في فراشه الآن.. ثم الم تكن هنا قبل ساعة؟! تعال غداً!

قال واجن باصرار:

- لا يمكنني ذلك.. اتوسّل اليك.

- حسناً سأخبر الخليفة.

مرّت اللحظات بطيئة متناقلة كأنها تتآمر على «واجن» الذي كان

يستعجل الزمن عاد ايتاخ ليقول:

- لا فائدة.. الخليفة قال لينصرف الآن ويكر في المجيء غداً.

قال واجن برعب:

- اذا خرجت من القصر فلن استطيع العودة.

- ماذا تعني؟؟

- هناك من يتربص بي في قلب الظلام.

نظر ايتاخ بعينين ينبعث منها بريق مخيف:

- اتبعني اذن.. ستبات عندي الليلة.

(١٢)

كان اليوم التالي حافلاً بالحوادث المثيرة.. فمع خيوط الصباح الأولى اجتمع «واجن» بالخليفة وأطلعه على تفاصيل مقلقة، اصدر المعتصم وقد اترعت نفسه حقداً أمراً باستدعاء الأفشين على الفور.

فضل حيدر الأفشين ارتداء بزته الرسمية التي يغلب عليها السواد شعار الدولة العام.

كان أول اجراء اتخذه الخليفة هو اقالة الأفشين عن قيادة الحرس الخاص الذي اصبح تحت قيادة عربية _.

وقف الأفشين أمام الخليفة الذي راح ينظر اليه بعينين تأججان غيظاً لم يدم المشهد طويلاً فقد انقض جنود غلاظ على الأفشين ومزقوا بزته الرسمية وهذا يعني سقوط حصانته، ثم اقتيد الى سرداب في القصر.

كان المعتصم يذرع بهو البلاط بعصبية واضحة.

ومن خلال نوافذ القصر المطلة على الفناء الغربي راح الخليفة يراقب أكثر من عشرين من عمال البناء منهمكين في بناء سجن فريد يتألف من غرفة واحدة تتربع فوق منارة مرتفعة!!

لا أحد يعرف لماذا سمى الخليفة هذا السجن العجيب بـ «اللؤلؤة»؟! ولكنه شاع لدى الناس بسجن الأفشين.

ووصلت قبل الظهر أخبار عن وصول «المازيار» اسيراً الى بغداد وإن قائد الشرطة العام في طريقه الى سامراء.

وفي اصيل نفس اليوم وصل «المازيار» وكان النبأ قد انتشر في المدينة فتدفق الناس الى الشارع العام، وكان الأطفال يتشوقون لرؤية الفيل مرّة أخرى، ولكن الأسير الجديد خيب آمالهم لانه رفض ركوب الفيل فادخل المدينة راكباً بغلة..

وخلال تلك الأيام من نهاية شوّال وحتى مطلع هلال ذي القعدة خضع المازيار لاستجواب دقيق كما تعرّض لتعذيب شديد في قصر الزيات رئيس الوزراء؛ وكان الزيات قد ابتكر وسائل تعذيب لا يحتملها انسان. في التنور المجهز بدبابيس اعترف «المازيار» بتبادل الرسائل بينه وبين الأفشين!!

وفي اليوم الخامس من ذي القعدة عقد الخليفة محكمة خاصّة للنظر في التهم الموجهة الى الأفشين وكان المحل الذي انتخب لاجرائها القصر العام المعروف بالجوستق الخاقاني.

حرص المعتصم على أن يعترف «المازيار» برسائله أمام الملأ العام ولذا احتشد جمهور كبير داخل القصر واحضر الأفشين من سجنه كما جرىء بالمازيار الذي طلب منه تكرار اعترافه السابق.. وكانت المفاجأة ان المازيار أنكر افادته! صرخ المعتصم بعصية:

- ولكنك أقررت بذلك.

قال المازيار ببسالة:

- الحقيقة أن عبدالله بن طاهر حاكم خراسان قد وعدني بالعفو إذا اقررت بذلك اشار المعتصم الى جلاّد يقف الى جانب «بغا».. وفي فضاء القصر دوّى صوت السياط اللاهبة تنهال على جسم المازيار.. عدّ الناس

اربعة وخمسين سوطاً حتى سقط الرجل كومة من اللحم! لقد كان الموقف نصراً للأفشين وهزيمة لخصومه وجاء حارسان ليجرّاه الى سجنه أمر الخليفة باخلاء القصر إلا من بعض الشخصيات الهامة، وكان واضحاً ان لجنة الحكم تتألف من الزيات رئيس الوزراء، واسحاق قائد شرطة بغداد ورئيس السلطة القضائية أحمد بن أبي دؤاد.

حتى عمر بن فرج فوجيء بمن يطلب منه إخلاء المكان، وقف الأفشين مستعداً للمحاكمة، وفي نفسه ألم عميق أن الذين يحاكمونه هم من الدّ حسّاده ومنافسيه، وأدرك أنّ هناك سعيّاً لادانته في كل الاحوال وان قرار قتله قد اتخذ سلفاً.

ولذا استعد للدفاع عن نفسه وصمم على فضح محاكميه.

ان قاضي القضاة يتمنى فناءه، والزيات انسان عجيب يسعى للقضاء على اي انسان ومصادرة املاكه، ولكن ما بال اسحاق بن ابراهيم؟ انه ولا شك قد خدع بما لفق حوله من الشائعات.

بدأت المحاكمة بأن خلع رجلان ثيابهما الرثة، كانت آثار السياط واضحة على ظهريهما، فاحضرا للادلاء بشهادتهما ضد حاكم اشروسنة كرجل خارج عن الاسلام.

انتبه الأفشين الى نفسه على صوت الزيات:

- هل تعرف هذين الرجلين يا حيدر؟

- نعم..

وأردف

- هذا - امام مسجد وهذا مؤذن.

- وما هذه الآثار؟

- آثار سيات.. لقد جلدتهما لأنهما انتهكا العهد بين المسلمين وأهل
أشروسنة من الوثنيين..

- ماذا تعني؟!

- هناك عهد بيننا ألا نتعرض الى معابدهما مقابل استتباب الأمن.. ولكن
هذين الرجلين احتلّا معبداً وحوّلاه الى مسجد.

سكت الزيّات وقال:

- ما هذا الكتاب الذي في منزلك.. ولماذا زينته بالذهب وورصعته
بالجواهر؟

- كتاب ورثته عن أبي هكذا.

- ولكنه يتضمن الالحاد بالله!

- فيه آداب وحكم العجم.. وكنت استمتع منه بالأدب واترك ما سوى
ذلك..

سكت لحظات وأردف مخاطباً الزيّات.

- انه لا يختلف عن كتاب «كليّة ودمنة» وكتاب «مزدك» اللذين في
منزلك.. ولا يعدّ اقتناء مثل هذه الكتب خروجاً عن الاسلام.

استدعي الموبذ وهو رجل دين مجوسي للدلاء بشهادته ضد الأفشين
قال الموبذ وهو يشير باصبعه الى الأفشين:

- ان هذا كان يأكل لحم الشاة المخنوقة ويجبرني على اكلها ويدّعي
أنها ارطب لحمًا من المذبوحة، وفي كل يوم أربعاء كان يضرب شاة سوداء
بالسيف من وسطها ثم يأكل لحمها.

وقال لي يوماً أنه لا يستخدم النورة في الحمام وأنه لم يختن بعد لأنه
يكره دين الاسلام..

هتف الأفيشين مقاطعاً:

- ان هذا مجوسي فهل هو ثقة تقبل شهادته؟!!

اجاب القاضي:

- كلا.

قال الأفيشين بمرارة:

- فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به.

والتفت القائد العسكري المتهم الى المجوسي:

- هل كان بين منزلي ومنزلك باب أو كوة تطلع عليّ منها وتعرف

أخباري؟

قال المجوسي:

- لا.

- أفليس كنت ادخلك اليّ وابثك سرّي وأخبرك بالاعجمية وميلي اليها

والى أهلها.

- نعم.

67 - انك لست بالثقة في دينك ولا بالكريم في عهدك إذا افشيت عليّ سرّاً

أسررته اليك.

انسحب المجوسي مدحوراً، وتقدم «المرزبان».

قال الزيات مخاطباً الأفيشين:

- هل تعرف هذا الرجل.

- كلاً.

- ووجه السؤال الى المرزبان:

- هل تعرف هذا؟

- نعم هذا الأفشين.

قال الزيات للافشين.

- وهذا المرزبان.

- لقد عرفته الآن.

قال المرزبان بحقد:

- الى كم هذا الخداع والتمويه؟

اجاب الأفشين باحتقار؟

- ماذا تقصد ياطويل اللحية؟!

سأل المرزبان المتهم:

- كيف يخاطبك أهل اشروسنة في رسائلهم.

- كما يخاطبون أبي وأجدادي لقد كانوا ملوكاً.

وقرأ المرزبان نصاً بالاشروسنية:

- ماذا تعني هذا الكلمات بالعربية الا تعني: الى إله الآلهة؟!

- نعم.

تدخل الزيات قائلاً:

- المسلمون لا يتحملون هذا الكلام! فما بقيت لفرعون حين خاطب

قومه:

«أنا ربكم الاعلى»!

قال الأفشين:

- انها من عادات أهل اشروسنة في خطابهم للملوك وقد كانوا يخاطبون
أبي وجدّي ويخاطبوني أيضاً قبل أن ادخل في الاسلام... فكرهت أن اضع
نفسي دونهم فتفسد عليّ طاعتهم.
تدخل اسحاق قائد شرطة بغداد:

- ويحك يا حيدر كيف نصدّق بانك مسلم، وكيف نعتبرك من المسلمين
وأنت تدّعي ما ادّعى فرعون؟!
أجاب الأفشين معاتباً:

- يا أبا الحسين هذه سورة قرأها عجيف على عليّ بن هشام وأنت تقرؤها
عليّ، ولا أدري ما الذي سيقراها عليك غداً.
تكلم قاضي القضاة:

- لقد اعترف المازيار بأن أخاك كان يرسل أخاه ويحرّضه على
العصيان والتمردّ على الدولة.
واستطرد وهو يفيض ورقة:
وجاء في احدى الرسائل ما يلي:

«انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض_ غيري وغيرك وغير «بابك» فأمّا
بابك فإنه بحماقاته قتل نفسه...»

انك اذا اعلنت العصيان فأن الجيوش التي سترسل للقضاء عليك سوف
تنظّم اليك ولا يبقى احد يحاربنا إلاّ ثلاثة «العرب» «المغاربة» «والاتراك»
والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب راسه بالدبوس_ وهؤلاء

الذباب يعني المغاربة فهم حفنة لا خطر منها، وأما أولئك الشياطين يعني
الأتراك فأنا هي ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم
جولة فتقضي عليهم جميعاً.. وبعدها يعود الدين الى ما كان عليه أيام
العجم.

قال الأفشين بهدوء:

- انها دعوى ضد أخ المازيار وضد أخي لا علاقة لها بي...
بل لنفرض أنني الذي كتب هذه الرسالة.. فهذه من خطط الحرب
للايقاع بالعدو، ولو فعلت ذلك لكنت حظيت بمكانة مرموقة في نظر
الخليفة ألم يفعل ذلك عبدالله بن طاهر؟

انتهر القاضي احمد المتهم بكلمات قاسية فردّ الأفشين بشجاعة:
- ايها القاضي: انت ترفع طيلسانك بيدك فلا تضعه على عاتقك حتى
تقتل جماعة.

تظاهر القاضي بالصمت لأنّ الردّ على هذا لاتهام سيضعه في مأزق كبير
لهذا سأل المتهم بخبث:
- أمطهر أنت؟
كان الجواب عسيراً، ولكنه فضل أن يقول:
- لا.

سأل القاضي.

- لماذا؟

- استعملت التقية في ذلك.. لقد خشيت الموت لو اختنت.

تظاهر القاضي بالدهشة:

- ولكنك رجل حرب.. ترمي بنفسك في غمرات المعركة بين السيوف والرماح.. فكيف تخاف من قطع قلفة؟!
- أن الاقدام في الحرب ضرورة تتطلب الصبر.. أما الختان فخطر أسعى اليه أنا بنفسي.

التفت القاضي الى «بغا» الذي تولّى قيادة القوّات المسلّحة:

ان الأمر قد بات واضحاً.. يا بغاء عليك به!

اندفع بغا بجثته الضخمة واستحالت كفه الغليظة الى مخالِب وحش كاسر، فأمسك بالأفشين من ظهره وقد جمع ثيابه فجذبه..
قال الأفشين بمرارة:

- لقد كنت اتوقع هذا منكم..

قلب «بغا» ذيل القباء على رأس الأفشين ثم جمعه حول عنقه وجرّه باتجاه الباب الوزيري الى حيث توجد السلالم المؤدية الى سرداب تتراكم فيه الظلمات.

وبعد أيام نجح عبدالله بن طاهر في الايقاع باين الأفشين وزوجته اترنجه ابنة اشناس وأرسلا مخفورين الى بغداد، ومنها الى سامراء وتم توقيف الحسن بن الأفشين.

ومضت اسابيع كان السجن الجديد الخاص بالأفشين قد انتهى فنقل القائد الذي حكم عليه بالموت الى سجنه الجديد، وعيّن على حراسته جنود من المغاربة وكانت طريقة الحراسة الطواف حول المنارة ومراقبة كل شاردة وواردة.

(١٣)

قبل أن يعود قائد شرطة بغداد الى ممارسة مهامه استدعاه الخليفة الذي كان مستعداً لممارسة لعبته المفضلة.

كان المعتصم يرتدي زيّاً خاصاً بلعبة الصولجان صدرية موشاة بالذهب، وحزام ذهبي عريض وحذاء احمر اللون.. قال المعتصم بعدما وقعت عيناه على اسحاق:

- احببت أن اضرب معك بالصوالجة.. بحياتي عليك البس مثل لباسي..

قال اسحاق:

- ان هذا لشرف كبير يا سيدي.

قفز المعتصم على فرس مزينة بحلية ذهبية، وكذا فعل قائد الشرطة وانطلقا الى الميدان الكبير، حيث حلبة سباق الخيل.. لم يكن اسحاق متحمساً في اللعب وقد لاحظ الخليفة ذلك فقال:

- يبدو أنك تكره هذا الزي.. انني أراك كسلاناً.

- هو ذاك يا أمير المؤمنين.

نزل الخليفة من على ظهر فرسه وأخذ بيد صاحبه الى حيث البوابة الغربية للقصر ومنها الى الجناح الذي يوجد فيه الحمامات ساعد اسحاق الخليفة في نزع ثيابه وعندما تجرّد من ثيابه صرف الغلام الذي جاء للقيام بعمله في التدليك، وولجا الحمام معاً، وكان البخار يتصاعد من الحوض الواسع الذي يتوسط ارضية الحمام المبلطة بالآجر المرصوف بعناية فائقة

تولّى اسحاق تدليك الخليفة وحن دوره فامتنع اسحاق ولكن المعتصم أصرّ على ذلك.

وعندما خرجا اتجها الى البلاط الذي كان مقفراً تماماً، أمر المعتصم قائد الشرطة أن يحضر فراشين واربع مخدّات، ففرش له مصلى ووضع مخدتين ونام على وجهه وأمر صاحبه أن يفعل مثل ذلك..

جاء ايتاخ واشناس الى البلاط، فأمرهما المعتصم بمغادرة المكان وأن يجلسا في مكان يستطيعان سماع صوت الخليفة اذا نادا عليهما.

الصمت يهيمن على المكان قال المعتصم بعد تردد طويل:

- يا اسحاق في قلبي أمر طالما فكرت فيه وانما بسطتك في هذا الوقت لأفسيه اليك.

- قل يا سيدي! انما أنا عبدك.

- لقد اصطنع أخي المأمون اربعة رجال فانجبوا: طاهر بن الحسين.. وقد رأيت وسمعت.. وعبدالله بن طاهر فإذا هو كأبيه وأنت فأنت والله لا يعتاض السلطان منك وأخوك محمد وأين مثل محمد!!

أما أنا فقد اصطنعت أربعة رجال ففشلوا واخفقوا.. اصطنعت الأفشين فقد رأيت ما حصل، وأشناس ففشل وايتاخ فلا شيء، و «وصيف» فلا معنى فيه.

سكت اسحاق ثم قال بعد لحظات:

- اجيبك ولكن على أمان من غضبك؟

- أنت في أمان يا اسحاق.

- نظر أخوك الى رجال ذوي اصول فأنجبوا فروعاً، وأمّا أنت يا أمير المؤمنين فاستعملت فروعاً بلا اصول فلم تنجب.

اربد وجه الخليفة الذي بلغ الاربعين وقال بخيبة أمل:

- يا اسحاق لمقاساة ما مرّ بي في طول هذه المدّة اسهل عليّ من هذا الجواب.

صودرت أملاك الأفشين المنقولة وغير المنقولة ودوهمت قصوره في «المطيرة» وفي «الوزيرية».

وشدّدت الحراسة حول المنارة التي تستقر فوقها غرفة اشبه ما تكون بالزنزانة...

وبدأت سياسة التجويع تمارس ضد السجين الذي يتحلّى بلياقة بدنية عالية ولكن الجوع الطويل والنهاية المؤسفة حولته الى شبح وحطمت فيه كبرياءه.

ذات مساء وفيما كانت الرياح تولول، في دروب المدينة جاء هارون_ ابن الخليفة وولي العهد.

كان يحمل طبقاً مليئاً بالفاكهة، ارتقى السلالم الحلزونية الى حيث انزوى القائد العسكري المتهم بالتآمر! الرجل ذو العضلات المفتولة والقبضتين الحديديتين استحال الى شبح وخيال.. من يراه للوهلة الأولى يحسبه درويشاً اضرب عن متاع الدنيا وانزوى في صومعة على ذروة جبل.

هل يعقل أن يكون هذا الانسان النحيل قاهر بابك وفتح عمورية؟! آه كم يفتك

الجوع بالانسان!!

ولكن العجيب هو هدوئه واستسلامه للمصير الغامض.

وضع ولي العهد طبق الفاكهة بين يدي الرجل الذي رفع رأسه ونظر اليه

نظرات هادئة قال هارون:

- لقد ارسله أبي.

قال الأفشين مجاملاً:

- ما اجمله من طبق.. ولكن ليس فيه أجاص.

- سوف أبعثه اليك بعد انصرافي.

مرّت لحظات صمت قال الأفشين بعدها:

- اقرأ سيدي السلام وقل له يرسل الي من يثق به.. لديّ ما يتوجب قوله..

ومرّت ساعة كان فيها الحرس ما انفكوا يدورون حول المنارة خاصّة

بعد انصراف ولي العهد..

جاء «حمدون» _ مبعوثاً من قبل الخليفة، كان الأفشين ما يزال منسحباً

الى نفسه ذاهلاً، حتى انه لم يمدّ يده الى طبق الفاكهة بالرغم من جوعه الشديد.

فضّل حمدون الوقوف لأن الخليفة أمره بانجاز مهمته بسرعة ولكن

الأفشين طلب اليه الجلوس فجلس.

ان حديثه من النوع الذي يشدّ اليه المرء، ولكن حمدون قاطعه قائلاً:

- أوجز حديثك.. ان أمير المؤمنين قد أمرني بالاسراع في العودة سكت

الأفشين لحظات وقال:

- قل لأمير المؤمنين: أحسنت اليّ وشرّفتني ونصبتني قائداً لآلاف

الجنود.. وها أنت تسمع في كلاماً لم يتحقق عندك ولم تتأمله بعقلك..

كيف يُعقل أن أتأمر عليك ثم كيف يعقل أن أبعث جيشاً واوصي قائده أن ينهزم امام العدو.. انك جرّبت الحرب وقدت الجيوش هل يمكن أن يوصي القائد جنوده بالهزيمة؟!

ثم إنك تعرف أن مصدر هذه الأخبار الكاذبة هو من اعدائي.. فكيف يمكن قبول شهادة العدو ضد خصمه؟!
لقد كنت عبداً من عبيدك وما أزال...
ولكن قصتي معك مثل قصة رجل ربّي عجلاً له حتى إذا اصبح سميناً
اشتهدى اصدقاء

الرجل ذبحه وشوي لحمه، ولكن الرجل كان يرفض ذلك..
فتأمروا عليه بأن اتفقوا أن يقولوا له:

ويحك كيف تربّي هذا الأسد لسوف يفتك بك اذا كبر؟
فكان الرجل يقول لهم: هذا عجل بقر وليس بأسد.

قالوا له: بل هذا أسد.. فإذا لم تصدّق فأسأل وكان هؤلاء قد اخبروا كل معارف الرجل بأن يقولوا له اذا سألهم بأن هذا اسد وليس بعجل.
فكان كلما سأل الرجل أحداً من معارفه أجابه: هذا أسد..
فصدّق الرجل ذلك وأمر بذبحه.. فذبحه أصدقاؤه والتهموا لحمه!
سكت الأفشين ثم قال بمرارة وبأسى:

..فأنا ذلك العجل.. كيف استطيع أن أكون اسداً.

تأثر حمدون وشعر بالألم لمصير قائد ما يزال الروم يهابون اسمه ولكن هل حقاً أنه لم يختن بعد كما سمع؟!
سأل بصوت خافت:

- هل صحيح أنك اقلف لم تختن بعد؟!
نظر بحزن وقال:

- أنت تعرف هذا القاضي وخبثه.. لقد سألتني عن ذلك، وكان أمامي طريقين.. أن أقول له أنا مطهر عندها سيقول لي تكشّف.. انه يريد أن يفضحني فكيف أفعل ذلك أمام الناس.. الموت أهون عليّ.. ولكن يا حمدون إذا أحببت أن اتكشّف أمامك حتى تراني.. انني يا حمدون مسلم قال حمدون باحترام:

- كلاً أنني اصدق ما تقول.. ولا حاجة في أن تتكشّف!

كان المعتصم ينتظر بقلق عودة حمدون الذي أبلغه بكل تفاصيل اللقاء، ولكن الخليفة كان قد صدّق بأن الأفشين لم يكن عجباً وإنما هو أسد.. ربّما ينقضّ ذات يوم ويمزّق بمخالبه وليّ نعمته!

من أجل ذلك أصدر أمراً بقطع الطعام من أجل أن يموت «الأسد» جوعاً. تدهورت صحة السجين بسرعة، ولم تمض أيام حتى استحال الي مجرد عظام يكسوها جلد..

وذات صباح نُقل السجين الذي كان يحتضر على محفة الى قصر ايتاخ؛

نظر الرجل

﴿٦٣﴾

الدموي الى ضحيته.. ان مهمته يسيرة جداً وضع كفه الغليظة فوق وجه الضحية الذي غاب عن الوعي، ثم تراخت أطرافه المتوترة وفقد الجسد دفعته تماماً واستحال الى جثة باردة..

وجاء رجال غلاظ عادة ما يراهم المرء في المقابر أو في سراديب
التعذيب أو في ميادين الصلب.
صلب الجثمان الهزيل على مقربة من بوابة القصر العام؛ ثم ما لبث أن
اشعلت النار تحت الصليب ليستحيل مع المصلوب الى رماد تناثر فوق
أمواج دجلة المتدافعة حتى الخليج.

(١٤)

اطل عام ٢٢٧ حاملاً معه حوادثه، وبدأ الخليفة العام الهجري الجديد بالاحتجاج في الفاتح من محرّم الحرام، فكان ذلك بداية النهاية، تدهورت صحة المعتصم، وبدأ احساسه بالضعف يتفاقم يوماً بعد آخر؛ وما زاد في كآبته ظهور القلاقل في الاقاليم الكردية اذ اندلعت حركة مسلحة بقيادة جعفر الكردي.

ثم اعقب ذلك اشتعال ثورة شعبية في فلسطين ثم امتد اوارها الى الاردن بقيادة «الرجل المبرقع».

كان احساسه بالفجيعة يتنامى.. لم يعد يستطيع أن يشهر سيفاً أو يمتطي جواداً.. كل ما في وسعه هو أن يصدر الأوامر فقط..

وتمضي الأيام، وخدر الموت يمتد مع شرايينه وأوردته..

تارة يبخلق في سجن «اللؤلؤة» يستعيد أيام الفتوحات والأمجاد في عمورية ويتذكر قائده المظفر الأفشين الذي استحال في لحظات الى رماد تذرؤه الريح.. آه ما اسوأ أن يموت الانسان بهذه السرعة؟!

غمغم الخليفة في نفسه، وتماسك وهو ينهض متجهاً الى النافذة التي تطلّ على دجلة..

- سأموت وحدي ويبقى هؤلاء... ايتاخ.. أشناس.. ماذا بوسعي أن أفعل؟! وهل يوجد طبيب قادر على وقف الموت الذي يحرق بي من كل جانب؟!

للحظة خاطفة استعاد المعتصم مشهد أخيه المأمون وهو يحتضر.. كان يتقلب وسط رماد آلاف المشاعل يبحلق في السماء المرصعة بالنجوم ويهتف: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه..

- ها أنا أواجه نفس المصير.. ولكن لم اكن اتصور أن تكون نهايتي بهذه السرعة انني لم أحكم سوى ثماني سنين لقد حكم أبي أكثر من عشرين سنة.. وحكم أخي زهاء ذلك.. ولكن نصيبي كان حفنة من الاعوام... آه ما اجمل الحياة لولا الموت.

واجتاحته موجة من الندم.. ليته لم يقتل كل هذا العدد من الناس من أجل ملك لا يدوم... ان عدد ضحاياه يفوق الحساب!

لقد انطوت أيامه وستنطفئ حياته.. انه يدرك ذلك جيداً وفي صباح الثامن عشر من ربيع الأول، نهض الخليفة متمسكاً في ما يشبه صحوة الموت واتخذ طريقه الى الجناح الايسر من القصر لينحدر من السلالم المؤدية الى تفرع نهري من دجلة..

كان الزورق الملكي بانتظاره منذ الفجر، ولم يكن هناك أحد سوى زنام «مطربه» المفضل والملاح وراح «الزلال» _ ينساب بهدوء متخذاً طريقه الى دجلة.

80 الخليفة ينظر الى قصوره والى مدينته التي انشأها فوق الأرض اليباب، وهاهي تزدهر لتنافس بغداد روعة وجمالاً، ولكن ما جدوى ذلك وهو يودّع دنياه الجميلة راغماً..

وعندما ولج دجلة بدا قصره المهيب جاثما كقلعة مهجورة.. أو نسر متحفّز.. التفت الى «زنام» وكأنه ينتظر أن يغنيه.. أدرك «زنام الزامر» ما يموج في نفس سيده فراح يشدو بصوت حزين:

- يا منزلاً لم تبل اطلاله.

حاشا لأطاللك أن تبلى

لم ابك لأطاللك لكنني.

بكيت عيشي فيك إذ ولى.

والعيش أولى ما بكاه الفتى.

لابد للمحزون أن يسلى..

كان الخليفة يحتمي وعلى مهل من «الرطلية» _ خمرة معتّقة، والزورق الملكي ينساب متجهاً الى «المطيرة» تاركاً قياده للأمواج الهادئة، وعلى طول جبهة النهر كانت القصور والمنازل المشيدة وباسقات الاشجار، تتحرك باتجاه معاكس... زنام يشدو بصوت حزين اشعار الرحيل والنهاية والاستسلام للقدر.. واجهش الخليفة بالبكاء.. انه بكاء الفجيعة لأنسان يبني جنته على الأرض حتى اذا أراد الدخول اعترضه الموت كوحش اسطوري يختطف الارواح!

81

تناول منديله وراح يكفكف الدموع المخزونة منذ أمد طويل لعلّه لم يبك في حياته إلا مرتين؛ مرّة عندما جاء إلى الدنيا وهذه المرّة عندما يوشك أن يفارقها!

وداهمته حالة من اليأس المرير فأشار الى الملاح الصغير أن يعود بالزورق الى مرسى القصر.

كانت الشمس قد أطلت من وراء التلال وتسربت أشعتها من خلال
نوافذ القصر عندما أغمي على الخليفة المهزوم.. وهزّ الطيب المسيحي
رأسه وغمغم:
- أنه يموت.

أفاق الرجل من غيبوبته كانت عيناه تحدقان تستغيثان.. وقد انطفأ فيهما
وهج الحياة:

- ذهبت الحيل.. ليست حيلة..

وأغمض عينيه لحظات ثم فتحهما ثانية:

- لماذا أموت أنا من دون كل الخلق؟!

... اليس هناك من طريق للحياة؟!

وشياً فشيئاً كان لسانه يثقل... وقد فقد قدرته على الكلام فسكت

وجحظت عيناه فبدتا نافذتين تطلان على عالم رهيب!

وقد ساد الوجوم المكان.

(١٥)

ولج المعتصم عالم التراب.. عالم الفناء الغامض، وتربّع على عرش
الخلافة ابنه «هارون» وقد منح الخليفة الجديد لقباً جديداً هو «الواثق»..
في الأمسيات الحالمة يسمع بعض صيادي السمك أو المسافرون
المتوجهين الى خان الصعاليك، غناءً رقيقاً ينساب من نوافذ القصر المطلّ
على دجلة.. وبات بعضهم يميز صوت «زرزر» _ وصوت «اغتباط» التي غُبط
صاحبها وقد باعها بـ ١٠/٠٠٠ دينار!.. كما تألق اسم الشاعر «علي بن
الجهم»..

واستحال البلاط في الليالي الى مقصف، يشرب فيه الخليفة الانخاب مع
أصدقاء الليل.

والليل في المساء خمرة وغناء وأنين سجناء... والخليفة الشاب مقبل
على حياة الانطلاق..

وعلى انغام المغنية الطروب راح الشاب يكرع كؤوس الخمرة وحوله
حفنة من التافهين.. سكر الخليفة فتراخي جسده واستسلم للرقاد، ونهض
أصدقاء الليل ما عدا واحد كان يتظاهر بالنوم.. كان يختلس نظرات
محمومة الى الفتاة التي تتفجّر انوثة.. وقد الهبت الخمرة في أعماقه
المستعرة حمى الشهوات..

همس بصوت يضحج بالشهوة الآثمة:

إنني رأيتك في المنام كأنني مترشّف من ريق فيك البارد
 وكان كفك في يدي، وكانما بتنا جميعاً في فراش واحد
 ثم انتبهت ومنكباك كلاهما في راحتي وتحت خدك ساعدي
 وانتشت الفتاة المتشهيّة، ان سيّدها نائم وما أروع ان تستسلم لرغبة
 مجنونة فنظرت اليه وهمست:

خيراً رأيت، وكل ما أبصرته ستناله مني برغم الحاسد
 وتبيت بين خلاخلي ودمالجي وتحلّ بين مراشفي ومجاسدي
 فنكون انعم عاشقين تعاطيا ملح الحديث بلا مخافة راصد
 ومدّ المغنيّ يده الى المغنيّة وعندما أراد أن يعانقها انتبه الخليفة على
 المشهد الآثم!

ارتاع الصديق وارتبك ولكنه أقسم انه لم تكن له علاقة معها فيما مضى،
 وحلفت الفتاة انها لم تستسلم له أبداً ولكن العشق قد خامرهما!

استوى الخليفة جالساً، وابتسم بمكر وقال:
 - لقد اعتقت جاريتي فهي حرّة.

ابتهجت الفتاة بالحرية.. سوف تصبح سيّدة في قصر من قصور سامراء..
 تساءل الخليفة وهو يوجّه كلامه للمغني:

- هل تودّ الزواج منها؟

- انها اميتي يا سيدي!

قال الخليفة وما يزال يبتسم بخبث:

- لقد زوجتك منها، فهي في عصمتك من الآن فرح الرجل سوف
يضاجع حبيبته ويقضي معها أجمل ليالي العرس..
ولكن ماذا يفعل الخليفة.. لماذا يمسك بالفتاة التي أصبحت زوجته..
لماذا يأخذها الى إحدى المقصورات في القصر..
آه انها تختفي مع الخليفة خلف الستائر المخملية.. وقف المغني مذهولاً
لا يدري ماذا يفعل وتمرّ اللحظات بطيئة.. ولمح الخليفة قادماً وهو يسوي
ثيابه.

قال الواثق:

- أردت يا حقير أن تزني بجاريتي.. أردت لي أن أكون ديوثاً
أنظر كيف زنت بها وهي زوجتك!
واطرق الرجل وقد غرق في مستنقع العار!..

آه من سامراء.. آه من هذه المدينة العابثة.. آه من هذه الحساء التي
تريد أن تكون مثل بغداد فتنة وعبثاً!
الخليفة مجنون بالجنس ولا يهمله سوى إحياء لياليه الحمراء، فيما كان
القادة الاتراك منهمكين بنهب الأموال.

تكدّس الذهب في قصور الاتراك، ولأنهم أميون فقد كان الكتاب
يسطون على جزء منها.. وهكذا اثرى جميع الذئاب بينما الناس يتضورون
من الجوع..

الخليفة ينشد المزيد من اللذائذ والمتع فتزداد الضرائب، ويزداد أين
ملايين الناس الفقراء..

وحده عمر بن فرج يعرف البذخ والنهب والسطو فهو الذي يوقع الصكوك للجميع..

انه يعرف كم نهب احمد بن اسرائيل، وكم نهب سليمان بن وهب كاتب ايتاخ وكم سرق احمد بن الخصيب..

ولكن الخليفة لا يهتمه سوى تأمين سهراته الحمراء المترعة باللذائذ الآثمة وتضاعف أعداد الحرس الخاص ليثقل كاهل الخزينة بأعباء اضافية.. ولكنه سوف يضرب ضربته لهولاء ويصبح الرجل المطاع في كل شيء وعندها يستطيع أن يتلذذ في أمان.

وفي ذلك المساء الشتائي، وفيما كانت الأمطار تهطل بغزارة، اجتمع أعضاء الشلّة في القصر الملكي الفخم، وبدأت اصوات الغناء، والقهقهات الخليعة تردد في الاروقة..

ولم يكن «ايتاخ» الرجل الدموي قد تمكّن من احراز منصب حكومي بالرغم من نفوذه الواسع ولذا ظلّ بعيداً الى حدّ ما عن الاجتماعات الهامة.. كان الخليفة يثق بندمائه أكثر من القاضي أحمد أمّا الوزير فأن طموحاته لا تتعدى سوى تعزيز قدرات الخليفة من أجل أن يكسب المزيد من الذهب والثراء..

86 في تلك الليلة حاول جعفر أخو الخليفة حضور الحفلة المسائية، ولذا

ارتدى أفخر ثيابه وعقد شعره الطويل ليتهدّل بصورة جعلته يبدو مخنثاً. نظر اليه الخليفة شزراً وطرده.. لم يكن منظره وحده السبب في ذلك بل ان فكرة اسناد ولاية العهد الى ابنه الصغير وراء هذا الحقد، الذي بدأ يتأجج تجاه أخيه.. وكان الوزير الزيات يزيد من أواره.

غادر جعفر البهو وهو يشعر بالتفاهة، ورمقه ايتاخ باحتقار وهو يعبر البوابة..

حتى زوجته الشابة «ريطة» لم تكن راضية عن مسلك زوجها وكانت تتمنى أن تراه أميراً يهتم بشؤون تتعدى البطن والفرج! أما زوجته الأخرى تلك الفتاة اليونانية الساحرة فكانت تخطط في الخفاء وتدفع بزوجها الى المزيد من الانغماس في اللذة لتسهل قيادته!

لأول مرة يحضر عمر بن فرج تلك الليلة وجلس الى جانب الوزير المتنفذ وبالرغم من استيائه من تصرف الخليفة الذي يخدش في صورة الملك والحاكم ولكنه كان مغتبطاً بقرار الخليفة بمداهمة القصور واعتقال الكتّاب الذين اثروا بطريقة غير مشروعة.

ان حضوره يعني أنه ما يزال محل ثقة الخليفة كما انه سيبقى بعيداً عن شكوك الوثائق في سعة أملاكه من قصور وخيول وغللمان وجواري في الاهواز وبغداد وسامراء.

وفي تلك الليلة وفيما كانت السماء تمطر بغزارة كانت دوريات من الحرس الخاص تعتقل الكتّاب باستثناء «العباس الصولي»_ الذي حافظ على نزاهته منذ عشرين سنة على الأقل.

وهكذا بدأ زمن الأرهاب وانبرى قاضي القضاة ليجعل من المذهب المعتزلي المذهب الرسمي للدولة والويل لمن يخالف مذهب الدولة!

(١٦)

في المدينة المنورة ساد القلق والتوتر الجو العام ليس بسبب الجفاف الذي عصف بالحجاز، ولكن بسبب غارات الاعراب من قبائل بني سليم وغيرها والتي باتت تهدد الأمن العام..

انه الجوع، وعندما يجوع الانسان يهتز في داخله كثير من الثوابت، وعندها يهتز المجتمع بأسره ويتزلزل، واتخذت القلائل شكلاً أكثر خطورة عندما اخفقت الجيوش المحليّة في توفير الأمن للمدينة، وعندها اضطرت العاصمة الى ارسال جيش كبير بقيادة «بغا» وصل ضواحي المدينة في غرة شعبان من سنة ٢٣٠ وخرج كثير من أهل المدينة ينظرون الى جيش الخلافة المؤلف من الأتراك والمغاربة والشاكرية، وخرج الفتى العلوي الذي بلغ من العمر ستة عشر سنة.. قال لصاحبه وهو يحاوره:

- هيا بنا ننظر الى تعبئة هذا التركي!

ومرّت قطعات جيش الخلافة في استعراض وخاطب الامام جندياً تركيا.. فقفز الجندي من فوق صهوة جواده، وانحنى اجلالاً للفتى العربي الذي ذكره بطفولته!

وركض صديق الامام الى الجندي الذي استأنف طريقه مع قطعات الجيش قال له:

- ما قال لك الفتى؟

تساءل الجندي بدهشة:

- أهو نبي؟

- كلاً.. انه ابن نبي.. ما الذي حصل!؟

- خاطبني باسم كنت ادعى به في طفولتي لا يعرفه أحد!!_-

زحف جيش الخلافة باتجاه خيبر وفدك بعد أن قام بحملة تأديبية على

مضارب بني سليم.

ولكن طرق الحج ما تزال مهددة بالخطر مما استدعى العاصمة الى

تنصيب قائد شرطة بغداد أميراً على موسم الحج فاضطره ذلك الى ترك

بغداد والتوجه الى الحجاز للسيطرة على الموقف.

وكانت المفاوضات بين الروم والدولة الاسلامية قد اسفرت عن تبادل

للأسرى_ وكان موقف الخلافة شائناً بفك الأسرى من الذين يتبنون رأي

المعتزلة في مسألة خلق القرآن الأمر الذي الى أدى غضب شعبي في بغداد

فبدأت تحركات سرّية بقيادة احمد بن نصر الخزاعي الرجل الذي قاد قبل

ثلاثين سنة حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبان الحرب الاهلية

وتعرض بغداد لعبث الشطّار والعيارين واللصوص.

ها هو اليوم ينهض لمواجهة الخليفة الواثق الذي استحوذ عليه القاضي

فجعل من المذهب المعتزلي مذهباً رسمياً وعدّ الخارج على آرائه خارجاً

على الاسلام مرتدّاً يستحق الموت!

توجّت التحركات البالغة السرّية بتحديد موعد لأعلان الثورة الشعبية،

في بغداد فكانت ليلة الخميس في الثالث من شعبان ساعة الصفر اذ

ستستيقظ بغداد على دويّ طبول الثورة! الثورة ضد الدولة وارغامها على

التنازل عن فكرة خلق القرآن_-

ومن سخرية القدر أن الذين تبنا الضرب على الطبول كانوا أحنافاً يستحلّون النبيذ، وفي مساء الاربعاء راحوا يكرعون الكؤوس تلو الكؤوس حتى سكروا وأخذتهم نشوة السكر فانطلقوا يضربون طبول الثورة! ولكن أحداً لم يستجب لأن ساعة الصفر في ليلة الخميس لا ليلة الاربعاء..

استيقظ قائد شرطة بغداد بالنيابة «محمد بن ابراهيم» على دويّ الطبول وارسل من يستطلع له الأمر!

تم توقيف السكاري فراحوا يهدون بكلمات خطيرة، ووصف أحدهم الواثق بالخنزير والكافر!

وُضعت قوَّات الشرطة في حالة استنفار قصوى، وبدأت في نفس الليلة عمليات اعتقال واسعة طالت حتى الزعيم الشعبي احمد بن نصر، الذي تعرّض منزله لتفتيش دقيق، ولكن العثور على اعلام ورايات واعتراف الكثيرين دفع بقائد الشرطة العام الى ارسال مبعوث الى العاصمة على وجه السرعة.

وبعد ساعات قلائل كان قصر الخلافة يشهد اجتماعاً واسعاً واعتبرت الحركة الشعبية ثورة خطيرة ضد الدولة والدين.

بدأ الواثق بالرغم من شبابه كياناً متهدماً بعد ليلة طويلة ضاجع فيها عشرة فتيات من حسان القصر لقد كان مهووساً بالجنس..

أن احمد بن نصر يستحق القتل ألف مرة.. هؤلاء المخرفون لا يتركون الخلفاء هائنين في ليالي اللذة والمتع والاساطير!

ولذا أصدر الخليفة أمراً باحضار احمد بن نصر مخفوراً وأن يعامل بكل قسوة وامتهان..

ونصح رئيس السلطة القضائية بتشكيل محكمة طارئة، ولكن الواثق كان قد أصدر حكم الاعدام سلفاً.

عمّت بغداد موجة من الاستياء ووصلت الانباء سائر المدن والحواضر الاسلامية، ووصلت الامام رسالتان احدها من احمد بن اسماعيل بن يقطين، حول مشكلة خلق القرآن وسطر الامام رسالته التاريخية محدداً موقفه النهائي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

عصمنا الله واياك من الفتنة فإن فعل فقد اعظم بها نعمة وان لا يفعل فهي الهلكة.

نحن نرى ان الجدل في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب. فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلف المجيب ما ليس عليه.

وليس الخالق إلا الله عز وجل، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله. لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين.

جعلنا الله واياك من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون» _.

كما وردت الامام رسالة من قاضي قضاة الدولة يطلب منه التضامن مع الخليفة جاء فيها:

- «إن بايعت أمير المؤمنين في مقالته «حول خلق القرآن» استوجبت منه حسن المكافأة، وإن امتنعت لم تأمن مكروهه.. والسلام».

ولم يكثرث الامام للتهديد المبطن ولا التفت الى اغراءات الدولة فجاء الجواب:

- عصمنا الله وإياك من الفتنة..

نحن نرى الكلام في القرآن بدعة (فكرة حديثة) لم تكن في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يشترك فيها السائل والمجيب.. فتعاطى السائل ما ليس له، وتكلف المجيب ما ليس عليه..

ولا نعلم خالقاً إلا الله، وما سواه مخلوق..

والقرآن كلام الله، فانتبه بنفسك ومخافتك الى اسمه الذي سماه الله به.

وذر الذين يلحدون في اسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون.

ولا تسمّ القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين»-.

(١٧)

لم يكن لأهالي بغداد وسامراء من حديث سوى متابعة أنباء قرب محاكمة أحمد بن نصر الخزاعي الزعيم الشعبي، وغطت هذه القضية على انباء الاشتباكات التي ما تزال مستمرة بين جيش الخلافة والأعراب الذين ما انفكوا ينفذون الغارات الجريئة مما اخطر العاصمة الى ارسال تعزيزات عسكرية بقيادة القائد التركي «واجن الاشروسني».

أما اقليم الحجاز فقد كان منهمكاً في أخبار الاشتباكات الدامية، ومما زاد الاوضاع سوءاً الجفاف الشديد الذي ضرب اطنابه في ربوع الحجاز، وكانت معاناة قوافل الحجيج العائدة تعاني ويلات الجوع والظماً، وانعدام الأمن في الطريق الكبرى.

وكان على «اسحاق بن إبراهيم» قائد الشرطة العام في بغداد أن يعود بسرعة قاصداً سامراء للاشتراك في محاكمة الزعيم أحمد بن نصر المتهم بالتآمر ضد الدولة!

صحيح أنه لم يترك الحجاز إلا بعد أن تأكد من قدرة جيش الخلافة واحرازه انتصارات حاسمة، وهي انتصارات قصمت ظهر القبائل المتمردة.. إلا أنه كان يشعر بالقلق من عدم كفاءة القائد التركي الذي لم يكن يحسن التعامل مع التقاليد العربية المترسخة في جزيرة العرب.

وهناك أمر آخر لمسّه في المدينة وهو حالة القهر والاضطهاد التي تمارس ضد العلويين، الأمر الذي قد يسهم في تعبئة الرأي العام ضد الخلافة العباسية.

عندما وصل مدير شرطة بغداد سامراء وجد في استقباله ابرز شخصيات الدولة وفي طليعتهم رئيس الوزراء محمد بن عبدالمك الزيات، رئيس السلطة القضائية أحمد بن أبي دؤاد وعمر بن فرج وزير المالية، وعبدالرحمن بن اسحاق قاضي الجانب الغربي في بغداد..

ولأن القضية تمس أمن بغداد بالدرجة الأولى فقد كان حضور قائد شرطة بغداد ضرورياً في متابعة مسار التحقيق؛ خاصة وأن هذه المسألة أخذت أبعاداً خطيرة جداً، فالذي لا يقول القرآن مخلوق؛ كافر في رأي القضاء الرسمي وهو رأي قاضي القضاة، والذي يقول القرآن مخلوق كافر في رأي احمد بن حنبل_ الذي اطلق سراحه وفرضت عليه اقامة جبرية في منزله.

عندما وقعت العيون على الشيخ المهيب أدرك الكثيرون أن الرجل مستبسل وأنه لم يعد يخشى الموت.. كان واثق الخطى بالرغم من عبء السنين؛ لم يكثرث لمنظر الحرس ولا لأبهة القصر وقد تربّع الخليفة الطائش على سرير مذهب، فيما كانت الرسوم الملونة والتمائيل الرخامية تضيف على البلاط هيبة في النفوس.. خاصة الذين يحبون الحياة الدنيا.. اما الذين ازمعوا الرحيل فلن يكثرثوا لمنظر الزهور التي نبتت على المزابل..

كان اسحاق قد زار السجين ونصحه أن يكون مرناً في حوارهِ مع الخليفة أو قاضي القضاة.. وعندما رآه الآن ادرك أن نصيحته لم تلق أذناً صاغية..

بدأت وقائع المحاكمة بشكل مدهش، إذ لم يتعرّض المتهم الى مسألة التحرك الشعبي المزمع القيام به، لأن الأدلة لم تكن كافية ولا تصل الى مستوى ادانة الرجل الذي يقف الآن أمامهم بأباء وشمم يحفّه عدد من المتهمين.. قال الخليفة موجهاً خطابه للزعيم المشاغب:

- يا أحمد ما تقول في القرآن؟

أجاب الرجل دون وجل:

- كلام الله؟

- هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟

- انه كلام الله وحسب.

- هل تعتقد برؤية الله يوم القيامة؟

- نعم.. ان الاحاديث والاحبار عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تفيد بذلك.

روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: «ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر».

تدخل اسحاق من أجل تخفيف الموقف:

- راجع رأيك يا أحمد:

قال أحمد مستبسلاً:

- انت أمرتني بذلك.

شعر اسحاق بالرعب، ان في هذا اتهام خطير:

- أنا أمرتك؟!!

- قلت لي كن صادقاً مع الخليفة.. وها أنا أنصح الخليفة الأيخالف

حديث رسول الله.

التفت الخليفة الى هيئة التحكيم، قال قاضي الجانب الغربي في بغداد:

- أنه حلال الدم يا أمير المؤمنين.

وقال أبو عبدالله الارمني وكان صديقاً لابن أبي دؤاد.

اسقني دمه يا أمير المؤمنين.

تدخل قاضي القضاة موجهماً خطابه للخليفة:

- انه ولا شك كافر! ولكن ربما يعاني الرجل من عاهة أو نقص في

قدرته العقلية.. يجب أن نمنحه فرصة للتراجع عن آرائه.

صرخ الخليفة بالشيخ:

- ماذا تقول في القرآن؟!!

وردّ الشيخ الباسل:

- ما أنت وهذا يا صبي!

فوجيء الجميع بموقف الشيخ الذي بدا كأسد أسير.

قفز الخليفة برعونة:

- اليّ بـ«الصمصامة»_ أريد أن اكفر عن آثامي بقتله..

كان المشهد مثيراً يعكس بربرية الخليفة وقسوته.. انقض الخليفة الأرعن

على الشيخ الاسير وضربه على عاتقه ثم على رأسه وعندما سقط الشيخ

طعنه في بطنه، وتدفتت الدماء القانية وتقدم جلاّد ليقطع رأس الضحية، فيما

راح كاتب البلاط يسجل قرار التجريم وأوامر صلب الرأس في بغداد
وصلب الجسد الى جانب صليب بابك الخرمي.

والتفت الوثائق الى قاضي القضاة لمحاكمة بقية المتهمين الذين سيقوا
الى السجن باستثناء شيخ في السبعين من عمره بدا مستسلماً لقدره ولكنه
أراد توجيه ضربة قاضية لهذا القاضي الأحمق.

قال الشيخ:

- ان من الانصاف أن نسأل القاضي عن القرآن.

انبرى القاضي الذي شابت لهجته لهجة غيظ:

- تكلم.

- ما تقول في القرآن؟

- مخلوق.

قال الشيخ:

- وهل يعرف ذلك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبو بكر وعمر

وعثمان وعلي والخلفاء الراشدون؟

- كلا أنهم لا يعرفون ذلك.

قال الشيخ بدهشة:

- سبحان الله شيء لا يعرفه النبي والخلفاء وتعرفه أنت.

شعر القاضي بالخزي فقال:

- السؤال موجه اليك أيضاً فما تقول أنت في القرآن؟

قال الشيخ الذي عركته السنون.

- مخلوق.

- هذا شيء علمه النبي والخلفاء أو لم يعلموه؟
 - علموه، ولم يدعوا الناس اليه، أفلا وسعك ما وسعهم؟_-
 فلماذا تدعو الناس الى شيء لم يفعله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
 ولا الخلفاء؟

سكت القاضي، فقال الشيخ.
 - مقالته هذه بخلق القرآن من ضرورات الدين فالذي لا يقول بها لا
 يتم ايمانه؟

- نعم.
 - ولكن الله سبحانه قال: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم
 نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً).

الله أصدق في اكماله واتمامه أم أنت؟_-
 سكت القاضي أيضاً كأنما ألقم حجراً.
 رمق الخليفة قاضي القضاة باحتقار_ وغادر المجلس ولم ينس أن
 يصدر أمراً باطلاق سراح الشيخ.

أما القاضي فقد وضع أول أقدامه في الطريق المؤدية الى الهاوية، وعليه
 أن يفكر من الآن في مستقبله السياسي!

(١٨)

كادت حادثة اعدام أحمد بن نصر أن تغيب عن بال الناس باستثناء أهالي بغداد خاصة الذين يطالعون كل يوم رأسه المصلوب على الجسر! أما المدن الأخرى فكانت مشغولة بالجفاف الذي ضرب اطنابه في مختلف الاقاليم.. فيما كان الحجاز ما يزال يعاني من وطأة الحرب فما يزال جيش الخلافة بقيادة التركي بغا يغير على الاحياء العربية هنا وهناك، وقد ضجت الصحراء من وقع سنابك الخيل، ومن نرف الدم. أما سامراء فقد كانت تستعد لاستقبال القائد التركي وصيف الذي قهر الاكراد في المناطق الممتدة بين اصفهان وفارس، والنظر الى مئات الاسراى، فكان منظر الاطفال بينهم يعكس وحشية الجيش، وبربرية القائد التركي.

وفي المدينة المنورة كانت «أم ابوها»_ التي ذرّفت على الخمسين تقترب من النهاية.. نهاية كل حيّ.

كان علي الذي ناهز من العمر ثمانية عشر ربيعاً أكثر الناس فجيعة برحيل المرأة الطيبة التي أوقفت حياتها من أجل الفقراء والبائسين فكانت امّه التي تحنو عليه وتهدهد مهده، وكان لا يجد الطمأنينة والسلام إلا عندما يجلس في حضنها وتمسح بكفها الرؤوم رأسه تذكر يوم رحل والده عن الدنيا.. كيف فرّ من «الكتاب» وقد غمرته حالة من اليتيم فلم يجد السكنينة إلا عندما رمى بنفسه على عمّة ابيه وجدّته الطيبة.. وعندها شعر بالأمان..

كانت المرأة مثل كل جدّة طيبة تفكر بمستقبل حفيد أخيها الراحل..
اغتيال جدّه في طوس واعتيل أبوه في بغداد، فنشأ يتيماً.. من أجل هذا لم
تغمض عينيها حتى وضعت كفه في كف فتاة نوبية _ طاهرة..
ستكون له «سوسن» _ زوجة طيبة وأما رؤوماً.. فهذه الفتاة الطاهرة
تنطوى على عالم من العواطف الانسانية النبيلة هذه الفتاة السمراء لا تعرف
تاجاً أجمل من الحياء ولا حلّة انصع من العفاف.

وتمت مراسم الزفاف قبل أن تغمض الجدّة عينيها لتغفو بسلام..
وهكذا شهد المنزل الكائن في قرية «صريّا» في ضواحي المدينة المنورة
ولادة اسرة صغيرة، فتدفقت في جنبات المنزل روح الحبّ الطاهر والحياة
القانعة السعيدة.. وفي هذا الزمن المرّ وقد ضجت الأرض بعواء الذئاب
تكلم الفتى الطاهر كلمات الانبياء:

«جاء ابليس الى نوح النبي وقال:

- ان لك عندي يداً عظيمة.. فانتصحنني فأني لا أخونك.

وظن نوح أنه سيكون آثماً لو سأله، فأوحى الله اليه أن اسأله قال نوح:

- تكلم!

قال ابليس: وهو يكشف له بعض الأسرار الشيطانية:

- إذا وجدنا ابن آدم شحيحاً أو حريصاً أو حسوداً أو جباراً أو عجولاً

تلقفناه تلقف الكرة..

- فإذا اجتمعت فيه هذه الصفات؟

- عندها نسميه شيطاناً مريداً.

تساءل نوح:

- ما اليد العظيمة التي صنعتها لك؟!

- انك دعوت على أهل الأرض فكان الطوفان.. فأنا الآن في راحة من

العمل، ولولا دعوتك عليهم لشغلت بهم دهرًا..

وتحدّث ابن آخر الانبياء عن موسى فقال:

«قال موسى:

- الهي ما جزاء من ترك الخيانة حياءً منك؟

قال الله:

- انه آمن يوم القيامة

قال موسى:

- ما جزاء من أحب أهل طاعتك؟

قال الله:

- حرام على النار أن تمس جسده.

قال موسى:

- ما جزاء من قتل مؤمناً متعمداً؟

قال الله:

- لا انظر اليه يوم القيامة ولا أغفر له.

قال موسى:

- الهي! ما جزاء من كف أذاه عن الناس وبذل المعروف؟

قال الله:

- تناديه النار لا يستطيع أن أصل اليك.

وروى الفتى الطاهر كلمات عن المسيح يوصي تلامذته:

«إذا اعطى أحدكم يمينه، فليستر ذلك عن شماله وإذا صَلَّى لله فليفعل ذلك سرّاً».

ان الله يحب للأنسان اذا عمل لأخيه خيراً أن يستر ذلك تكريماً لأخيه. الفتى الطاهر يروي حكاية الصراع بين الاحرار والطغاة.. لكأنه ينظر الى الافق البعيد فيرى فيه ارهاصات الميلاد الرهيب.. أن الايام حبلى.. فهذا الخنوع والفوضى.. وهذا الانشداد الى ملذّات الحياة الفانية ينذر بالمخاض القادم.. ان طاغية على وشك أن يظهر! قال الفتى العلوي:

دخل قنبر_ على الحجاج بن يوسف الثقفي فصاح الطاغية:

- ما كان عملك في بيت علي؟!

- كنت احضر له ماء الوضوء.

- هل كان يقول شيئاً اذا فرغ من وضوئه.

- نعم: كان يتلو هذه الآية: «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب

كل شيء، حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون. فقطع

دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين».

- يبدو أنك تقصدني بذلك..

- نعم.

- سوف اقطع رأسك ما رأيك؟

- إذن اصبح سعيداً وتشقى أنت.

وأمر الطاغية بالعبد الصالح فضربت عنقه».

وخشعت القلوب لهذا الفتى «الناصح» في زمن الغش «التقي» في زمن

الابتدال «الطيب» في زمن الشرور «الوفي» _ في زمن الغدر.

وسأله رجل وقد دمعت عيناه حزناً:

- كيف يتوب الانسان توبة نصوحا؟

فأجاب الفتى السيد:

- «أن يكون ظاهره كباطنه.. بل افضل من ذلك» -.

وسأل آخر:

- لماذا يكره المسلمون الموت؟ أليسوا على طريق الحق؟

قال الفتى العالم:

- لانهم جهلوه فكرهوه.. ولو عرفوا الموت وكانوا من أولياء الله عز وجل لأحبوه.. ولأدركوا أن الآخرة خير من الدنيا -.

والتفت الفتى الى بعض اصحابه:

- لماذا يمتنع الصبي عن تناول الدواء الذي يدفع عنه الألم؟

- لجهله بنفع الدواء.

واقسم الفتى بجدّه العظيم:

- والذي بعث محمداً بالحق نبياً من استعد للموت كان له الموت انفع من الدواء.. ولو عرف الانسان ما يؤدي اليه الموت لأحبّه ولفتش عنه.. كما يفتش الانسان العاقل عن الدواء من أجل سلامته».

قال الرجل:

- ان جاري على وشك أن يموت.. وقد تركته يرتجف رعباً..

ونهض الفتى ليفتح للمسلم الراحل بوابة الأمل لحياة أفضل وفي عالم أفضل..

قال له وقد مس بكفه الحنون جبين الرجل المستسلم في حضرة الموت:

- يا عبدالله تخاف من الموت؟

هز الرجل رأسه بضراعة فقال الانسان الهادى بصوت دافىء:

- لأنك لا تعرفه.. ماذا لو اتسخت وتأذيت من كثرة الوسخ عليك،
واصابك جرب وعلمت أن الغسل في الحمام سيزيل ذلك كله وتعود اليك
العافية فهل تمتنع عن دخول الحمام؟

قال الرجل بصوت فيه حشجة الموتى:

- بلى يا ابن رسول الله صلى الله عليك وعلى آباءك.

- الموت هو ذلك الحمام.. أنه آخر ما بقى عليك لتغتسل من آثامك
وخطاياك.. فاذا استقبلت الموت بأمل فأنت ستعبر الى عالم مفعم بالفرح
والسعادة».

كانت الكلمات المضيئة تنفذ في اعماق الانسان الذي أزفت لحظة
رحيلة الكلمات تضيء أعماقه تمنحه الطمأنينة والأمل أغمض عينه ليغفو
بسلام، وكانت ابتسامة تشرق في محياه_.

(١٩)

لم يكن الربيع ذلك العام ربيعاً طيباً فقد ظلت عواصف البرد تنحت وجه الأرض وماتت بذور النباتات الربيعية، وتجمدت المياه في نيسان. وكان الجفاف ما يزال جاثماً على طول الطريق المؤدية الى مكة والمدينة المنورة. وبالرغم من رغبة الهيئة الحاكمة في بلاط الخليفة في أن يتوجه الواثق الى الحج لتعزيز مكانة الخلافة وإعادة الأمن في ربوع الحجاز إلا أن عمر بن فرج الذي أرسله الخليفة لاصلاح طريق الحج والتمهيد لرحلة الحج سيعود خائباً بسبب شدة الجفاف؛ ومع ذلك فقد خرج أهل سامراء لاستقبال مواكب الأسرى الحزينة فكان منظر الاطفال في القيود يستدر العطف وقد خاب ظن الأهالي عندما رأوا الخليفة يستقبل القائد وصيف التركي بحفاوة ويمنحه وساماً سيفاً مرصعاً ثميناً وخمسة وسبعين ألف ديناراً!.

فيما سيق الأسرى الى السجن.

لم يكن أمام الخليفة الطائش في هذا البرد القارس إلا أن يضاجع المزيد من حسناوات القصر وإذ وجد نفسه عاجزاً استدعى الطبيب ليطلب منه دواء منشطاً:

- اصنع لي دواء للباءة -.

قال الطبيب متوجساً:

- لا تهدم بدنك بالجماع.. انك تحطم جسمك.

قال وقد استولت عليه حمى الطيش:

- يجب أن تفعل ذلك!

قال الطبيب:

- اذا كان ولا بد فأننا احتاج الى لحم اسد.

كان ايتاخ يتحدث بغلظة مع أحد الجنود عندما استدعاه الخليفة ليذبح أسداً من أسود الحديقة الخلفية في القصر..

ايتاخ الدموي يعرف كيف يصرع الأسد، اصطحب ثلاثة من الحرس الى الحديقة..

اقتيد أحد الاسود الى قفص خاص، وهناك طعن ثلاثة طعنات بالرمح ليستقر بعدها وتسلم جثته الى الطبيب الذي انتخب أجزاءً من لحمه حيث طبخ بالخل سبع مرّات..

وفي النهاية حضر الطبيب قنينة من الدواء السحري العجيب.. أوصى الطبيب الخليفة المهووس بأن يكتفي بتناول ثلاثة مثاقيل من الدواء يتجرعها اذا شرب الخمر.. وقبل أن يغادر البلاط قال مؤكداً:

- لا تتجاوز هذا المقدار أبداً!

في الليالي كان البلاط يستحيل الى مقصف..

برقت عينا الخليفة وهو يرى كل شيء جاهزاً مطربات فاتنات وقناني

106 الخمر المعتقة.. وشلة الاصدقاء ورفع الخليفة الكأس الأولى معلناً بدء

السهرة..

الليل خارج القصر حالك، والضممت يهمين على كل شيء ما خلا عواء

ذئاب بعيدة..

فجأة حضر جعفر أخو الخليفة ليشترك في الحفلة الماجنة..

غاصت الابتسامة في وجه الواثق، واستحال وجهه الى ذئب.. صرخ
بأعلى صوته:

- أخرج.

خمسة من الحراس ظهروا من وراء الستائر ينتظرون الأوامر..
وخرج الأمير جعفر ذليلاً.. ان مصيره سيكون السجن اذا لم يتدارك
الأمر استأنف الواثق حفلته الساهرة بشرب المزيد من كؤوس الخمرة..
مدّ يده وامسك بقئينة الدواء السحري وتناول جرعة اكثر من وصفة
الطبيب..

شعر بالدماء تغلي في عروقه، وقد اجتاحت حَمَى الشهوات فنهض من
سريره الوثير وغاب وراء الستائر المخملية الى حيث تصطف مقصورات
القصر.. ان أقدامه تقوده الى مقصورة «اغتباط».. محظيته الاثيرة..

عاد عمر بن فرج من رحلته الفاشلة ان الجفاف ما يزال ضارِباً في
المناطق على طول الطريق المؤدية الى مكة والمدينة..
لم تكن حالة الواثق على ما يرام وهو يستمع الى التقرير الذي قدمه
عمر.. نهض الخليفة وقد شطب على فكرة الحج تماماً وخاطب وزير بلاطه
بجفاء:

107 - لقد استدعيتك لأمر آخر.. لم أعد اثق بأخي جعفر.. راقبه جيداً.. لقد
ابلغت محمد بن العراء بذلك أيضاً.. اكتبوا لي بأخباره وعلاقاته.. انه يشير
حنقي بتصرفاته..

أرتدى الأمير جعفر بدلته الرسمية السوداء وتوجه الى قصر الزيات
ليستلم صكّه.. كان شعره الطويل المسدل على قفاه يوحي لمن يراه أنه أحد

مختشي القصر ودخل على الزيات في غرفته وقد جلس كثير من الأعيان
والشخصيات جاءوا في مهمات رسمية وشخصية..
هتف متدلاً:

- السلام على الوزير الكبير محمد بن عبد الملك.

لم يرفع الوزير رأسه وظل مستغرقاً في كتابة بعض الصكوك.. ولكنه ردّ
بجفاء تحيته ولم يطلب منه الجلوس وهيمن صمت ثقيل.. قبل أن يشير إليه
بالجلوس فاتخذ مكانه منسحقاً.. ومضى وقت طويل ثم التفت وقال بلهجة
فيها تهديد:

- ماذا تريد؟!

قال الأمير جعفر:

- جئت لتتوسط لي عند أمير المؤمنين ليرضى عني..

التفت الوزير الى الحاضرين وقال حانقاً:

- انظروا الى هذا!!! يغضب أخاه ويطلب مني أن استرضيه..

واستطرد وهو يرسل نظرات شزاء الى الأمير.

- اذهب! فانك اذا صلحت رضى عنك.

فنهض جعفر خائباً وخاطبه الوزير بجفاء:

- خذ صكك معك..

انحنى وهو يشعر بالحقارة ليأخذ صكّه متعثراً.. واتجه الى مسجد صغير
في اطراف القصر حيث يعمل عمر بن فرج.. فالصك عديم الجدوى مالم
يختمه عمر، فانطلق اليه وهو يصف شعره الطويل..

امسك عمر بالصك بفضافة ونظر فيه.. وقال بقسوة واحتقار:

- الخزانة خالية.

- وأرزاقى؟!

طوح عمر بالصك بعيداً وصاح:

- قلت لك الخزانة فارغة!

وشعر الأمير بالانسحاق والتفاهة، وعندما نهض «أبو الوزير» _ نهض معه

الأمير المهان تتمم وهو يلتقط صكه من باحة المسجد:

- أرأيت ما صنع بي عمر يا أبا الوزير؟!

قال أبو الوزير:

- أنا «زمام» _ عليه وليس يختم صكّي با أرزاقى إلا بصعوبة..

- وماذا أفعل؟

- الأفضل أن ترسل اليه وكيلك..

هزّ الأمير رأسه موافقاً.. واختمرت في رأسه فكرة: ماذا لو يذهب الى

القاضي أحمد بن أبي دؤاد؟ ان له نفوذاً لا يقاوم عند الخليفة ونفذ فكرته

على الفور..

لم تكد عينا القاضي تقعان على القادم حتى هبّ لاستقباله بحفاوة بالغة.

وشعر الأمير بارتياح لهذا الاستقبال الحارّ.. صحيح أنه لا يدرك ما يدور

في خلد القاضي.. فهذا الرجل لاحدود لاطماعه وطموحاته.. لعلّه ينظر الى

المستقبل.. ربّما يعتلي الأمير عرش الخلافة وعندها يتألق نجم القاضي أكثر

فأكثر.. ربّما يصبح الشخصية الأولى في البلاد بعد الخليفة فيبني المزيد من

القصور ويشترى الكثير من المزارع والبساتين وتمتلاً كنوزه بالذهب

والفضة..

رحب القاضي بضيفه الأمير وتساءل.

- هل من خدمة أقدمها لك أيها الأمير؟

- أن أخي غاضب عليّ وجئت لأوسطك في الأمر.

- سأفعل ذلك.

- اليوم؟

- نعم اليوم.. اطمئن.

- لن أنسى ذلك أبداً.

وانصرف الأمير الى غرفته في القصر الذي خصصت لاقامته حيث اصبح في حكم السجين.. انه ليس غيباً للدرجة التي لا يشعر فيها بالعيون التي تراقبه وتراقب حركاته وسكناته.. ولكنهم مهما فعلوا.. مهما ترصدوا.. مهما فتحوا عيونهم جيداً فلن يشاهدوا مقدار الحقد المتراكم في اعماقه.. لن يروا أبداً نواياه تجاههم.. آه لو استطيع أن ادمر القصور فوق رؤوس الجميع.. آه لو استطيع أن اقدفهم في دجلة.. لو احرقهم.. امزقهم بأساني.. ولكن ماذا أفعل.. يتوجب عليّ أن اتمسكن حتى أتمكن وعندها اضرب ضربتي القاضية.. يجب أن أحصل على عفو هذا الأحمق..

انتبه الى نفسه على صوت حارس:

- ان الوزير عبدالملك يطلب حضورك.

110

يرتدي على عجلة بزته الرسمية السوداء.. رتب شعره الطويل.. واتجه بسرعة الى قصر الزيات.. واخيراً تحقق ما أريد لقد رضي أخي..

اصيب بالدهشة وهو يلج القصر الكبير.. كان الوزير صاحب النفوذ يذرع المكان، وقد وقف حلاق تركي بدين كما اصطف الحرس..

خاطب الزيات حارساً:

- اقرأ مرسوم الخليفة.

- سمعاً وطاعة.

ونشر الحارس رقعة وراح يقرأ حكم الخليفة.

- «يُحضر جعفر على الفور ويقصّ شعره، ويضرب به وجهه ويصرف

الى منزله».

اشار الزيات الى الحلاق أن يقوم بمهمته.. فتقدم الى الأمير المصعوق

الذي اعترض بخنوع:

- ولكن ألا تضعون منديلاً؟!

تدخل الزيات بقسوة:

لم يرد ذلك في حكم الخليفة.

أمسك الوزير بخصلة الشعر الطويل التي بدت كسوط اشقر وضرب بها

وجه الأمير الذي غادر المكان منسحقاً ذليلاً!

ولو أمعن الزيات النظر في عيني جعفر لرأى ناراً مجنونة تشتعل حقدًا

وتترقب فرصة الانقضااض لتحرق كل شيء.

وفي نفس اليوم نجح القاضي في استصدار عفو عن الأمير جعفر من

الخليفة ولكن ذلك حصل بعد أن اصبح الأمير موضع تندر ممّن رآه ذلك

اليوم.. خاصة ايتاخ الذي القى عليه نظرة ساخرة..

نيرون العرب

(٢٠)

تدهورت حالة الواثق الصحية بسبب جنونه الجنسي وادمانه على تناول المنشطات الخطيرة.. ولم يلبث أن سقط مريضاً وكانت الفحوصات التي أجراها الاطباء خاصة «بختيشوع النصراني» وابن طيفور تؤكد اصابته بمرض الاستسقاء..

وتألفت لجنة من الاطباء للبحث في علاج الخليفة الذي لا يفكر بمستقبل الدولة، ولعلّ هذا يعود الى أن الحاكم الحقيقي هو رئيس الوزراء عبدالملك الزيات، فقد كان الخليفة منصرفاً تماماً الى حياته العابثة..
أوصى الاطباء بضرورة استخراج الماء الاصفر الذي بدأ يتجمع في بطنه وذلك بأن يقعد المريض في «تنور» يسجر بحطب زيتون..

وسيق الخليفة الذي عومل كمريض عادي الى التنور ليجلس فيه.. وبعد ساعتين اجتاحتته موجة مدمرة من الظمأ، فطلب الماء ولكن الاطباء منعوا ذلك عنه.. استحال حاكم الدولة المترامية الاطراف والذي كان يعبّ الخمر المعتقة الى كائن مسحوق يتضرع من أجل قطرة ماء ولكن دون

جدوى!

مرّت ثلاث ساعات سمح له بمغادرة التنور.. وظهرت على جلده نفاطات مليئة بالقيح..

وبدأت آلامه تشتد، فطلب اسجار التنور مرةً أخرى لأنه كان يجد فيه راحة من الألم، وانفجرت النفايات وقد اسودَّ جسده..

فنقل على محفة الى البلاط.. وانتابته حالات من الاغماء فتح الخليفة عينيه وقد عاد إلى وعيه.. بدت المرثيات في عينيه اشبه بالاشباح.. لم يكن يفكر إلاً بالنهاية الغامضة لقد اصبح قريباً جداً من قبره الذي ينتظره في لحظة ما!

ماذا لو يستنجد بالمنجمين.. ان «الحسن بن سهل»_، و«ابن نوبخت»_ و«محمد بن موسى» يستطيعون استكشاف المستقبل ويعرفون كم سيعيش..

- آه كم بقي لي من العمر؟!

ونظر فلكيو العصر في النجوم ورجعوا الى كتب الفلك والعلوم فقالوا:

- ستعيش يا مولانا خمسين سنة أخرى!

أفتر الواثق عن ابتسامه مرةً قبل أن تتنابه موجة من غياب الوعي..

وتبادل العلماء نظرات ذات مغزى.. ياللمسكين أنه يموت وينطفئ..

سوف يغادر هذه الدنيا العريضة في رحلة لم يتزوّد فيها بشيء من انسانيته

كأنسان..

استغرق الخليفة في اغماءة طويلة تشبه الموت، ولذا عقدت في الغرفة المجاورة لغرفة الخليفة جلسة طارئة للبتّ في مستقبل الخلافة.. ولم يبق مع الخليفة المسجى سوى رجل مسلح واحد.

كان الوقت ضحى عندما فتح الواثق عينيه للمرّة الأخيرة وارتاع الرجل لمنظر الخليفة ربمّا يصدر أمراً بقتله فارتدّ الى الوراء مذعوراً فتعثر بسيفه وسقط...

واغمض الخليفة عينيه الى الأبد..

وجاء القاضي احمد بن أبي دؤاد ومعه الوزير الزيات وتم التأكد من الوفاة خاطب القاضي الرجل المسلح:
- احرس الجثمان ريثما نشتغل بعقد البيعة..

ان مصير الدولة الاسلامية يكمن الآن في تلك الغرفة حيث جلس الزيات رئيس الوزراء، ابن دؤاد رئيس السلطة القضائية وعمر وزير البلاط، وايتاخ الرجل التركي القوي في القصر، والقائد العسكري وصيف وبغا الشرابي نادل الخليفة ومسؤول الحفلات وكان واضحاً من خلال الجدل ان الزيات ومعه عمر يسعى جاهداً في ترشيح ابن الخليفة الذي ما يزال طفلاً! وقد حاول رئيس الوزراء استعجال الأمور فاحضر الصبي والبسه حلّة الخلافة الرسمية فبدا مهرجاً يثير السخرية والضحك، وفي تلك اللحظات المصيرية نهض وصيف ليحسم الموقف ويعلن رفضه الخليفة الجديد وعاد الجدل مرّة أخرى، وتم استعراض اقرباء الخليفة الذي ما يزال مسجى في الغرفة المجاورة..

رشح وصيف أخ الواثق «جعفر».. انقبضت اسارير الزيات وابتلع عمر ريقه.. ياللقدر حاولا الوقوف بوجه المشروع ولكن وصيف لوّح باستخدام قوّاته التي تسيطر على العاصمة فاذعنا على مضض.. لقد كان الزيات احمقاً وهو يرشّح صبياً للخلافة!!

كان جعفر في الاجنحة الخاصة بالحرس الخاص جالساً مع بعض الشباب الاتراك يرتدي قميصاً وسروالاً_ عندما جاء أحدهم من البلاط فسأله جعفر:

- ما الخير؟!

قال الرجل وهو يمضي لشأنه:

- ما يزال الجدل مستمراً.. ولكن القائد وصيف اقواهم صوتاً.

مرّت لحظات مصيرية ثم ظهر بغا الشرايبي بقامته الممدودة قادماً نحوه.. تعجب للوهلة الأولى أن لهجته قد تغيرت وبدا فيها احترام.. تساءل جعفر عن الذي يجري فقال بغا:

- اظنهم سيبايعونك يا سيدي.

وخانته الشجاعة فقال:

- أخاف أن يكون الواثق لم يمت؟!

- سوف تتأكد بنفسك.

تنفس جعفر ملء صدره وهو يرى أخاه جثة هامدة لاحراك فيها.. آه ان الحظ يحالفه.. الخلافة تسقط في قبضته كتفاحة ناضجة.. شهية.. سوف يلتهمها متلذذاً وحده وارتسمت على وجه المصفر وللحظة خاطفة ابتسامة غامضة..

نهض القاضي وعانق الشاب القادم ثم قبله في جبينه وفي مراسم خاصة البسه بزّة الخلافة ووضع على رأسه عمامة الملك، وخاطبه:

- السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وكاد جعفر يصعق للمشهد لقد اصبح في لحظات الحاكم المطلق لبلاد
تمتد من غرب أفريقيا الى تخوم أرمينيا الى شواطئ المحيط الهندي..
حتى الزيات ينحني له متخضعاً ليحييه!
صدرت تعليمات عاجلة باجراء مراسم دفن الخليفة في قصره
«الهاروني» وانتقلت هيئة الحكم الى القصر العام للتداول في لقب الخليفة
الجديد.

هتف الزيات:

- نسّميه: المنتصر بالله!

ولكن القاضي الذي يعرف مدى الحقد الذي يكنه الخليفة للزيات
تدخل قائلاً:

- ان سعيد الصغير رأى في المنام «سكراً سليمانياً» يسقط من السماء
مكتوباً عليه: جعفر المتوكل على الله!

لم يكن هناك مجال للاعتراض.. أن القاضي الذكي ربط كل شيء
بالسماة! وصدر عن ديوان الرسائل برئاسة الزيات مرسوم واحد في عشرات
النسخ لتعميمه على حكام الاقاليم والحواضر الاسلامية في البلاد وجاء فيه:
«بسم الله الرحمن الرحيم

أمر أمير المؤمنين أطل الله بقاءه أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره
على أعواد المنابر وفي مخاطبة القضاة والكتاب وأصحاب الدواوين ما يلي:
من عبدالله جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين..
يجرى العمل بذلك واعلامي بالوصول..

الوزير محمد بن عبدالملك الزيات.

وابتهجت سامراء التي يشكل العسكر وأسرهم غالبية السكان بمرسوم الخليفة الذي يقضي بصرف مرتبات مضافعة الى جميع أفراد القوات المسلحة..

فحصل أفراد الحرس الخاص على ثمانية اضعاف مرتباتهم وللجنود مرتبات أربعة أشهر، وحصل المغاربة على مرتبات ثلاثة أشهر، فرفضوا استلامها احتجاجاً وتوتر الجو العام في العاصمة، ولكن الازمة سرعان ما سوّيت باعتبار جميع المغاربة أحراراً فادرجت اسماؤهم في سجلات الجيش!_

(٢١)

انطوى موسم الحج في سنة ٢٣٢هـ ولم يكن الحجاج الذين عادوا الى ديارهم أو انطلقوا الى المدينة المنورة سمعوا بالانباء الجديدة.. كما أن الجفاف قد حوّل رحلتهم الى معاناة شاقة وعزّت على الحجاج قطرة الماء.. حتى بلغ ثمن القربة اكثر من عشرة دنانير.. ولقي كثير من الظامئين حتفهم في الطريق خاصّة في المحطات الخاوية على طريق الربذة_ وكانت رياح السموم ما انفكت تهب فتشوي الوجوه كما احترقت مزارع في الكوفة والبصرة وبغداد.. ولقي كثيرون حتفهم من شدّة الحرّ وتعطلت بعض الاسواق في همدان والموصل وسنجار..

وكانت أول هدية يتلقاها «المتوكل» جاءت من اقليم خراسان الغني.. ان ابن طاهر يعرف كيف يستحوذ على قلبه مليكه.. لهذا اهدى اليه اربعمئة فتاة حسناء وفيهن مطربات تتقدمهن الحسناء اللعوب «محبوبة» التي استولت على قلبه وهام بها سنوات طوال_ ونافست بذلك زوجته الفاتنة الجمال «قبيحة» أما «ريطة» زوجته الأولى فقد توترت علاقتها مع زوجها ذي النزعات الغريبة..

118

كان «خيران» وهو رجل صالح يعمل خادماً في القصر الهاروني الذي يسكنه «الواثق» وهو في الحقيقة من ممالك فراطيس أم الخليفة الواثق ولذا كان يدعى ايضاً بالفراطي أيضاً، وكان قد غادر سامراء لاداء فريضة الحج، وكانت له علاقات طيبة مع الامام الجواد في بغداد.. من أجل ذلك انطلق

الى المدينة لزيارة قبر الرسول، ولقاء علي الهادي الذي ذاعت شهرته في الآفاق كإمام للشيعة وأكثر الشخصيات محبوبة_ في المدينة المنورة.

وبعد أن تبادلنا كلمات ودودة:

سأل الذي أوتي العلم صبيهاً:

- ما اخبار الواثق عندك؟

قال خيران:

- عليل ولعله قد مات.

- فمن يقال بعده؟

- ابنه.

قال الامام:

- الناس يقولون أنه جعفر.

- كيف يا سيدي؟! تركته أسوأ الناس حالاً.. انه في السجن!!

لا يمكن أبداً.

- نعم هو كما قلت لك.

ادرك خيران ان ابن الرضا قد كشف له عن الأفق أنه يرى ما لا نرى..

لهذا تتم مسلماً:

- صدق الله ورسوله وابن رسوله _.

وبعد لحظات صمت تساءل الامام:

- ما فعل الزيات.

أجاب خيران الذي يعرف خفايا البلاط.

- الناس معه والأمر أمره.

- ستكون وزارته شؤم عليه.

ونظر من خلال كوة في الحجرة الى السماء الصافية:

- لا بدّ أن تجري مقادير الله..

وهيمن صمت ثقيل كسره خيران بسؤال في الفقه:

- هل يجوز الصلاة في ثوب تصيبه قطرات خمر أو لحم خنزير؟ ان

اصحابنا قد اختلفوا في ذلك!

أجاب الذي عنده علم الكتاب:

- انه رجس لا تجوز فيه الصلاة..

ونهض خيران يودّع الانسان الذي ينبض قلبه بمحبة الناس جميعاً..

نهض ليعود الى سامراء..

وسامراء تستقبل عشرات الجواري الحسان من بغداد وخراسان الى

قصور الخلافة التي بدأت تضيق بهن المقاصير وظهر المهرجون

والمخثون.. ظهوروا كما تظهر النباتات المتسلّقة لقد بدأ عصر جديد.. عصر

يعيش فيه الذين يجيدون الرقص فوق الحبال.

الذين عاشوا في تلك الحقبة من الزمن، وشهدوا المصالحة بين البيتين

العباسي والعلوي، بين البيت الحاكم منذ قرن من الزمن وبين البيت الذي

رفع راية المعارضة منذ قرنين من الزمن.. ان هؤلاء سوف يودّعون الى الابد

تلك المصالحة الهشة والظاهرية في العصر الجديد.. فالحكم الجديد هو

حكم الحديد والنار.. حكم ينهض على الجاسوسية والارهاب والفساد

والتآمر..

هاهو ابراهيم بن العباس الصولي الأديب والشاعر والسياسي يغادر الاهواز في طريقه الى العاصمة لتسنم منصبه الجديد كاتباً عاماً للبلاط ورئيساً لديوان الرسائل ومسؤولاً عن ايرادات عشرات القطاعات في الدولة المترامية الأطراف..

لابد وأنه سيصدم بالسياسية الجديدة لقد كان يعلق آمالاً عريضة على المصالحة، وكانت له مواقف رائعة ومؤيدة لولي عهد المأمون في مرو «علي بن موسى الرضا».. ولا تزال أشعاره في مدح الرضا في ذاكرة الكثيرين.. بل ما يزال يحتفظ بدراهم أهداها له الامام.. يعتز بها لأنها مباركة طيبة.. وكيف لا تكون واسم علي بن موسى منقوشاً عليها لسوف ترافقه حتى آخر لحظة في حياته.. كما يحتفظ بديوان شعره الذي لم يوقع عليه اسمه خوفاً.. انه يعرف سياسة الحكم ولكنه لن يصدّق بشاعة الارهاب الذي لا يرحم.. ان عام ٢٣٣هـ هو عام التحولات الكبرى.. سوف تطيح رؤوس كثيرة.. كثيرة جداً وسينحط الانسان الى ابعد نقطة في الحضيض.. انه يدرك جيداً ان التحولات الاجتماعية تقود الى تحولات سياسية، كما هو العكس أيضاً.. ظاهرة عجيبة تشبه دولاب الزمن المرير.

وإبراهيم الذي ذرّف على الخمسين، من القلائل الذين وعوا جيداً عصرهم وحافظوا على توازنهم في حقبة عاصفة.. ولعلّه الوحيد الذي لم يسع الى تملك الحكم الجديد طمعاً في منصب أو نفوذ.. فمؤهلاته الفكرية والادبية وبلاغته دفعت بالمتوكل الى استدعائه والافادة من يراعه المتوقد. ان الجو العام يشير الى أن طاغية رهيب في المخاض، فحاكم لا يعترف بوجود مقدّس واحد... سوف يهزّ في عصره كل الثوابت الأخلاقية..

بدأ «ابراهيم بن العباس الصولي» عمله الجديد بتحرير رسائل عديدة الى شخصيات فكرية واجتماعية وسياسية.. وقد جاءت هذه الرسائل وفق حسابات واسباب عديدة لا يعرفها سوى الخليفة الرهيب..

انطوى شهر محرّم الحرام من سنة ٢٣٣هـ فيما كانت خيول البريد تنهب الأرض الى مختلف المدن والحواضر الاسلامية تحمل معها رسائل الى رواة الاحاديث لقد بدأت مرحلة أخرى في تدوين سنة نبوية جديدة.. سنة تليي رغبة الحكم الجديد من أجل توجيه ضربة قوية للمذهب المعتزلي الذي بلغ ذروة تسلطه في عهد الواصلين..

وستشهد الحياة الفكرية جدلاً جديداً حول النشاط الانساني.. هل الانسان مجبر أم مفوض؟ مخير أم مسير.. هل هو مقهور على عمل ما في حياته أم مطلق الارادة والقدرة؟!..

لقد انحسر الجدل القديم حول القرآن وظهرت تيارات فكرية جديدة وكان القاضي أحمد بن أبي دؤاد يعرض على اصبع الندم، ورأسه يحتدم بالسواوس والهواجس من الخليفة الذي صنعه بيده وأجلسه على العرش فإذا به ينقض عليه..

بدأ المتوكل حكمه الجديد بقطع اكبر رأس في الدولة: رئيس الوزراء..

122 الحاكم الفعلي انه الزيات الذي يحتفظ في سرايب قصوره بآلات رهيبه للتعذيب وحدثت الأمور بشكل مخيف في جنح الظلام.. ثم بدأ التنفيذ في اليوم التالي.

اليوم هو يوم الاربعاء ٧ صفر من سنة ٢٣٣هـ. استلم الزيات أمراً بالمشول لدى الخليفة في قصر الخلافة العام فتناول طعام الغداء على عجل وبادر نحو

القصر.. عندما اجتاز البوابة العامّة والدرجات الواسعة وجد في استقباله الحرس حيث يوجد الجناح الخاص والمخصص للرجل القوي «ايتاخ».. قال حارس عملاق:

- ان القائد ايتاخ يودّ تناول النبيذ معك.

وعندها غير طريقه باتجاه غرفة القائد التركي.

ولكنه فوجيء بحارس آخر يطلب منه التوجه الى حجرة أخرى دق قلبه رعباً وشعر بوجود مؤامرة ولكن ما طمأنه وجود عدد من مرافقيه المسلحين. ولدى دخوله الحجرة وجد رجلين مسلحين.. فطلب منه خلع بزّته الرسمية للاستراحة وتناول النبيذ مع القائد الذي سيحضر بعد قليل، وخرج الرجلان اللذان جرّداً رئيس الوزراء من سلاحه وطلباً من رجال الحرس المرافقين له الانصراف بعدما سلّماهم بزّته الرسمية وسلاحه.. ان الزيات فيما يبدو سوف يقضي وقتاً طويلاً مع القائد ايتاخ!!

وهكذا سقط الرأس الكبير في قبضة ايتاخ_ المتوكل يتسم ابتسامة صفراء تشبه ساقية الصفراوين..

وحضر المتوكل ليرى ضحيته الأولى من خلال فرجة من باب الحجرة وخاطب ايتاخ وهو يصرّ على اسنانه.

- عذّبه حتى الموت.

لم يكن هناك من حاجة الى توصية بالانتقام من رئيس الوزراء فلقد كان حقيراً ونذلاً بحيث شمت به الجميع..

حتى ابراهيم الصولي عندما سمع بالانباء المثيرة تذكر غدره به.. لقد كان صديقاً له ولكن عندما اصبح رئيساً للوزراء تنكر لصديقه بل حاول القضاء عليه ولكنه دفع اليه مليوناً ونصف المليون من الدراهم..

وفي نفس اليوم هاجمت مجموعات من الحرس الخاص قصر الزيات الذي صودر كما تم نقل الجواري والغلمان الى القصر الهاروني.. وصودرت جميع ممتلكاته في بغداد وارضيه الزراعية.. وبعد ذلك بدأت معه حفلات التعذيب وصدق المثل العربي: «من حفر بئراً لأخيه أو شك أن يقع فيه» ها هو يدخل «تور العذاب» ويتلقى وخزات الدبابيس ويمنع من النوم_ أياماً ليقف على حافة الجنون، وجاءت طلقة الرحمة عندما تعرّض للضرب المبرح على بطنه ثم على استه فأغمي عليه ثم اكتشف الجلاّدون موته فقد التوت عنقه وظلّت الكلمات التي كان يهذي بها في بعض الليالي موضوعاً يتندر به الجلاّدون..

كان عمر بن فرج يعيش أيامه ولياليه قلقاً متوجساً ينتظر اعتقاله أو اغتياله في أية لحظة.. واذا كان له ما يشفع لدى المتوكل هو موقفه العدائي لأهل البيت(عليهم السلام)فليس هناك من لا يعرف حقد المتوكل على علي وابناء علي.. وهناك أمر آخر هو شقيقه الذي يعد من شخصيات الدولة

124 في مصر.

لاسباب غامضة غض المتوكل نظره عن عمر بل أنه استطاع أن ينضم الى حاشية البلاط شهوراً معدودة.

ظهر الفتح بن خاقان رئيساً جديداً للوزراء.. شخصية نفعية وصولية لا تتورع عن فعل أي شيء من أجل المال.. واصبح الثنائي الذي شكله في

علاقته بالخليفة اشبه بعلاقة فرعون وهامان.. طاعة عمياء للخليفة مقابل ثقة مطلقة بابن خاقان.. الذي اصبح مسؤولاً في نقل ما يجري في اروقة القصور من أحاديث، وما يدور على السنة الناس من أخبار.. فشكل شبكة رهيبة من الجواسيس كان اعضاؤها خدَم القصور والغلمان والجواري، فيما راح المتوكل يعزز من قدرات قوَّات الحرس الخاص.. ولم يكتشف أحد بعد ما يدور في خلد الخليفة الذي مضى على حكمه شهر معدودة فقط.

كان المتوكل منهمكاً في لعبة النرد مع رئيس وزرائه عندما أعلن الحاجب ايتاخ أن القاضي يطلب أذنًا في لقاء الخليفة.. هزَّ المتوكل رأسه موافقاً.. أراد الفتح أن يرفع النرد.. فمنعه المتوكل قائلاً:

- انني العب ذلك علناً لا أخشى حتى الله وتريدني أخشى هذا؟! -

وعندما وقف القاضي أمام الخليفة لم يدعه الى الجلوس.. وحانت التفاتة من القاضي فرأى في زاوية من البلاط رجلين لم يعرفهما كانا يلعبان الشطرنج..

وكان واضحاً جداً أن المتوكل يستخف به فأنهى لقاءه بسرعة وغادر القصر يجرّ أذيال الخيبة والهوان..

وفي جمادي الآخرة أصيب قاضي القضاة احمد بن أبي دؤاد بشلل نصفي فقد فيه قدرته على الكلام..

- ولم يكن المتوكل غيباً وهو يبقي على قاضي القضاة في منصبه فالمتوكل في هذه الفترة بحاجة الى حاشية لا تعرف غير تنفيذ الأوامر، وليس هناك ما هو أفضل من قاض مشلول لا عمل له سوى هزّ الرأس عندما يصدر الخليفة أمراً..

ولقد بدا واضحاً جداً ان المتوكل قد استحال الى طاغية.. انه يريد من رجاله أن يكونوا ببغاوات تقلد صوته فقط ويريد من الشعب أن يستحيل الى قطع من الاغنام مطيع.. قطع يستسلم لإرادته حتى لو ساقه نحو المذبح..

فالذين كانوا يراقبون الأوضاع يدركون ان العصر الجيد هو عصر الخلاعة والمجون عصر يثرى فيه المهرجون والمخثون، ويختنق فيه الأحرار والمعارضون.

(٢٢)

وصلت القصر تقارير خطيرة من المدينة المنورة تفيد بأن علي بن محمد المعروف بابن الرضا يشكل خطراً على الدولة، وأن الأموال تتدفق الى منزله ومن الممكن أن يشتري بتلك الأموال الطائلة أسلحة لاشعال ثورة مسلحة.. أنه يطرح نفسه قائداً.. فاذا كانت للعاصمة حاجة في «الحرمين» الشريفين مكة والمدينة فلتبادر الى اقضاء علي بن محمد على الفور.. وكانت التقارير توقع دائماً باسم «بريحة العباسي» المسؤول العام عن أمن الحرمين.. ومازاد الطين بلة ان زوجة المتوكل بدأت ضغطها بهذا الاتجاه.

ان رسالة واحدة تكفي لاثارة مخاوف الخليفة الحاكم فكيف اذا تابعت الرسائل؟! _

وادرك الكثيرون ان هذا الوغد يعرف كيف يتسلق.. يعرف الطريق الى المزيد من النفوذ والتسلط، وليس هناك طريقة أقصر وأيسر من الصعود على جث الضحايا والابرياء من أبناء علي.. من أجل هذا أرسل الامام الشاب رسالة كذب فيها مزاعم الوغد العباسي..

وكان وصول الرسالة الى سامرا مدعاة لعقد جلسة طارئة اسفرت عن نتائج وقناعات مرضية..

ان تقارير بريحة العباسي عارية من الصحة.. وأن الأخبار المؤكدة

تفيد بأن علي بن محمد ذا الثامنة عشر عاماً شخصية محبوبة في المدينة المنورة بسبب طبيته واحسانه الى الفقراء والمعوزين..

ومن المؤكد أن أموالاً ضخمة تحمل اليه لاعتقاد شيعته واتباعه بضرورة دفع الحقوق الشرعية اليه من خمس وزكاة.

ولذا فان بقاءه في المدينة يشكل خطراً على الحكم العباسي، بسبب حساسيته إزاء العلويين بشكل عام، والائمة بشكل خاص.. ثم إنه ابن صهر الخليفة العباسي المأمون وحفيد ولي عهده.. وما يزال يدعى بابن الرضا ولذا فان ابعاده عن الحجاز أمر ضروري، بل أن وجوده في سامراء سيوفر للحكم افضل موقع لمراقبته ومراقبة الذين يتصلون به.. واذا كانت بغداد مهياً لحركة شعبية مضادة للحكم كالتي حاول تفجيرها احمد بن نصر الخزاعي فان سامراء اكثر المدن ولاء للحكم لأنها تشبه معسكراً كبيراً للجيش والقوات المسلحة..

لهذا أوعز المتوكل الى كاتبه البليغ ابراهيم الصولي بتسطير رسالة رقيقة، تتضمن أمراً بعزل بريحة العباسي، وتعيين محمد بن الفضل الجرجاني.. اضافة الى تأكيد رغبة الخليفة في حضور علي بن محمد الى سامراء تعزيزاً للعلاقات الطيبة بين البيتين العباسي والعلوي.. كما وضع تحت تصرفه قوة

128 مسلحة تتألف من ثلاثمئة جندي بقيادة يحيى بن هرثمة..

كان القيظ شديد الحرارة، وتموز في ذلك من سنته اكثر لهيباً بسبب الجفاف.. وكان محمد بن الفضل الذي عين كاتباً يرافق يحيى وله ميول شيعية، كما كان هناك قائد عسكري وهو خارجي المذهب.

وارتسمت ابتسامة ساخرة في وجه يحيى بن هرثمة فهو «ظاهري» والكاتب «شيعي» والقائد العسكري «خارجي».. وكان لابد أن يصطدم الخارجي مع الشيعي ويحتدم بينهما الجدل.. ولذا وجد هرثمة أن افضل وسيلة لقطع الطريق هي الاستمتاع بالاستماع اليهما.. وفي منتصف الطريق وقد مضت خمسة أيام فاجأ الخارجي الكاتب الشيعي بسؤال محرج:

- ان إمامك علي يقول: «انه ليس في الأرض بقعة إلا وهي قبر أو ستكون قبراً؟ انظر اننا نسير في هذه البادية التي لم يطرقتها انسان فكيف تكون قبراً؟!

تدخل هرثمة وخاطب الكاتب:

- هل حقاً أن علياً قال ذلك؟

قال الكاتب:

- أجل اننا نروي ذلك.

قال هرثمة بدهشة وسخرية:

- صدق الرجل اين من يموت في هذه البراري حتى تمتلىء قبوراً؟!

سكت الكاتب وانسحب الى نفسه، فيما استغل الخارجي ذلك وراح

يتندر وهتف جندي سمع الحوار:

- انظروا هناك مقبرة كبيرة..

لم تكن هناك وعلى مدى الافق البعيد سوى الرمال، واستغرق بعضهم

في الضحك من أحاديث الشيعة التي لا تعقل!

في أخريات تموز وصلت القوّة المسلّحة المدينة المنورة، يقودها هرثمة الذي اتجه الى قصر الوالي لاطلاعه على طبيعة مهمته في المدينة.. ان لديه أوامر مشدّدة بتفتيش منزل علي بن محمد..

وكان حضور هذا العدد الكبير من الجنود ومعظمهم من الاثراك قد أثار مخاوف الناس، وانتشرت شائعات حول احتمال اعتقال علي بن محمد.. في نفس اليوم كان هرثمة ومعه عشرات الجنود يتوجهون الى منزل الامام.. ومما أثار دهشته أن عدد كبيراً من الناس كانوا يتربصون بقلق هذه اللحظة وعندما وقعت عيونهم على هرثمة يحف به جنود غلاظ تأكدت مخاوفهم..

حقاً ان الانسان الطاهر يؤسس عرشه في القلوب.. هؤلاء البسطاء يرون في علي بن محمد نقطة السلام في هذا الزمن المليء بالخوف.. ان هذا الفتى الاسمر ذي العينين المفعمتين بالنور يبعث في القلب الطمأنينة والسلام..

لم ينس أهالي المدينة وخاصةً الشيوخ حوادث قديمة.. لقد أخذ الرشيد موسى بن جعفر الى بغداد، فذهب ولم يعد ثم جاء المأمون فاستدعى علي بن موسى الرضا فذهب الى مرو ولم يعد، ثم جاء الخليفة المعتصم فاستدعى محمد بن علي بن موسى فذهب الى بغداد ولم يعد وتوفي في ريعان شبابه. وجاء الدور للمتوكل ليأخذ من بينهم علي بن محمد بن علي بن موسى الى سامراء!!

حق لهم أن يشعروا بالمخاوف من أجل الفتى الطيب علي.. وعندما صرحوا بمخاوفهم للقائد يحيى خاطبهم مهدئاً:

- اقسم لكم بانني لم أوامر فيه بمكروه.. ان معي أوامر بتفتيش منزله فقط..

وفي الأثناء فتح الباب فدخل القائد ومعه ثلاثة من الجنود.. سلم يحيى رسالة الخليفة.. فقرأها الفتى بدقة ورفع رأسه قائلاً:

- لا مانع من السفر معكم.

- غدا!؟

- كلاً.. بعد ثلاثة أيام.

- حسناً بعد ثلاثة أيام!

- ان معي أوامر بتفتيش المنزل.

- نفذ ما أمرت به!

فتش القائد بنفسه المنزل تفتيشاً دقيقاً، فلم يعثر على شيء سوى مصاحف وكتب للدعاء وسيف واحد.

قال مجاملاً:

- هذا سيف عراقي!؟

- أجل أهداه لي أبي قبل وفاته.. أرسله اليّ من العراق..

انتهت عملية التفتيش، وتنفس القائد يحيى الصعداء ان كل شيء يمضي على ما يرام.. يستطيع أن يؤكد لأهل المدينة أن هذا الفتى الذي يحبوه لن يتعرض الى أدنى شيء، ان التقارير التي وصلت سامرا كاذبة ولا تعكس الحقيقة..

وهتف في اعماقه: كم هو ذكي هذا الفتى ان الرسالة وإن بدت تخيره في القدوم الى العاصمة ولكنها تنطوي على ما يشبه الاضطرار وفي اليوم

التالي بكر يحيى لتفقد الفتى والتعرف على شخصيته اكثر لقد استهواه هدوئه وسكينته.. لقد صادف كثيراً من العلويين ولكنه لم ير مثل هذا الفتى الاسمر.. وهتف في اعماقه: كم هو أحمرق بريحة وهو يكتب الى الخليفة يحذره من خطر علي بن محمد؟!!

ولج الحجرة التي يجلس فيها الفتى العلوي لم يكن وحيداً كما توقع، كان معه خياط يقصّ بمقص كبير لبوداً وخفاتين وبرانس.. ان منظره يثير السخرية.. أن المرء لا يستسيغ رؤية ملابس شتوية في تموز ذروة الصيف اللاهب.

خاطب الفتى الخياط بمحبة:

- استعن على انجازها بجماعة من الخياطين.. إذ ينبغي الفراغ منها اليوم.. وموعداً غداً في مثل هذا الوقت.

والتفت الى يحيى:

- الرحيل غداً في مثل هذا الوقت.. اقضوا اعمالكم في المدينة اليوم. لم يجد القائد بدأً من النهوض.. فمنظر اللبود والخفاتين لا يبعث على الراحة ثم أنه ينبغي انجاز كل شيء في هذا اليوم.. وارتسمت في أعماقه دهشة وهو يغادر المنزل.. دهشة من هذا الفتى

132 الذي يهيء ملابس شتوية في فصل الصيف اللاهب..

قال في نفسه: هذا الفتى لم يسافر ابداً.. انه لا يحتاج الى كل هذه الثياب.. نحن في تموز وفي حرّ الحجاز وبيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيام فقط.. فما يصنع بهذه الثياب؟!!

وارتسمت ابتسامة ساخرة على شفثيه: اتعجب من الرفضة يقولون بإمامة هذا الفتى...

في صباح اليوم التالي كان كل شيء جاهزاً وحضر القائد يحيى ومعه قواته المؤلفة من ثلاثمئة جندي.

كان الفتى يصدر آخر تعليماته الى مجموعة من الغلمان:

- خذوا من اللبايد والبرانس ما يكفيكم..

والتفت الى يحيى:

- لقد حان الرحيل..

تبادل يحيى مع رجاله نظرات ذات معنى، وانطلقت ضحكات مخنوقة وهمس جندي في اذن رفيقه:

- انظر: انه يخاف أن يلحقنا الشتاء في العراق؟!!

- هذا فتى حجازي لم يسافر.. يتصور ان الصيف في الحجاز فقط..

كان الغلمان يمارسون أعمالهم بشكل طبيعي، وبدت لهم استعدادات الفتى واحضاره ملابس شتائية ومطريات أمراً في غاية الحكمة، فالحجاز في

هذه السنوات متطرف المناخ والطقس، ولا يعرف له ثبات.. لكأن القلق الفكري وعدم الاستقرار السياسي القى بظلاله على الطبيعة ايضاً فقد

يصادف في النهار أن ترتفع درجة الحرارة فتشوي الوجوه حتى اذا حلّ المساء انقلب الجوّ انقلاباً عجيماً اذ تنخفض درجة الحرارة الى ما دون

الصففر وربما هطل المطر بغزارة بل ربما رامت السماء ثلجاً وبرداً..

كل شيء بات جاهزاً في ذلك الصباح وقد ارتفعت الشمس فوق
البيوت الطيبة المتواضعة.. فيما أصبح منظر اللبابيد موضوعاً لتندر الجنود
الذين امضوا وقتاً ممتعاً في تبادل كلمات التهكم والسخرية!
القافلة جاهزة وقد رفعت النوق رؤوسها متأهبة لسفر طويل...
وبدا واضحاً أن القوّة المسلّحة قد أصبحت مهمتها حراسة القافلة التي
تدفع أهل المدينة لتوديعها بأسف وحزن.. لقد غادر السلام المدينة ورحل
الرجل الذي يحسن اليهم ويواسيهم في البأساء والضراء.. والفتى الذي
يذكرهم وجهه البهي بالنبوّات الراحلة..
وداعاً أيها السيد.. أيها الفتى الطاهر.. ليحرسك الله ويحميك من الشرور..

(٢٣)

ابتعدت بيوت المدينة.. غرقت في بحر السراب وقد الهب تموز ذرات
الرمال.. فيما بدت اشجار النخيل رماحاً مركوزة في المياه الخيالية..
وفي قلب الرمال الممتدة حتى البادية تواصل القافلتان المسير.. قافلة
تتألف من خيل وجمال وهي قافلة الفتى العلوي الذي فضل اصطحاب
بعض أفراد أسرته بالرغم من الغموض الذي يكتنف نوايا الخليفة..
القافلتان تمعنان في الرمال، وتموز يرسل لهيبه واضحى منظر اللبود فوق
النوق أمراً يفجّر في اعماق الانسان مزيجاً من السخرية والجنوح الى
الضحك!

وصلت القافلة صحراء تزخر بالرمال، وكان منظر الكثبان الرملية التي
بدت لوهلة أمواجاً بحرية مسحورة تبعث الرهبة في ذلك الاصيل.
بركت الجمال وانصرف بعض الجنود الى ضرب الاوتاد كما بادر
الغلماان ومعهم الفتى العلوي الى صنع مخيم صغير للراحة بعد رحلة شاقة..
وفضل بعض الرجال الذين جاءوا من المدينة مسافرين_ أن يضربوا
خيامهم الصغيرة قرب مخيم علي بن محمد..

وفي المساء، تحلق بعض المسافرين حول الفتى الذي أوتي علم الكتاب
فراح يتحدث اليهم بمحبة وودّ، قال رجل تبدو عليه سيما الصالحين:
- يا سيدي أنا أعرف أباك لقد كان تقياً..

وسكت لحظات ثم قال متسائلاً:

- لقد كنت أهابه وأخشاه مع أن لم يكن سلطاناً!

قال علي:

- من اتقى الله يُتقى، ومن اطاع الله يطاع.

وأضاءت الوجوه بعد أن افلح غلام في اشعال بعض العيدان والحطب التماساً للنور وكانت السماء تزخر بالنجوم المتألقة نظر الفتى الى الرجل وكان اسمه فتح:

- يا فتح! من أطاع الله لم يبال بسخط المخلوقين، ومن اسخط الخالق فليوقن أن يحلّ به سخط المخلوقين.

يا فتح: ان الله جلّ جلاله لا يوصف الا بما وصف نفسه فأنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه..

والأوهام أن تناله، والخيال أن يحدّه..

والأبصار أن تراه..

جلّ عما يصفه الواصفون..

وتعالى عما ينعتة الناعتون..

نأى في قربه..

وقرب في نأيه..

فهو في نأيه قريب..

وفي قربه بعيد..

كيفّ كيف.. فلا يقال كيف؟

وأينّ الأين فلا يقال له: أين؟

إذ هو منقطع الكيفية والأينية..

الواحد الاحد، جلّ جلاله.. وسكت قليلاً وقد خشعت القلوب لذكر الله العظيم، خالق السموات والصحاري والنجوم، خالق الشمس والقمر والانسان..

واستأنف الفتى كلماته المضيئة كالنجوم:

- بل كيف يوصف بكهنه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد قرن الخليل اسمه باسمه واشركه في طاعته، وأوجب لمن أطاعه جزاء طاعته، فقال سبحانه: (وما نقوموا منه الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله).
وقال تبارك اسمه يحكي قول من ترك طاعته: (يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسول).

ولأن الحكم الجديد يحارب علياً بن أبي طالب استطرد حفيده وحامل رسالته واسمه فراح يتحدث عن علي:

- أم كيف يوصف من قرن الجليل طاعته بطاعة رسول الله حيث يقول:
(اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).
يا فتح:

كما لا يوصف الجليل جلّ جلاله ولا يوصف الحجّة فكذلك لا يوصف المؤمن المسلم لأمرنا.. فنيّنا أفضل الانبياء ووصيّنا افضل الاوصياء..

وسكت الامام ليقول للفتح:

- فأورد الأمر اليهم وسلّم لهم..

وأردف بعد لحظات:

- إذا شئت.

الحقائق الكبرى تسطع في أعماق الفتح الذي كان يصغي الى كلمات خطيرة.. كلمات لو سمعها المتوكل لانفجر غيظاً أنه يتحدّى وحيداً التيار الفكري الجديد الذي بدأ يهبّ كالأعصار...

الخليفة يرسم صورة جديدة للأله صورة تنسبه الانسان له عينان ولسان وشففتان!

وليت الأمر يقف عند هذا الحد فهذا الفتى ينسف القاعدة التي يرتكز عليها الحاكمون.. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..

الانسان الذي مسّته السماء، هو وحده الذي يجب أن يطاع، هو وحده القائد الحقيقي لقافلة الانسانية نحو التكامل المنشود..

فضل فتح الانصراف فقد يسمع بعض الحرس كلمات الامام الخطيرة.. ان هذا الفتى كآبائه لا يخشى أحداً إلا الله..

وساد الصمت ما خلا هسهسة النار وكان الجمر يخبو شيئاً فشيئاً، فيما اشتد سطوع النجوم.. وكانت رياح نديّة من جهة البحر الأحمر قد بدأت هبوبها في آخر الليل..

وعندما اشرفت الشمس وظهرت من فوق كثبان الرمال فوجيء يحيى وجنوده بمنظر فجرٍ ضحكات مخزونة منذ أيام..

السماء صافية زرقاء زرقاء.. وظهر الفتى في منظر عجيب على فرسه

مطرية، وذيل الفرس معقود وعلى رأسه برنس.. منظر عادة ما يرى في الشتاء في مواسم المطر.. لا في تموز في موسم الجفاف الرهيب وتصاعدت

ضحكات مكتومة حتى من بعض الرجال المسافرين أما الغلمان فقد احتدوا بالامام ولم يكونوا ليكثرثوا لموجة الضحك التي تعالت من قبل الجنود..

وهتف جندي دون لياقة:

- يا لهذا الحجازي.. انه لم يسافر في عمره أبداً!

وسارت القافلتان بين كثبان الرمال.. طوت النوق والخيل ثلاثة أميال..
واشدت هبوب الرياح الندية وظهرت في الأفق سحب داكنة.. وما اسرع أن
اختفت الشمس واستحالت السماء الى ملعب للغيوم الغاضبة وبدا الجو
مشحوناً بالصواعق...

وراح القائد يصدر صيحاته المتوالية للتوقف وعقد أذنان الخيل
وضرب الخيام.. ولكن شلال المطر كان قد تدفق من قلب الغيوم التي تشبه
الدخان.. وزخت السماء ثلجاً وبرداً سادت الفوضى الجنود.. وضاعت
صيحات القائد الذي فوجيء بغلام يسلمه مطرية، ويسلم الكاتب الشيعي
برنساً.. فيما تبعثر الجنود، وفقد بعض الفرسان السيطرة على خيولهم فقذفت
بهم من فوق ظهورها بعنف، وظن البعض وهم يشاهدون عنف البرد الثقيل
أن السماء تمطر صخوراً!!

هدأ الجو وجاء القائد يتفقد جنوده الذين هزموا في معركة عجيبة..
وشعر بالألم يعصر قلبه لمراى بعض القتلى.. كانوا ثمانية جنود.. بعضهم
كان يملأ الصحراء بضحكاته المدوية فإذا هو الآن جثة هامدة لا حراك
فيها..

وأوصى القائد بعض الجنود أن يزيدوا في عمق القبور فهذه البادية مليئة
بالضباع. ونظر الامام الى أكوام الرمال وقال:
- هكذا تمتلأ البراري بالقبور!

وراح بعض الجنود يعصرون ثيابهم المبتلة من المطر ويفرغون احذيتهم من المياه.. وكان منظرهم ينتزع البسمة حتى الفتى العلوي شوهد مبتسماً..
علامات سؤال ودهشة تموج في أعماق يحيى الذي راح ينظر بهيبة للفتى وادرك علي ما يجول في اعماق القائد فالتفت اليه قائلاً:
- أعرف أنك مندهش مما رأيت ولعلك توهمت بأني أعلم الغيب.
قال يحيى:

- أجل لقد رأيت الاعاجيب.

قال الفتى الحجازي:

- ليس الأمر كما تظن.. ولكنني نشأت في البادية فأنا أعرف الرياح التي تحمل المطر.. فتأهبت لذلك..

وفي المحطة الأخيرة وقد وصلت القافلة أرض العراق جاءت امرأة ومعها ابنها الأرمد.. راحت تتوسل اليه:

- اذا كان معكم رجل علوي فدلوني عليه.

- ماذا تريد من منه؟!

- أريده يرقى عين ابني!

نظراتها الذليلة المنكسرة ولهجتها المتوسلة دفعت بالقائد الى أن يرشدها

140 الى علي:

- هناك فتى مبارك اسمه علي..

وهوت المرأة اليه..

ومدّ علي كفاً سمراء مسح بها على عين الطفل ونظر الى السماء البعيدة

الغور وتمتم بكلمات مقدسة..

وانفتحت العينان البريئتان كنافذتين تطلآن على عالم مغمور بالنقاء..
واشرقت الفرحة في القلوب.. مبارك اسمك يا علي.. مباركة خطواتك..
نظراتك وخلجات قلبك الطاهر.. قلبك الذي ينبض بالحبّ والسلام.

(٢٤)

القافلة تقترب من بقعة مباركة طيبة في واد مهيب من بعيد تلوح للمسافرين في طريقهم الى الكوفة قبة بيضاء كحمامة حطت بعد رحلة في الصحاري.. حطت لتستريح..

أنها قبة مهيبة هي قبة الانسان الذي قهر الشيطان وهزم الموت واكتشف ينابيع الخلود.. قبة يرقد في ظلها انسان قذف الله حبه في قلوب الفقراء الطيبين.. «علي بن أبي طالب».. علي الذي اصبح انشودة الاحرار، وهاجساً يطارد الاشرار، لانه يمثل حنان الحياة العميق، وطبيعة الدنيا الخيرة تحنو على ابنائها وتغمرهم بالخير أياً كانوا.. ولوت النوق أعناقها باتجاه القبة البيضاء الناصعة.. من أجل علي تحط القوافل عصي الترحال.. ومن أجل شذى كشذى البنفسج هوت النوق جهة بقعة مباركة من الوادي الأيمن.. لكأنها تتذكر وطناً تبحث عنه.. كان سرّاً دفيناً في الأرض، فاهتزت وربت، وانبتت.. بالغربتك في هذه الصحراء.. وبالعنفوانك اذا يخشاك الحاكمون بعد قرنين من الزمن.. ما يزال ذو الفقار يقاتل الذين ظلموا في كل مكان.. في بغداد وسامراء وفي كل المدن الآثمة..

تراث
في زمن
الذئاب

142

تحت هذه القبة الناصعة يرقد تاريخ الاسلام في عنفوانه وملحميته وهنا يرقد الانسان المؤمن الذي احتقر الدنيا. فكان آية التكامل الانساني بعد معلمه العظيم..

وجاء حفيده وسميّه.. جاء الفتى الاسمر يخاطب الراقد في هذه البقعة
المباركة من الوادي.. جاء ليسجل ميثاق الوفاء في زمن انعدم فيه الوفاء وقد
هبت العاصفة الصفراء من قصر جاثم في سامراء.. ووقف الفتى الاسمر
يعلن شهادته للتاريخ والاجيال:
- «انت أول من آمن بالله وصلى له..

وجاهد.. وأبدى صفحته للشرك.. والأرض مشحونة ضلالة.. والشيطان
يعبد جهرة..

لك المواقف المشهودة والايام المذكورة.. يوم بدر ويوم الاحزاب.. إذ
زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر..

ويوم خيبر إذ اظهر الله خور المنافقين وقطع دابر الكافرين.. والحمد لله
رب العالمين.

«وشهدت مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جميع حروبه.. تحمل
الراية أمامه.. وتضرب بالسيف قدامه.. ثم لحزمتك المشهور وبصيرتك في
الأمر أمرك في المواطن ولم يكن عليك أمير».. لك الله يا علي وقد..

«اشبهت في البيات على الفراش_ الذبيح اسماعيل.. إذ أجبت كما
أجاب، وأطعت كما أطاع.. صابراً! قال له: «يا بني اني أرى في المنام أني
اذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من
الصابرين».

وكذلك أنت إذ أمرت النبي أن تضطجع في مرقده، واقياً له بنفسك..
اسرعت الى اجابته مطيعاً، ولنفسك على القتل موطناً.. فشكر الله طاعتك،

وأبان عن جميل فعلك بقوله جل ذكره: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله).

وسكت الفتى لحظات ثم أستأنف خطابه باعلانه الشهادة للتاريخ والاجيال:

- «اشهد أنك لم تنزل للهوى مخالفاً، وللتقى محالفاً، وعلى كظم الغيظ قادراً، وعن الناس عافياً غافراً، وإذا عصي الله ساخطاً، وإذا اطيع الله راضياً، وبما عهد اليك عاملاً.. راعياً لما استحفظت، وحافظاً لما استودعت».

أجل يا علي لقد كنت جبلاً في ثباتك ونهراً متدفقاً في عنفوانك.. كقطرة ندى في طهرك وصفائك.. قوياً كالعاصفة.. دافئاً كعش عصفور.. أخضر كالربيع.. طيباً كنسائم الصباح.. وكنت أمة وحدك «وأنت القائل لا تزيدني كثرة الناس حولي عزّة ولا تفرقهم عني وحشة.. ولو أسلمني الناس جميعاً»..

ومرّة أخرى سكت الفتى وحبس التاريخ انفاسه.. ان هذا الفتى يحمل ميراث جدّه العظيم.. لا يهاب أحداً وهو يعلن أمام الحاكمين ميثاق الرسالة في اعلان علي بن أبي طالب ولياً على الامّة الاسلامية وقائد أعلى بعد النبي: - «ان الله تعالى استجاب لنبيّه فيك دعوته، ثم أمره باظهار ما أولاك لإيمته اعلاءً لشأنك، واعلاناً لبرهانك ودحضاً للباطيل وقطعاً للمعاذير».

فلما اشفق من فتنة الفاسقين، واتقى فيك المنافقين أوحى اليه ربّ العالمين: (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس) فوضع على نفسه أوزار المسير،

ونهبض في رمضاء الهجير، فخطب وسمع ونادى فأبلغ ثم سألهم أجمع فقال: هل بلغت؟ فقالوا: بلى، فقال: اللهم فاشهد، ثم قال: الست أولى بالمؤمنين من انفسهم؟ فقالوا: بلى، فأخذ بيدك وقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله..

فما آمن بما انزل الله فيك على نبيّه الاّ قليل، ولا زاد أكثرهم غير تخسير)..

لك الله يا علي.. وأنت تقاوم عاديّات الزمن وأمواج المحن.. لك الله وأنت تسير في طريقك المضيء وحيداً.. اكثر من ربع قرن من الزمن امضيتها مقهوراً محاصراً.. لأنك قلب الامّة النابض.. ولك الله بعد أن نهضت بالأمر..

«ثم محتتك يوم صفين، وقد رُفعت المصاحف حيلة ومكراً»..

رفعوها على الرماح من أجل تمزيق آيات الله وقد تألقت في عينيك وفي كل وجودك..

«اشبهت محنة هارون إذ أمره موسى على قومه ففترقوا عنه وهارون ينادي بهم ويقول: «يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى».. وكذلك انت لما رفعت المصاحف قلت: يا قوم انما فتنتم بها وخذعتم. فعصوك»..

فلك الله يا علي..

«وصلوات الله عليك.. غادية رائحة وعاكفة وذاهبة، فما يحيط المادح وصفك، ولا يحيط الطاعن فضلك»..

تذوب القرون عند قدميك كما تذوب حبات الملح على شاطئ
المحيط.. وتنتهي الكلمات.. أما أنت فباق، ما بقي للورد شدى، وللأرض
سما.. وما بقي الانسان.. ووداعاً ايها الراقد تحت الثرى.. وسلام على روحك
العظيم..

(٢٥)

على مقربة من سجن «المطبق» الرهيب يجثم قصر قديم يشبه القلعة اتخذها اسحاق بن ابراهيم قائد الشرطة العام مقراً له منذ سنين طويلة..
ومنذ انتقال العاصمة الى سامراء تنامت بسرعة تربية الحمام الزاجل الذي اختص بالبريد الرسمي، ونقل الاخبار الهامة العاجلة..

ومن الطبيعي أن ينتبه أهل بغداد الى هذه الظاهرة العجيبة فقد يصادف أن يحط الطائر الرشيق فوق قصر اسحاق، فتحدث جلبة داخل البناء المخيف، وقد تخرج دورية مسلحة من رجال الشرطة الى منزل ما في بغداد، وربما حدثت حركة غير عادية في سجن المطبق.. حتى اصبح حمام الزاجل الجميل في نظر الكثيرين أكثر شؤماً من الغراب!

كان الخضر بن محمد البزاز_ وهو شيخ مستور في طريقه الى السوق ليفتح دكانه الذي عادة ما يبكر اليه.. ولم ينتبه الى حمام الزاجل الذي غادر القصر متجهاً الى الشمال الغربي من بغداد..

كان ذهنه مشغولاً برؤيا عجيبة استغرقت وجوده وما تزال تسيطر على مشاعره.. كانت المشاهد الملوثة.. ما تزال ماثلة تنبض بالحياة وكأنها حقيقة وليست حلماً يراه الانسان في عوالم غامضة:

«دجلة هو نفسه في عالم المنام.. يتدفق باتجاه الجنوب.. والشاطئ يزخر بالنخيل، والشيخ في طريقه الى رحبة الجسر.. الرحبة وهي ميدان

واسع يكتظ بالناس يزحم بعضهم بعضاً.. وهتافات تقول: قد أقبل بيت الله الحرام..

وما هي إلا لحظات حتى ظهرت الكعبة بستائرهما الحريرية كانت تنساب كزورق في بحيرة هادئة.. الكعبة تعبر الجسر الى الجانب الشرقي من بغداد.. الناس يطوفون بالبيت العتيق ويهللون.. ولكن الى اين يمضي البيت الحرام.. ها هو يدخل قصر خزيمة..

آه ياله من حلم عجيب؟! كف الشيخ عن محاولة اكتشاف الرموز في رؤياه العجيبة ومالبث أن استغرقه العمل بعد أن دبّت الحياة في الأسواق والمدينة..

وفي ذلك الصباح غادر اسحاق بن ابراهيم قائد الشرطة بغداد الى الضواحي القريبة بعد وصلته انباء عن اقتراب القافلة.. وأنها قد تصل «الياسرية» بين ساعة وأخرى..

كما انتشر الخبر في المدينة بقرب وصول «ابن الرضا» فغمرت الناس حالة من الشوق لاستقباله كانت القافلة تقترب من بغداد ولاسباب ما حطّت رحالها في الياسرية ريثما تصل أوامر واضحة من قائد الشرطة والحاكم الفعلي لبغداد..

148 كانت نسائم دجلة تهبّ برفق، فتنعش القلوب.. واشرقت ابتسامة بريئة على وجهي محمد وحسن_ وهما ينطلقان في البرية.. ووقف الأب يراقبهما بحبّ وأمل..

وجاء الفتح، الذي نفث الشيطان في روعه كلمة الكفر قال بعد أن حيّا الشاب الأسمر بأدب:

- يا بن رسول الله أتأذن لي في كلمة اختلجت في صدري ليلتي
الماضية؟

أجاب الشاب:

- سل وأصخ الى جوابها سمعك.. فان العالم والمتعلم شريكان في
الرشد.. مأموران بالنصيحة..

أما الذي اختلج في صدرك فان يشأ العالم أنبأك.. ان الله لم يظهر على
غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.. وكل ما عند الرسول فهو عند العالم،
وكل ما اطلع الرسول عليه فقد اطّلع اوصياؤه عليه.

يا فتح ان الشيطان أوهم عليك.. فيما ذكرته لك حتى أراد إزالتك عن
طريق الله المستقيم.. فقلت: متى أيقنت انهم هكذا فهب أرباب!!
وظهر على وجهه البريء حزن سماوي وهو يستطرد:

- معاذ الله: انهم مخلوقون مربوبون مطيعون داخرون راغمون.. فاذا
جاءك الشيطان فاقمعه!

وسكت لحظات ليقول:

- يا فتح لا تتبع خطوات الشيطان..

وهوى الذي مسّته السماء الى الارض ساجداً لله رب العالمين وكانت
الكلمات الخاشعة تناسب كجدول يدندن:

- راغماً لك ياخالقي.. داخراً.. خاضعاً..

وعندما استوى جالساً التفت الى الرجل الحائر:

- يا فتح كدت تهلك.. وما ضر عيسى لو هلك الذين اتخذوه الهاً.. اذا
شئت رحمك الله..

وحتى يحطم في صدر الرجل وساوس الشيطان أوى الى خيمته..
وتناول صحناً من قمح وقال:

- اجلس يا فتح.. فان لنا بالرسول أسوة كانوا يأكلون ويشربون ويمشون
في الأسواق..

ولم ينس مهاجمة «المجسمة» _ فاستطرد قائلاً:

- ان كل جسم يتغذى الآ خالق الاجسام.. الواحد الأحد.. منشاء الأشياء
ومجسّم الاجسام.. تبارك وتعالى الله عما يقول الظالمون..

وسكت ليقول بعد لحظات:

- اذا شئت رحمك الله..

كل شيء يتوقف على وجود النور.. والنور يحتاج الى عيون.. كما
الحقيقة تحتاج الى قلب يتفتح.. فالزهرة تتفتح للربيع، ومن يرد الله أن يهديه
يشرح صدره للاسلام..

هذه هي الحقيقة ايها الحيارى.. فإن شئتم فافتحوا العيون والقلوب
وتنفسوا ملء صدوركم شذى الربيع والعيير..

وغادر الفتح المكان وودّع الامام، وقد اشرفت في أعماقه أنوار
الحقيقة.. والله أعلم أين يجعل رسالته..

وصل قائد الشرطة العام ومعه مسؤولون في الدولة لاستقبال الامام..

وعقد بعد ساعة اجتماعاً مع القائد يحيى قال فيه اسحاق:

- ان هذا الفتى من ذرية الرسول.. وأنت تعرف جيداً رأي المتوكل
وانحرافه.. ان كلمة واحدة تقولها ضده تكفي لقتله.. وعندها سيكون النبي

خصماً لك يوم القيامة.

قال يحيى الذي بهرته سيرة علي:

- والله لم أر منه إلا كل شيء جميل!

ومع ذلك فقد احتاط قائد الشرطة عندما سأله يحيى قائلاً:

- متى تدخل بغداد؟

- في الغروب.

- ولماذا!!

- في الظلام لن يراه أحد أن بغداد تشوق لرؤيته..

كان النبأ قد أحيا بغداد بقرب وصول «ابن الرضا»، ولذا اجتمع الكثيرون في الجانب الغربي قريباً من الجسر..

الشمس تغطس وراء النخيل المصطف على جبهة النهر كرموش

حسناً..

ووصلت القافلة بغداد وقد بركت النوق في خان على أبواب المدينة

المدوّرة..

وكان الاتفاق أن يكون قصر خزيمة في الجانب الشرقي من بغداد داراً

لاستراحة الفتى المدني الحجازي الذي وصل على قدر..

وكانت فكرة اسحاق أن يمضي الفتى العلوي ليلة واحدة في بغداد،

يغادر بعدها الى سامراء..

وكان حمام زاجل قد ولي شطره صوب سامراء، ليكون قصر الخلافة

على علم بآخر الأنباء..

سرعان ما استحال الرجل الذي وصل بغداد في الغروب الى موكب مهيب، فقد احتشد أهالي بغداد للاحتفاء خاصة الاحياء المتناثرة على الجانب الغربي من المدينة..

وشاهد الشيخ وقد جذبته الضجة فوق الجسر موكباً مهيباً واستطلع الأمر من الذين تجمهروا عند الرحبة في الجانب الشرقي فقال أحدهم وهو يتشوق الى القادم:

- لقد قدم ابن الرضا..

وكاد الأمر يكون عادياً لو لم يلمح القادم المدني العزيز متجهاً نحو قصر خزيمة.. هتف الشيخ في اعماقه:

- هذا تأويل رؤيائي قد جعلها ربي حقاً..

هذا فتى مبارك يحمل في صدره ميراث النبوات الغابرة.. كم يشبه أباه..

ان ذاكرته ما تزال تتألق بوجه الجواد الأسمر قبل عشرين سنة!

الجماهير الظائمة الى زمن الطهر والسلام تتدافع من أجل أن تمسّ الأكف سيّداً علوياً....

من أجل طهرك ايها السيد.. من أجل عينيك اللتين تفيضان أملاً وبراءة..

من أجل سلامتك المباركة.. من أجل مجدك يا بن الانبياء تستمر الحياة..

ليالي بغداد في أخريات تموز لها نكهة خاصة فقد تناثر الذين ينشدون

الهواء الندي والنسائم المنعشة على شطآن دجلة.. فيما كانت بعض القوارب

تمخر المياه المناسبة في سكينه وصمت..

وكانت بعض القصور تتدفق من نوافذها الأنوار.. واصوات موسيقية

طروب مفعمة بانغام غناء عذب تترقق في الأزقة والسكك خاصة الشمالية

حيث منازل التجار واصحاب النفوذ.. أما قصر خزيمة في ذلك المساء
الصيفي فقد شهد مناجاة الانسان الذي يرنو نحو السماء الى عوالم مليئة
بالنور والنجوم.. وانسابت كلمات طاهرة مباركة هي نجوى الانسان مع الاله
وحرسته منه اليه فهو المبدأ والنهاية والانطلاقة والغاية:

- «الهي! صل على محمد وآله..

وارحمني اذا انقطع من الدنيا أثري..

وامحى من المخلوقين ذكري..

وكنت في المنسين كمن قد نسي..

«الهي تاهت أوهام المتوهمين

وتلاشت أوصاف الواصفين

واضحلت أقاويل المبطلين

فأنت في المكان الذي لا يتناهى..

وسُمع وهو يأوي الى فراشه ويحدّق في النجوم في أنوارها السحيقة

يقول:

- «لا إله إلا هو الحي القيوم

وهو على كل شيء قدير

سبحان الله رب العالمين

وإله المرسلين..

وسبحان الله ربّ السماوات السبع وما فيهنّ..

وربّ الارض السبع وما فيهنّ..

وربّ العرش العظيم

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين..

ومع خيوط الفجر الأولى اتجهت القافلة الى الشمال الغربي مؤتية
شطرها الى مدينة سامرا متخذة من الساحل طريقاً الى عاصمة بني العباس
الجديدة..

(٢٦)

سامراء مدينة الاشباح.. مدينة يحكمها فرد واحد.. فرد لا يرى سوى
منافعه ومصالحه.. لا يرى غير نفسه.. ولاهدف له سوى اللهاث وراء غرائزه
المجنونة..

فهو السيد الأوحده المطاع الحاكم بلا رقيب أو حسيب، ولا يسأل عمّا
يفعل وأما الآخرون فهم العبيد.. عبيد يعيشوا من أجله.. الشعب كلّه يجب
أن يستحيل الى عبد ذليل يتضرع الى حاكمه من أجل ان يبقى حيّاً..

لا معنى للحريّة، ولا وجود للأحرار.. ولك الله يا علي ايها القادم من
بادية الحجاز على قدر.. كيف ستقضي العمر في هذه المدينة العجيبة؟!
اتجه القائد يحيى الى قصر وصيف التركي وأحاطه علماً بوصول علي
بن محمد.

تساءل التركي وهو يحدّق مليّاً في يحيى:

- هل شاهدت شيئاً مريباً؟

أجاب يحيى الذي لم ينس توصية اسحاق بن ابراهيم:

- كلاًّ لم أرَ منه إلاّ الجميل.. انه فتى مبارك.

قال وصيف متهدداً:

- يا يحيى! والله لئن سقطت منه شعرة لا يطالب بها سواك! وامتألت

نفس يحيى اجلالاً لهذا الفتى.. إن سرّاً عجيباً يكمن في نفسه.. لم يره

انسان إلا احبّه وهابه في الطريق رأى اشياء عجيبة لو أخبر بها أحد لأتهم بالجنون.

غادر يحيى المكان متجهاً الى قصر الخلافة.. من بعيد لاح آلاف العمال منهمكين في بناء قصر جديد.. ولكن ما ادهشه فيما بعد ان المحدثين ورواة الاخبار في اجتماع دائم مع المهندسين ثم سمع بعد ذلك أن الخليفة يرغب ببناء القصر وفق ما ورد من أخبار حول قصر سليمان النبي، وماحواه من ابهة وما بداخله من تماثيل ذهبية وكان يؤكد على العرش الملكي الذي سيتصدّره أسدان ذهبيان وستحفه تماثيل الطيور في طليعتها تمثال الهدهد.. وجد يحيى صعوبات جمة في لقاء الخليفة، ولم يستطع لقاءه الا قبيل الأصيل حيث اطلعه على تفاصيل طمأننته من ناحية «علي بن محمد».. وفوجيء يحيى بسؤال مباغت إذ قال له المتوكل:

- ماهي أوصافه؟

قال يحيى وقد تألقت مشاهد عديدة في ذاكرته:

- فتى اسمر.. شديد السمرة.. وسيع العينين.. عريض الصدر.. «قنى

الانف.. مليح الوجه..

قال بدناءة:

- قصير أليس كذلك؟

أجاب يحيى:

- انه ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير.. معتدل القامة.

- ما الذي أعجبك فيه خلال السفر.

- انه رفيق سفر طيب أحاديته تغسل الروح.. وهناك صفة تحببه الى الناس..

- ماهي؟!

- انه يتعطر دائماً.. فيحس الذي يجلس معه أنه جالس في حديقة ملامى بورود الربيع.

كف المتوكل عن المشي، ورمى بنفسه على سريره الذهبي ورأى يحيى ساقية الصفراوين..

أوماً بكفه الى القائد أن انصرف.. أحنى يحيى رأسه وتراجع الى الورااء.. تحرّكت في نفس المتوكل كوا من حقد كالسمّ اذ يموج في بطون الافاعي استدعى الحاجب سعيد بن صالح.. كان الخليفة يعرف أن في نفس حاجبة ميولاً شيعية فأراد أن يحطم ذلك باذلال الرمز قال له:

- لقد وصل علي بن محمد..

- أجل يا سيدي سمعت بذلك.

- سمعت من أين؟!

- في هذه المدينة تنتشر الاخبار بسرعة يا سيدي.

- ليقض ليلة في خان الصعاليك.. استقبله غداً في الصباح..

انحنى الحاجب الذي غادر منظوياً على ألم عميق..

عندما رآه سعيد كان يتوضأ للصلاة.. الشمس تغرق في الغروب الدامي

وبدا الأفق حزيناً كجراح الانبياء..

قال سعيد مواسياً بعد أن أخبره بأمر الخليفة:

- فداؤك روحي، انهم يريدون إطفاء نورك.. والتقصير بك.. حتى انزلوك
 هذا الخان الأشنع.. خان الصعاليك..
 ابتسم الفتى قال وهو يغمره بالحنان:
 - انظر الى الأفق البعيد.. ماذا ترى؟
 - أرى افقاً دائماً ملتهباً متوقداً كالجراح..
 قال الفتى:

- انظر ابعده من ذلك.. حدق جيداً وتأمل ما وراء الأفق..
 - لا استطيع يا سيدي.. لا استطيع.

قال الفتى:

- انك لا تريد ولو أردت لرأيت.. انني أرى عالماً يغمره السلام.. عالماً
 أخضر يرفل بالسكينة والجلال.. عالماً مغموراً بالجمال.. هناك لحظات
 تنكشف فيها ستائر الزمن السوداء.. وعندها تبدو للعيان عوالم مستورة
 بالغيب..

ما الذي جعل اصحاب الحسين يقاتلون يندفعون كالعاصفة الى قلب
 الموت؟! لأنهم رأوا فيه ينبوع الخلود.. وعندما نظروا ما وراء غابات الرماح
 والسيوف رأوا جنّات من نخيل واعناب.. تتدفق خلالها الانهار..

158 في عاشوراء تفتحت أبواب السماء ورأوا عالم الحقيقة المطلقة.. ولذا
 منحوا اجسادهم تمزّقها السيوف..

وبكى سعيد هملت عيناه دموعاً من أجل الحسين:
 - آه ليتني كنت مع الحسين.

- انك معه يا سعيد.. والذين يعشقون الحسين سيكونوا في قافلة الحسين..
انظر يا سعيد الى ما وراء الأفق الدامي البعيد..
ورأى سعيد تلالاً من نور وجنائن معلقة مغمورة بالسلام.. تزخر بالحياة..
كل شيء أخضر.. بلون الربيع..
ورأى سعيد في ذلك الغروب الحزين مالا عين رأت ولا أذن سمعت
ولم يخطر على
قلب بشر.
وأدرك سعيد أن علياً ينظر الى المديات البعيدة.. الى المديات التي
يتطلع اليها الأنبياء..

(٢٧)

الذين يعرفون خلفيات الصراع بين البيتین العباسي والعلوي.. الحکام والمعارضین.. الذين يعيشون في القصور والذين ينبض حبهم في قلوب الفقراء.. يعرفون ان الفتى الذي دخل سامراء على قدر ليس شخصاً عادياً أنه زعيم البيت العلوي بكل ما يحمله ذلك البيت الرفيع من زخم تاريخي.. انه من سلالة علي بن أبي طالب..

شمس تموز الأخيرة تطلّ من نافذة المسجد الجامع في قلب المدينة، وكان الفتى الذي أدى فريضة الفجر، قد فضل المكوث قريباً من نافذة مشرعة.. وقد هبت نسائم فجر نديّة تحمل معها عبير مياه النهر.. وكانت باحة المسجد مفعمة بعبير المياه المتدفقة من نافورة_ تستمد مياهها من دجلة.. وعندما غادر المسجد كانت الحياة قد دبّت في المدينة التي تبدو كمعسكر كبير! بسبب حركة الخيول وكثرة الفرسان الاثراك الذين يفضلون امتطاء سهوات جيادهم والهباب ظهورها بالسياط! ولم يكن عجيباً أن يطلق اسم «العسكر» على هذه المدينة التي ولدت قبل عقد ونصف من السنين.

وبالرغم من ذلك فقد بدا على الفتى الاسمر أنه قد أحبّها من أعماقه..

لقد جاءها مجبراً.. ولكنه لن يغادرها الاً مجبراً.

الفتى الاسمر الذي اجتمعت في نفسه كل صفات الانسان يسير في طريقه الى ملك طاغية لا يرى سوى نفسه.. ان التاريخ على موعد مع لقاء عجيب بين الانسان الحرّ والطاغية.. بين انسان يحب كل البشر وبين مخلوق

لا يهتم إلا بمنافعه الشخصية ولذائذه الهابطة.. بين انسان يرى في الكرامة شرف الانسان وبين حاكم يرى مجده في الثروة والتسلط..

لك الله يا علي..

تعمد المتوكل ذلك الصباح استقبال علي بالمزيد من مشاهد الابهة فقد اصطف الحرس على طول المدرجات العريضة الى بوابة القصر الداخلية.. وكان الفتى الاسمر يرتقي الدرجات واثقاً غير مكترث بهذه المظاهر التافهة..

وقف عملاقان يؤديان التحية على جانبي الباب الكبير المصنوعة من اشجار الجوز،

وفي الرواق المؤدي الى البهو الواسع أزاح الخدم ستائر مخملية.. وباتت الطريق مفتوحة الى البلاط الملكي، حيث يرتفع سرير ذهبي يقذف الهيبة في قلوب الضعفاء..

من المؤكد أن المتوكل لن يحب هذا القادم الاسمر بطوله الفارع وهيئته العربية وسمرته المحببة وخطاه الواثقة أنه رجل ذو كرامة.. ومن عادة الطاغية النفور من هؤلاء.. انه بطبيعته لن يحب الرجل الشريف ذا الروح العالية.. ولا يحب صاحب الشخصية المستقلة.. لأن الطاغية يدعي في

قرارة نفسه الوضيعة احتكار هذه الصفات الحميدة.. وبهذا يرى في الاحرار ذوي الكرامة والشخصية مزاحمين له في الجلال والسيادة.. ان وجود الانسان الحرّ في نظر الطاغية يعدّ في حدّ ذاته اعتداءً على سلطته! من أجل هذا يختار الطاغية الفاسدين من البشر ليكونوا له اصدقاء فهم عبيد التملق والنفاق..

والطاغية يسكره التملق ويتشي من كلمات النفاق.. ومن أجل هذا يفضلهم على غيرهم من الشرفاء فترى موائده تعج بالمنافقين الأغبياء والحمقى المتملقين.. أما الأحرار فهم محاصرون أو مطاردون أو في اعماق المعتقلات والسجون!

كان المتوكل على سريريه وكان يتصور أنه سيلتقي فتىً حجازياً قد بهرته المدينة الجديدة بقصورها أو أربعه الحرس الغلاظ.. أو خطفت بصره فسيفساء القصر وبريق تماثيله الذهبية!!

فاذا بالعينين النجلاوين كانتا تسبران أعماقه، وقد وجد نفسه يقفز من سريريه الذهبي ليعاتق القادم ويقوده الى حيث كان يجلس.. ولكن كل هواجس الشك والتوجس من هذا الشاب الاسمر قد ايقظت مخاوفه.. أنه لا يثق بأي انسان فكيف بهذا الفتى الذي يعتقد الألوف من البشر بامامته..

ماذا لو دعى اتباعه الى الثورة المسلحة.. ولكن التقارير كلها تؤكد أنه ليست له مساع في الثورة، أو الخروج على سلطة الخليفة..

قال المتوكل وقد أراد أن يسبر ما في اعماق الفتى الذي يصغره بعشرة أعوام:

- ما يقول أبناء علي في العباس؟!

قال الفتى وهو يدفعه باتجاه الخير:

- ماذا تريدكم يقولون في رجل أمر الله الناس باطاعة أولاده، وينتظر من

أولاده أن يطيعوا الله؟!

ابتهج المتوكل للجواب وإن جاء في صيغة سؤال استنكاري فيه حث على طاعة الله.. ولكنه على كل حال جواب مطمئن.. ان عينيه تتألقان صدقاً..

- ستقيم في «سر من رأى».. اعرف أنك امضيت ليلة في ذلك الخان البائس.. سوف تستلم مبلغاً يساعدك على شراء دار جديدة..

ابتسم الفتى في ودّ ونهض يغادر القصر.. فشيعة الخليفة بنفسه، وقفز خادمان يرفعان الستائر أمامه.. ومن فوق المدرجات العالية القي الفتى الاسمر نظرة مفعمة بالأمل على الافق البعيد.. يستطيع الطغاة أن يفعلوا أشياء كثيرة ولكن هل يستطيعون وقف المياه في دجلة.. أو منع الشمس من الشروق.. أو القمر من التألق في السموات.

وهل بإمكانهم منع الايمان أن يتلألأ في القلوب المضيئة!؟

الطغاة عاصفة مجنونة.. عاصفة هوجاء ربما تطيح ببعض الاشجار التي لم تضرب بجذورها الارض.. ولكنها لن تستطيع أن تمس ورد البنفسج الهاديء المختبىء في مكان من سرّة الأرض يبعث بشذاه ولا أحد يراه..

لم يطل بحث الفتى عن منزل مناسب فقد عثر على ضالّته في الشارع الكبير المؤدي الى المسجد الجامع انه منزل «دليل بن يعقوب» المهندس النصراني المشهور_ بيت فسيح فيه حديقة خلفية..

وفي باحة البيت يوجد مدخل مزوّد بسلاالم تؤدي الى سرداب كبير يتوسطه حوض.. يستمد مياهه من قناة جوفية تجلب المياه من دجلة وهناك سدّاد يتحكم في تدفق الماء الذي يؤدي فيما بعد الى الحديقة..

لقد دعا الله أن يرزقه منزلاً طيباً وهاهو يعثر عليه في نفس اليوم.. كثيرون
غبطوا الفتى على منزله الجديد وكثيرون أيضاً حسدوه!
وهكذا انتقل الامام مع أفراد عائلته الى المنزل الجديد الذي يقع على
الشارع الرئيسي في المدينة في ما يعرف بدرب الحصا.. سيكون هذا المنزل
مأوى الفقراء وواحة وسط الصحراء.. صحراء الحياة..
سوف يستحيل السرداب الى صومعة في الليالي وسيكون له شأن في
مستقبل الايام.. والأيام حبلى بالحوادث.. من يدري؟!
وربما تندثر المدينة.. ستستحيل الى اطلال ولكن المنائر والقباب سوف
تشق في هذه البقعة التراب.. وتمتد الى الفضاء تعانق زرقة السماء.. وسوف
تطوف حولها حمائم بيضاء.. هنا يكمن سرّ الانسان الذي عرف زيف الزمن
واكتشف نبع الخلود!
ولكن ذلك يتطلب صبراً عجبياً واستقامة على الطريق.. طريق محمد
وعلي والحسين!

(٢٨)

نحن الآن في شتاء سنة ٢٣٣هـ ورياح شباط من سنة ٨٤٨م تفتح
الوجوه وقد زاد من قساوتها الجفاف الذي ضرب أطنابه منذ شهور..
وكان هذا العام عاماً مشؤوماً.. فقد ضربت الزلازل الشام في أنطاكيا
ودمشق وسقطت منارة الجامع الأموي وشرفاته وتصدع محرابه.. ولقي
الكثيرون حتفهم تحت الانقاض..

كما اجتاحت السيول الموصل وغرق آلاف السكان.. فيما كانت رياح
السموم تنفخ الوجوه في اقليم الحجاز..

أما سامراء فقد ضربها زلزال من نوع آخر إذ قاد المتوكل عملية قلب
لنظام الحكم فقد أطاح أولاً بالمذهب المعتزلي الذي أصبح مطارداً بعد أن
كانت له السيادة، كما قام الخليفة بتكريم احمد بن حنبل الذي ظل في
سامراء شهرين ليعود الى بغداد بعدها ويصبح مستشاراً للخليفة..

وامتلأت السجون برجال العهد البائد اضيف اليهم بعض الشخصيات
المتعاطفة مع أهل البيت (عليهم السلام)..

وفيما كانت الزلازل تهز بلاد الشام والسيول تجتاح شمال العراق والناس
يموتون تحت الأنقاض ويغرقون في المياه.. كان الخليفة الذي بلغ من العمر
ثمانية وعشرين سنة يقضي ليليه الحمراء بين اصدقائه من المهرجيين
والتملقين والتافهين..

بلاط المتوكل يعجّ بهؤلاء وكان «عبادة المخنث» يقوم بحركات بهلوانية والمتوكل يضحك.. المخنث يعرف كيف يدخل الى قلب الخليفة.. وضع تحت ثوبه مخدّة وشدها الى بطنه ورمى بقلنسوته فبدت صلغته.. راح يؤدي رقصات مضحكة.. فيما راح الخليفة يقهقه.. ثم قام بحركة جعلت الخليفة يقفز ضاحكاً.. المخنث المنحط يصيح:

- أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين!

وأدرك الجميع أن المتوكل يحقد على علي بن أبي طالب حتى أكثر من عدوّه اللدود معاوية.

رمى المتوكل بصرة مليئة بالذهب فتلقفها المخنث وعيناه تبرقان دناءة.. وفي هذه اللحظة.. انبرى شاعر انتهازي ليهتف:

كانت خلافة جعفر كنبوة جاءت بلا طلب ولا بتنحل

وهب الاله له الخلافة مثلما وهب النبوة للنبي المرسل

وانتشى الخليفة لقد بدأ زمن الطغيان وتأليه الطاغية..

صاح الخليفة:

- اعطوه خمسين الف درهم!

وقفز شاعر آخر اكتشف طريق المجد.. انه يمرّ من فوق مجد الأحرار..

166 وهل هناك أفضل من الهجوم على السيدة الزهراء وابنائها؟ وعلي بن أبي

طالب ومجده؟ الكلمات المنتفخة بكل قذارات الدنيا تخرج من فم مليء بالصيد:

ملك الخليفة جعفر للدين والدينا سلامة

لكم تراث محمد وبعد لكم تنفى الظلامة

يرجـو التـراث بنـو البنات ومالهم فيها قلامـة
والصـهر لـيس بـوارث والبنـت لا تـرث الامامـة
مـا للذـين تنحـلوا ميراثكم إلا الندامـة
وهتف الخليفة:

- انثروا عليه عشرة آلاف درهم.. وهذه لا تكفي أبداً اجعلوه حاكماً
على البحرين واليمامة.

نظر علي بن الجهم بحقد الى منافسه مروان وهمس في أذن الخليفة:

- انك لم تعطني شيئاً..

قال المتوكل هازئاً:

- لأنك لم تهاجم الرفضة..

استأنف المخنث حركاته المضحكة، وراح الخليفة يحتسي المزيد من
كؤوس الخمرة.. عندما تقدّم «ايتاخ» ليهمس في أذن الخليفة بخبر طارىء..
سيطر الوجوم قليلاً على وجه المتوكل.. وما لبث أن عاد الى مرحة.. ان
هرب أحد القادة_ لن يشكل خطراً.. واليوم خمر وغداً أمر..
ورفع المتوكل كأساً بلورياً جديداً، ولوّح به أمام أصدقائه معلناً استئناف
المرح..

أجلس الخليفة ايتاخ الى جانبه.. ايتاخ الرجل الدموي الذي يسيطر على
البلاط.. في يديه الغليظتين قيادة الجيش والحرس الخاص.. من مغاربة
وأتراك ومسؤولية البريد الملكي والحجابه وشؤون القصر وفي قلبه الذي
يشبه كتلة من الرصاص اسرار كثير من الذين لقوا حتفهم على يديه..

باستطاعته أن يهدم القصور على ساكنيها.. إشارة واحدة للحرس
تجعلهم ينقضون على أي هدف يحدده..

وجهه القاسي ونظراته التي يرسلها.. أشاعت رهبة لدى الحاضرين..
وشعر المتوكل بعقدة الحقارة وبموجة من الحقد تتجه الى هذا العملاق
الذي يجلس الى جانبه.. كم يبدو تافهاً في نظر الآخرين.. نهض البحري
لينقذ الموقف ويبيدي مواهبه الشاعرية: منشدًا:

- عن أي ثغر تبسم وبأي طرف تحتلم..

نظر الى الحاضرين ولكن احداً لم يتفاعل مع شعره.. فشعر بالحزن
ولكنه راح يهزّ رأسه ويتراجع الى الوراء متفاعلاً مع الشعر ويرفع يديه
ملوحاً مغمضاً عينيه مكرراً ثم أردف:

- قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم..

الصمت ما يزال مهيمناً ولذا هتف:

- احسنتُ والله..

والتفت الى الحاضرين قائلاً:

- مالكم لا تقولون لي أحسنت.. هذا والله لا يحسن أحد أن يقول مثله!

ورمقه المتوكل باحتقار.. والتفت الى أحد المهرّجين لكي يسخر منه..

168 اندفع المهرّج مقلداً حركات الشاعر البحري:

من أي سلح تلتقم وبأي كف تلتطم

يا بن الثقيلة والثقل على قلوب ذوي النعم

ارتد الشاعر الى الوراء وغادر المكان فيما طارده المهرّج وهو يصيح:

من أي ملح تلتقم وبأي كف تلتطم

يا بن الثقيلة والثقيل على قلوب ذوي النعم

فيما استغرق المتوكل في الضحك فوق سريره وتمعماً ضرب بقدمه
ايتاخ الذي نظر اليه واجماً.. راح المتوكل يعبّ كؤوس الخمرة،
التي لعبت برأسه وبدأت مكونات خفيّة.. تأخذ طريقها الى البروز.. تحت
وطأة السكر يتعرّى الانسان وتظهر كل نواياه.. ابتداءً أولاً يسب ويشتم.. شتم
الزيّات.. ثم عرّج على عمر بن فرج.. الذي لم يصله الدور بعد..
وعندما وقعت عيناه المتوهجتين على ايتاخ ضربه بقدمه.. وصاح بصوت
فيه سكر.

- ايها البغل ماذا تفعل؟.. أما زلت تجيد الطبخ يا ايتاخ؟ -

واطلق البعض ضحكات مكبوتة.. وفارت الدماء في رأس ايتاخ
الدموي..

وضع كفه الغليظة على سيفه وقد اجتاحتته رغبة في البطش بهذا
المخلوق التافه..

وحبس الجميع أنفاسهم أن كارثة قد تحصل في أية لحظة.. ان الخليفة
لا يدري ما يفعل ونهض ايتاخ وبأشارة واحدة اختفى المهرجون
والمختنون..

في عيني ايتاخ بريق من جرح كبرياؤه.. بريق ينذر بالخطر ودّ لو ينقضّ
على هذا المخلوق التافه الذي لا يهتم في الحياة سوى لذائذ هابطة..

وفي الصباح عندما أفاق المتوكل من غيبوبته وعرف ما حصل في
ساعات الليل.. كان أول شيء فعله أن انطلق نحو ايتاخ رجل سامراء القوي..
ان اصلاح الأمور في نفس اللحظة أفضل.. فأيتاخ يستطيع أن يحيل سامراء

الى خرائب.. هذا الرجل الدموي لا يتورع عن فعل أي شيء.. من أجل هذا خاطبه بلهجة متملّقة ذليلة:

- ايتاخ! أنت مثل أبي.. أنت رئيسي وأبي.. أنت رئيس دولتي.. ان السكران لا يدري ماذا يقول.. وفعلت الكلمات المتملّقة فعلها في الرجل الذي مات قلبه من كثرة ما حصد من الرؤوس.. لهذا أفلح نهائياً من التفكير بقتل المتوكل فهو على كل حال الحاكم الفعلي ورئيس الدولة.. أما المتوكل فلن يكون سوى أداة في يده..

من أجل هذا انحى للمتوكل معرباً عن ولائه له وعندما غادر المكان شيعه بنظرات حاقدة وقد اضمر في نفسه اغتياله_ وفي تلك اللحظات دخلت زوجته الباهرة الجمال.. الحسناء الساحرة التي اختفى اسمها الحقيقي ليكون اسمها «قيحة» لشدة حسنها.. دخلت ترتدي ثياب الغلمان وقد صفت شعرها بطريقة تشبه طريقة الغلمان ايضاً..

لقد اصبحت زوجته الرسمية الوحيدة بعد أن كانت مجرد جارية.. انها تعرف ميول سيدها ورغباته الشاذة.. من أجل هذا تمكنت من طرد زوجته «ريطة» وأن تأسره..

هاهي تتقدم نحوه وقد جاءت بمكر جديد.. كتبت على خدّها الأسيل

170 «جعفر» أما الحبر فقد كان من مسك مداف بزعفران..

لم تكتف بهذا بل أمرت إحدى جواريتها المغنيات أن تقف خلف الستائر الحيرية وتشدو بصوت عذب:

وكاتبة بالمسك في الخدّ جعفرًا بنفسي خط المسك من حيث أثرا
لئن أودعت سطرًا من المسك خدّها لقد أودعت قلبي من الحبّ أسطرا

آه أيتها الفاتنة اللعوب.. ما أجملك!! انني أهيم بك.. أعبدك..
وأخذ بيدها وغابا خلف الستائر المخملية في جناح الحرير..

الرياح القارسة الباردة، تولول في أزقة سامراء وشوارعها، والليل البهيم يلقي بكلاكه الثقيلة، حتى الذئاب كفت عن العواء وأضحت الشوارع مقفرة، كمدينة مهجورة، ما خلا اشباح تمرق في الظلام.. وما يزيد الرهبة ان تلك الاشباح لم تكن ملثمة بسبب البرد فهناك مهمات سرية جداً.. سامراء مدينة يحكمها الجواسيس..

وفي قلب هذا البرد الشديد يلحظ المرء منزلاً على الشارع الكبير في درب الحصا.. منزلاً مغموراً بالدفء والنور.. ولو أرهف الجواسيس اسماعهم لسمعوا لحناً سماوياً.. تنساب تلاوة دافئة مضخمة بالحزن، مفعمة بأسى شفيف.. ان هذا الواقف في محرابه في صمت الليل.. فتى علوي طوى من رحلة العمر عشرين سنة.. ينظر الى حواليه فيرى شريعة جدّه السمحاء غريبة.. منزوية في المساجد قد انحسر مدّها في اجهزة الدولة والأسواق والعلاقات الانسانية يرى مجتمعاً متفككاً.. يحكمه رعب وخوف.. ويرى أناساً يعبدون الطاغية من دون الله.. من أجل هذا يرفع بصره الى السماء الى نقطة ما هي محور الوجود.. الوجود كلّ فتأتي كلماته وثيقة ادائه لهذا

العصر المنحط:

- «يامن تفرّد بالربوبية، وتوحد بالوحدانية.. يا من أضاء باسمه النهار.. واشرقت به الانوار.. واطلم بأمره حندس الليل.. وهطل بغيثه وابل السيل.. يا من دعاه المضطرون فأجابهم.. ولجأ اليه الخائفون فأمنهم..»

بك اعتصمت.. من الذين ألدوا في اسمائك وأرصدوا بالمكارة
لاولياءك..

وأعانوا على قتل أنبيائك واصفيائك..
وكذبوا رسلك، وصدّوا عن آياتك..
وعبدوا طواغيتهم بدلاً منك..

أسألك اللهم باسمك الذي خشعت له السماوات والارض واحييت به
أموات الأشياء، وأمتّ به جميع الاحياء.. واتممت به الكلمات، وأريت به
كبرى الآيات..

أن تصلّي على محمد وآل محمد..

وأن تجعل شيعتي من الذين حملوا فصدقوا واستنطقوا فنطقوا.. آمين
مأمونين»..

واستحال المحراب في ذلك الليل البهيم الى ساقية تترقق بالآيات..
آيات السماء.. وتألقت سور القرآن صوراً ومشاهد ملوثة.. من سورة
الحديد.. سورة الحمد سورة ياسين.. سورة الرحمن..

وعندما يسلم الانسان قلبه الى السماء.. تضيء في أعماقه الآيات
الكبرى.. فيرى الوجود حركةً متوحّدة متناسقة تتجه الى غائية وهدف..

وعندما يختار الانسان بإرادته الاندماج في هذه الحركة.. الانصهار في بوتقة
الوجود.. عندها يرى الاشياء على حقيقتها بعيداً عن زيف الزمن.. لأن
الحقيقة تكمن دائماً خارج الزمن.. سوف يرى القصور المنيفة والقلاع
خرائب.. والمدن الآثمة أطلالاً، والطاغية مخلوقاً تافهاً، وشجرة بلا جذور ما
لها من قرار..

ومهما اشتد برد الشتاء مهما ولولت رياحه القارسة.. ومهما تضاعف هبوبها فان حركة الزمن تتجه نحو الدفء والربيع.. فليس هناك شتاء أبدي.. كما لا يبقى الصقيع الى مالانهاية..

والله وحده الربُّ محرِّك الوجود وبارئُه، منذ الأزل الى الابد..

«الهي تاهت أوهام المتوهمين.. وتلاشت أوصاف الواصفين.. فأنت في المكان الذي لا يتناهى.. يا أولي يا واحداني»..

أين النمرود في أرض بابل؟! وأين فراعنة الأرض؟! أين الطغات على مدار التاريخ؟

المجد وحده للانسان عندما يسجد لله.. المجد لمن يعبد الله وحده.. والحرية لمن لا يرى نفسه عبداً إلا لله.

ويستحيل المتوكل الى مخلوق ضئيل أكثر ضآلة من ذبابة أو بعوضة.. أنه لا يصبح مخيفاً الا في النفوس التي لم تذوق طعم العبودية لله.. والله العزّة ورسوله وللمؤمنين.

وعندما يتجه الانسان الى ربّه.. عندما يلتحم بحركة الوجود فإنه يستمدّ طاقات جبارة هي جذوة من القدرة المطلقة.. وقبس من الإرادة اللانهائية.. من أجل هذا كان علي بن محمد قوياً كالجبل.. طاهراً كقطرات الندى..

174 سخياً كالينابيع.. مهيباً كالعاصفة.. أخضر كالربيع.. شفافاً كالقمر والنجوم..

من أجل هذا كان المتوكل يخشاه.. يهابه.. يجد نفسه حقيراً ضئيلاً في حضرته!

الذين يرتعدون أمام الطاغية هم ضعيفو النفوس.. المنحطون التافهون الذين لا هم لهم سوى البطن وأسفله.. أما الاحرار الذين يتطلعون الى

ملكوت السماوات فقد تخلصوا من الأسر البشري.. انهم يرون حركة الوجود.. حركة التاريخ.. ويرون الاشياء على حقيقتها.. كل شيء بابعاده الحقيقية.. لقد انطلقوا من أسر قضبان الزمن الصدئة واكتشفوا سرّ الخلود..

اطلّ رمضان بوجهه الكريم وبدأت رحلة الانسان المؤمن الى الله.. رحلة الجوع والارادة التي لا يقهرها الشيطان.. ولكنّ الذين خضعوا للشيطان وسجدوا له لم يكثرثوا لرمضان.. ورمضان الكريم كنهز تنثال مياهه العذبة على الشطآن.. فتهب الظامئين الكوثر.. والحيارى ظلالاً وارفة..

في الصباح استيقظت سامراء على حدث آخر.. لقد اعتقل «عمر بن فرج»!!

الذين توقعوا نهاية الزيات السوداء توقعوا لعمر نفس ذلك المصير.. ولكن المتوكل الذي يحقد على هذا المخلوق انتهج اسلوباً آخر في معاملته.. سوف يدفع به الى الحضيض.. ولكن بعد أن يرفعه كثيراً.. ومن ثم يدفع به نحو الهاوية ليكون سقوطه مدوياً.. سوف يدفعه الى المزيد من الحقارة والتفاهة والانسحاق..

تحمل المتوكل منادته.. حضوره المستمر في البلاط وكان عمر بن فرج يظن أنه يلتقي مع الخليفة على صعيد هام! هو الحقد المشترك على علي وابناء علي.. ولقد أفاد المتوكل من هذا المخلوق كثيراً انه غافل عما يخطط له الآخرون.. هناك على أبواب القصور انتهازيون كثيرون ينتظرون دورهم في اختطاف لحوم البشر.. هناك الكثير من الذئاب التي لا ترحم.. وما أدمس هذا الصيد.. عمر بن فرج الذي مضت عليه أعوام وهو يكتنز الأموال في بغداد وسامراء والأهواز..

وأخيراً سقط الثور.. فتخطفته الانياب.. لقد سمن بما فيه الكفاية..
 وقع كل شيء بسرعة فقد حضر اسحاق بن ابراهيم حاكم بغداد وتسلمه
 شخصياً، حيث نقل الى بغداد وصدورت جميع أمواله المنقولة وغير
 المنقولة ووزعت مئة جارية على قصور الخلافة.. والقي في إحدى زنانات
 المطبق سجن بغداد الرهيب..

وجاء رجل يعدو الى منزل الامام يبشّره.. كم هو جميل منظر سقوط
 الطواغيت.. وكم هو عميق درس هذا السقوط؟.. قال الفتى العلوي لصاحبه:
 - أتدري كم كان يضايق أبي؟ كان يومها حاكماً على المدينة خاطبه
 أبي في شيء فقال له عمر: أظنك سكران..

تألم أبي بشدة لقد كان صائماً حينها.. سمعته يدعو عليه قائلاً: اللهم انك
 تعلم اني صائم.. اللهم أذقه ذل الأسر»..

الامام يستعد للذهاب الى قصر المتوكل كما تقضي المراسم في ذلك..
 احضر ياسر الخادم ثوباً جديداً.. كما احضر قدحاً مليئاً بالماء.. تلا الامام
 سورة القدر وسورة التوحيد وسورة الكافرون.. ونضح قطرات من الماء على
 الثوب الجديد.. وابتدأ بارتداء الثوب من اليمين.. وقال لياسر في ود:

- اخبرني أبي ان جدّي علي الرضا كان يفعل ذلك وقد قال: من فعل هذا

بثوبه من قبل أن يلبسه لم يزل في رغد من عيشه ما بقي منه سلك»..

واستوى علي فوق بغلته التي راحت تتقدم باتجاه السوق وعندما حاذى
 دكان «يونس النقاش» هبّ الرجل لتحيته، وردّ العلوي التحية مفعمة
 بابتسامة ومودة..

كان النقاش يستبشر خيراً كلما رأى هذا الفتى المبارك.. ولم يكن يصغي لشائعات كثيرة عن جواسيس يراقبون الفتى الحجازي.. وأن الخليفة يضمّر له الشرّ ويتحَيّن له الفرص.. فقد كان يزوره، ويقوم ببعض الخدمات تعبيراً عن حبه واحترامه..

عندما وصل السيد العلوي القصر كانت البوابة تكتظّ برجال فوق خيولهم وبغالهم ينتظرون الأذن بالدخول.. وعندما وصل الفتى لم يملكوا انفسهم من القفز من فوق دوابهم اجلاً لهيبته ووقاره ان له جلاً عجباً.. جلاً يدفع بالانسان الى الخضوع في حضرته.. حيّا الرجال الفتى العلوي واحنوا رؤوسهم، وقد ظهرت حالة من الخشوع في عيونهم.. حتى اذا اجتاز الامام البوابة الكبرى.. عادوا فامتطوا صهوات الخيول..

انبرى رجل عباسي حانقاً:

- لمن نترجل؟! لهذا الغلام؟! انه ليس بأشرفنا، ولا بأكبرنا سنّاً..

واستطرد محرّضاً بغیظ:

- والله لا نترجل له إذا خرج..

ردّ «أبو هاشم الجعفري» بثقة:

- والله لتترجلنّ له صغاراً وذلة!

لم يكد الفتى يقترب من الستائر المخملية للقصر، حتى هب الخدم لرفعها أمامه.. انهم يفعلون ذلك تطوعاً ويجدون في تصرفهم لذّة عجيبة.. هذا فتى نبيل تشع من وجهه أنوار روحانية وما زاد توّددهم له أنهم سمعوا بعد ذلك أنه من نسل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان دماء الرسول تجري في عروقه..

هبّ المتوكل للقائه، على الرغم منه.. قاده الى سريريه ليشاطره الجلوس.. وسيطرت على الجميع سكينه النفس الكبيره.. حتى «علي بن الجهم» ذلك الشاعر الذي لا يكتف أحقاداه على علي وأبناء علي استغرقتة حالة من الوجوم وقد كان سيّد الحديث قبل أن يصل علي ابن الرضا..
المتوكل يعرف عقدة الشاعر من علي_ لأنه ابن علي..
أراد المتوكل أن يكسر الصمت فقال لشاعره:
- من هو أشعر الناس.

راح ابن الجهم يعدّ شعراء في العصر الجاهلي وبعده.. ويستشهد ببعض الأبيات.. حتى ان المتوكل ضجر منه فالتفت الى ابن الرضا وسأله:
- ما رأيك يا أبا الحسن؟
قال الامام بإباء:
- الحماني حيث يقول:

لقد فاخرتنا من قريش عصابة
بمطّ خدود وامتداد أصابع
فلما تنازعنا المقال قضى لنا
عليهم بما نهوى نداء الصوامع
ترانا سكوتاً والشهيد بفضلنا
عليهم جهير الصوت في كل جامع
فإن رسول الله احمد جدنا
ونحن بنوه كالنجوم الطوالع
تساءل المتوكل:

- وما نداء الصوامع يا أبا الحسن؟!
قال الامام:

- اشهد ان لا إله الا الله واشهد ان محمد رسول الله.. جدّي أم جدك.

أجاب المتوكل:

- أجل جدك.. لاندفعك عنه -.

وعندما غادر الامام القصر. قفز الذين ينتظرون عند البوابة من خيولهم، وارتفعت هتافات تكبير وتهليل، ونهض الجالسون إجلالاً لهيبته تتمم «الجعفري» باعتزاز:

- «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» «الله اعلم حيث يجعل رسالته»!!

والتفت الى الذين أقسموا انهم لن يكثرثوا له قائلاً:

- أليس زعمتم انكم لا تترجلون له؟!

أجابوا منبهرين:

- والله ما ملكنا انفسنا حتى ترجلنا!

(٣٠)

الليل في سامراء بهيم.. والسماء بلا قمر خيمة كحلية تنبض فيها النجوم
كقلوب واهنة.. كل الاشياء اخلدت الى النوم وارتدت ثوب الغموض
والأسرار..

في الليل تنام الكائنات ترقد في سباتها، وتستيقظ الدسائس والمؤامرات
تستيقظ الغرائز المجنونة لتنتلق وتعربد، وكان المتوكل يحتفل بليلة حمراء
تذبح فيها الكرامة الانسانية على مذبح الشهوات الآثمة..

كان «ايتاخ» الرهيب يصدر تعليماته موجزة، قاسية ونافذة، عندما اقترب
منه أحد افراد الحاشية.. عيناه تبرقان بالمكر وعندما حيًا ايتاخ كان قد
ارتدى ثوب الناصحين فقال بدهاء:

- إنك تتعب نفسك ايها القائد..

- ماذا تعني؟!

- اعني ينبغي أن تخلد الى الراحة قليلاً..

- ان مسؤولياتي كثيرة.. كثيرة جداً..

- هذا صحيح.. ولقد بلغت المجد وحزت على ثقة الخلفاء.. ولكن هناك

ما ينبغي أن تقوم به لتبلغ ذروة مجدك..

هبت كل خلايا مخه:

- عمل!! أي عمل؟!

- أطلّ هلال ذو القعدة.. وآن لك أن تحج الى بيت الله الحرام.. الحج واجب، وأنت قائد مسلم، وعلى المسلم حج البيت إذا استطاع سبيلاً.. المسلمون لا يغفرون لأحد يتساهل في أداء الواجب.. أتذكرُ ما حلّ بالأفشين.. قتلوه وحرقوه.. لأن القاضي أشاع عليه أنه لم يختن.. لم يشفع له فتح عمورية ولا قضاؤه على ثورة بابك الخرمي..
بدا العملاق يصغي خاضعاً لكلمة حق أريد بها باطل.. حقاً أن عليه أن يحج الى مكة..

في اليوم التالي أعلن القائد إيتاخ رغبته في حج بيت الله الحرام وكان أكثر الناس
سعادة المتوكل الذي شعر بأن خطته قد نجحت، وأن إيتاخ قد سقط في بيت العنكبوت..

اتخذ المتوكل اجراءات عكست للكثير منزلة إيتاخ باعتباره الرجل الثاني في الدولة بل أقوى رجل.. فقد اتخذ البلاط الملكي قراراً بتنصيب القائد إيتاخ اميراً في كل بلدة يدخلها وأن أوامره هي النافذة فيها..
كما خصص له مبالغ طائلة للاتفاق وتغطية رحلة الحج له، ولثلاثمئة من رجاله الاشداء..

وشعر إيتاخ بأنه كان عليه أن يقوم بهذه الرحلة في وقت مبكر لقد تأخر كثيراً جداً وأحس بأنه مدين لذلك الرجل الذي قدّم له النصيحة ليلاً.. سوف يكافئه، وقد يوصي ولديه مظفر ومنصور بتعزيز مركزه في البلاط..

لم يكد ايتاخ يغادر سامراء وهو يتصدّر رجاله الاشداء حتى فرك المتوكل يديه وسارع الى تنصيب القائد «وصيف» حاجباً عاماً في قصر الخلافة_ ومنحه صلاحيات واسعة..

في مكة بدأت مناسك الحج الاكبر، وفي يوم التروية أوصى علي بن محمد أحد أصدقائه أن يشتري له غنماً كثيرة_ لتقدم قرابين لله في عيد الاضحى ويوزع لحمها على الفقراء خاصة العلويين الذين كانوا يواجهون مضايقات شديدة في تحصيل لقمة العيش..

انطوى موسم الحج وعاد الحجيج الى ديارهم.. وبدأ ايتاخ رحلة العودة باتجاه العراق..

أما المتوكل فقد أوعز الى اسحاق بن إبراهيم قائد شرطة بغداد بتنفيذ خطة للقبض عليه.. كما بعث بهدايا نفيسة الى الانبار لاستقبال القائد ايتاخ.. فرح ايتاخ بالهدايا الثمينة وفي الاثناء تسلّم رسالة من حاكم بغداد جاء فيها:

- «ان أمير المؤمنين يأمرك بزيارة بغداد والحلول في قصر خزيمة.. واستقبال الشخصيات الهاشمية وتوزيع بعض الجوائز..»

فسر ايتاخ ان المتوكل يبالي في اكرامه ليرفع من شأنه في الدولة والرأي

182 العام.. لهذا أعرب عن سروره في تنفيذ رغبة الخليفة.. فتحرك باتجاه بغداد

بعد أن عبر نهر الفرات..

أما اسحاق فقد شحن الجسر المؤدي الى قصر خزيمة بقوات الشرطة والجيش.. وانطلق الى الياسرية على تخوم بغداد لاستقبال القائد التركي

الكبير.

هيأت منصبةً لحاكم بغداد للاستراحة والانتظار، وسمع أحدهم يهتف
بوصول القائد التركي.. امتطى اسحاق صهوة جواده لاستقبال الموكب
القادم..

وبدا العملاق فوق حصانه مرتدياً قباءً أبيض متقلداً سيفاً بحمائل، واران
اسحاق الترجل مبالغة بالاحتفاء به فاقسم عليه القائد إلا يفعل.. وسارا على
فرسيهما جنباً إلى جنب..

كانت الخطة أن يجتاز ايتاخ الجسر نحو قصر خزيمة المطل على
دجلة.. أما حرسه المؤلف من ثلاثمئة شاب فإن الشرطة تتظاهر باستقبالهم
وقيادتهم الى اماكن استراحتهم وعندما وصل ايتاخ بوابة القصر لم يكن معه
سوى ثلاثة من رجاله.. ودخل ايتاخ القصر وأغلقت وراءه الأبواب باحكام
وعندما وجد نفسه وحيداً عض على أسنانه بغيظ..

- لقد فعلوها.. لقد كانت مؤامرة أذن.. آه لو أنني في سامراء لأحلتها الى
خرائب.. اشارة واحدة فقط تكفي لقطع رأس ذلك الخليفة الحقير..
أصدر قائد الشرطة العام بكسر جميع المدرجات خارج القصر.. كما
وضعت مفارز مسلحة على الأبواب المطلّة على نهر دجلة.. ان فراره الى
سامراء يعني نهايتهم جميعاً وفي منتصف الليل قدمت اليه وجبة من الطعام
تتألف من رغيف خبز وكوزاً من الماء..

وحلّق حمام زاجل من قصر اسحاق باتجاه سامراء، فاحتفل المتوكل
بنصره الجديد وأصدر أمره بالقاء القبض على ابني ايتاخ: المظفر والمنصور
وعلى كاتبه: سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصراني وارسالهم
مخفورين الى بغداد..

وكان المتوكل قد طلب نجدات عسكرية من خراسان تحسباً لردود الفعل.

قال المتوكل وهو يسلم المتهمين لاسحاق ويشير الى سليمان بن وهب: - هذا عدوي.. فحطّم عظامه.. لقد كان يحتقرني في أيام المعتصم، وكان يخاطبني كما لو يخاطب عبده.. ان كل ما يفعله ايتاخ فعن رأيه!
.. في بغداد ألقى المتهمين في سجن المطبق الرهيب وزجّ سليمان في مرحاض مظلم لا يعرف فيه الليل من النهار.

كما تم نقل ايتاخ من القصر في حرّاقة خاصة صعّدت به مياه دجلة الى قصر اسحاق حيث يوجد سجن خاص في سرداب مظلم..
وهكذا تمضي الايام، ويللم الشتاء أيامه الأخيرة، وبالرغم من كل ما حصل فقد كان هذا العام طيباً إذ اعلن رسمياً ايقاف الجدل حول مسألة «خلق القرآن» كما تم اطلاق المعتقلين بسببها من السجون..

كما تم انتهاء التمرد في أذربيجان بقيادة محمد بن البعث وسقطت قلعة «مرند» بأيدي قوّة القائد التركي «بغا» فسطع نجمه السياسي واصبح من رجال الدولة المتنفذين..

(٣١)

وصل أحمد بن حنبل سامراء واستقبل استقبالاً حافلاً في البلاط، اذ نهض المتوكل من سريره الملكي احتفاءً به وهو قلما يصنع ذلك، كما وصل أيضاً الأديب الجاحظ بعد أن اطلق سراحه من السجن في بغداد..

أجزل المتوكل في تقديم الجوائز للامام احمد بن حنبل ولكنه اعتذر عن استلامها فالبسه الخليفة حلّة فاخرة فاستحى ابن حنبل منه ولبسها وعندما وصل الى محل اقامته في سامراء خلعها بعنف وهو يبكي، وطوى فترة اقامته التي امتدت شهرين صائماً، يرفض تناول الطعام الذي يصله من مطبخ قصر الخلافة ولكن ولديه عبدالله وصالح كانا يستلمان الجوائز والهدايا التي تصله دون علمه..

وقبل أن يغادر سامراء عائداً الى بغداد استشاره المتوكل في انتخاب شخص يليق بسلطة القضاء في الدولة فأشار ابن حنبل عليه باستخدام يحيى بن اكرم..

أما الجاحظ الذي وصل سامراء بناءً على رغبة الخليفة في أن يتبنى تعليم أولاده فقد انتهت آماله لحظة وقعت عينا الخليفة عليه.. فقد بدا منظره بشعاً فاستلم جائزة البلاط وصُرف الى خارج القصر بعد دقائق قليلة..

وفي بغداد تمّت تصفية القائد التركي ايتاخ في السجن بأوامر شخصية من المتوكل.. على أن يتم تنفيذ الأمر في أيام معدودة أقصاها عشرة أيام..

فبدأت رحلة الجوع الرهيب.. لأنسان كان لا يتورع عن التهام خروف كامل
أمام ضحاياه.

ها هو الآن يسقط في براثن الوحش العباسي..

في الليالي كان ايتاخ يهذي بكلمات تركية.. ربما كان يقول ليتني بقيت
طباخاً في القصر.. ليتني لم اتطلع الى المجد.. الذهب.. الثراء.. النفوذ..
الحكم..

ليتني لم اقترح ابن الواثق للخلافة.. ليتني شاركت وصيف في رأيه..
ليتني قتلته في تلك الليلة اللعينة.. لقد كان في قبضتي ليتني لم اذهب الى
الحج.. لم اغادر سامراء..

وبعد أيام الجوع المدمر.. فوجيء بمائدة حافلة بالوان الطعام.. المالح
والحلو.. آه ما اشهى الطعام بعد الجوع.. وراح ايتاخ يلتهم اللحم وارغفة
الخبز والحلوى..

وكان السجانون يتلصصون عليه.. آه انه يحفر قبره بأسنانه!!
شعر بالظمأ_ طلب ماءً ولكن لا أحد يردّ.. دوّت صرخاته الرهيبة في
زنزانتة الصخرية القاسية للحظات اشتعلت ذاكرته.. بمشاهد العباس بن
المأمون تذكر صرخاته في «منبج» توسلاته من أجل قطرة ماء ولكن دون

186 جدوى..

لقد وقع في الفخ.. نظر الى المائدة فبدت له قبراً محفوراً.. يئن من البرد
ويضج من الدود..

آه لا أريد الموت واجتاحته هستريا الجنون وراح يسدد قبضاته
المجنونة للصخر وكانت صرخاته، ضرباته.. تتحطم تذوب في هذا السجن
الذي يشبه القبر..

وبعدها ساد صمت رهيب.. لقد سقط الرجل الذي كان جلاًداً ذات
يوم.. وهكذا مصير الجلادين..

كان المتوكل سعيداً بعد اجتماعه بوزيره الفتح بن خاقان الذي نقل اليه
تقارير وأخبار عن الرأي العام.. ان بغداد تشعر بالرضا بسبب سياسته
الجديدة ومناهضته للمعتزلة وتكريمه المحدثين والرواة خاصة بعد تكريم
البلاط لاحمد بن حنبل وردّ اعتباره وعودته الى الحياة العامة بعد عزلة
دامت اكثر من عشر سنوات، وان الخليفة قد نال لقب «محيي السنة».

ان الأمور تمضي على ما يرام ان فكرة «التفويض» التي روج لها المعتزلة
تنحسر وتراجع أما تيار «الجبر» الذي بدأ التأسيس له على قدم وساق، وقد
وجد الخليفة في ما خلفه الحكم الأموي من جهد فكري في هذا الطريق ما
يساعده على نشر فكرة الجبر الخطيرة ونشرها مما في صفوف الأمة..

ان الطاغية لا يحتاج شيئاً أبداً إذا آمن الناس بأنهم مجبرين على
أفعالهم، وأن كل ما يحدث هو قدر حتم ومصير لا يمكن الإفلات منه..
وعندها يستطيع أن يفعل الحاكم ما يشاء ولن يُسأل عمّا يفعل!

سوف تصبح إرادته وأوامره أرادة القضاء والقدر فالخروج على أوامره
وسياسته تمرّد على قضاء الله وقدره!

ولكن ما عكّر مزاجه قليلاً اخبار عن تردد بعض الشخصيات على منزل
علي بن محمد المعروف بابن الرضا..

تساءل المتوكل وقد لمح رقعة ملفوفة:

- ما هذا يا فتح؟

- هذه نسخة من رسالة جوابية بعث بها ابن الرضا الى بعض اصدقائه في الأهواز.

- رسالة جوابية؟!

- يبدو أن رسالة من الاهواز قد وصلته في سؤال حول القدر.

وراح المتوكل يتأمل ما ورد في الرسالة ولم يتحمل قراءتها.

- ماذا فيها؟!

- انه يهاجم الجبر والتفويض معاً..

قال المتوكل:

- لا استطيع قراءتها لكثرة ما ورد فيها من اسم علي بن أبي طالب لا

استطيع تحمّله.. وأردف بحقد:

- لا أكره في الدنيا مثل ما اكره علي.. اودّ لو انبشه من قبره فأحرقه!

والتفت الى رئيس وزرائه:

- والرسالة قد سمحت بإرسالها في البريد؟!

- أجل.. الرسالة تنفعنا في شيء على الأقلّ انها تقوّض أركان

188 «التفويض» الذي نحاربه الآن.. ولو عمدنا الى منعها فانها سترسل بطرق

أخرى.. انّ له اصدقاء يفتدونه بارواحهم.

- افعل ما تراه مناسباً.. ولكن شدّد المراقبة على منزله.. لقد سمعت بان

«أبا هاشم الجعفري» يتردّد عليه.

- انه رجل مسنّ كما تعلم ومنزله في بغداد.. يكفيننا أنه لا يستطيع الاقامة في سامراء وسوف يقعد به العجز عن المجيء الى هنا..
 - ان له جرأة وشجاعة وأنا أخشى أمثال هؤلاء.
 - لا تخش شيئاً يا سيدي كل شيء يمضي على ما يرام.
 ربت الخليفة على كتف وزيره العزيز وقال:
 - لا يفوتك الحضور في حفلتنا اليوم انني اتنبأ ببهجتها من الآن.
 - حسناً سأحضر في الوقت المناسب ولكن يتوجب علي تصريف بعض الشؤون!

كان الأصيل جميلاً ودجلة هادئاً تنساب فيه القوارب والشمس تقرض مآذنة المسجد الجامع.. تلك المآذنة الملوية العجيبة التي ولدت في ذهن المهندس المسلم.. ومن فوق التلال الصخرية المشرفة على المدينة يمكن للمرء أن يشاهد أجمل المناظر لهذه المدينة المنعشة النسائم، وأجمل ما فيها ذلك المسجد المهيب الذي تبلغ مساحته ٣٨/٠٠٠ متراً مربعاً انه اكبر جامع في العالم أما منارته فأنها تستحيل في المساء الى فانار مرفأ بحري حيث تتألق الانوار في جهات الأفق لانارة سبل القوافل القادمة ليلاً..

ولم يكن المتوكل ليكثرث في بناء المسجد الى عدد المؤمنين الذين يؤمونه للصلاة بقدر ما يشبع جنونه في حمى البناء.. بناء القصور والمنتجعات والى اظهار عظمته كحاكم كبير.. ولهذا أمر ببناء هذه المنارة الفريدة التي ترتفع الى اكثر من ١٩ متراً.. في بعض الليالي كان يعجبه صعود المنارة الملوية فكان يركب حماره المريسي..

المتوكل منفتح النفس في قصره المنيّف.. في حديقة القصر الخلفية.. حيث توجد «بركة السباع» وهي مسبح واسع مزود بنافورات تستمد مياهها من دجلة عبر قناة جوفية.. وإلى جانب البركة مغاور منحوتة في الصخور الكلسية حفرت لتكون عرائن للأسود الحبيسة.. وبركة السباع هذه تتصل بدهاليز وانفاق تحت الأرض تؤدي إلى سجن رهيب_ يشكل جزءاً من سرداب القصر..

قليلون جداً يعرفون وجود هذا السجن لأنه مخصص للشخصيات المغضوب عليها أو التي تشكل خطراً على الخليفة.. ولكن الذي يجلس على الدكة حيث مجلس الخليفة لا يشاهد في هذا المكان سوى حديقة غناء وحوض السباحة الجميل ولن يسمع سوى تغريد الطيور..

وكان المتوكل في ذروة نشوته في ذلك الأصيل فقد ابتكر أحد مهرّجيه لعبة جميلة.. إذا نصب في زاوية من الحديقة منجنيقاً حريباً قديماً من مخلفات عهد المعتصم.

المتوكل ينتظر مهرّجه الاثير عبادة المخنث، وجاء كعادته يضع تحت ثيابه مخدّة.. وجاء يتقلّب في مشيته.. وصوته الخليع يقول:

- قد اقبل الاصلع البطين خليفة المسلمين؟

المتوكل يقهقه بصفاقة، و ينتظر انقضاض مهرّجيه الآخرين عليه.. هبّت نسائم باردة.. فالشتاء لم يرحل بعد وإن بدا في آخر أيامه.

انقضّ الرجال على عبادة المخنث الذي لم يستطع الافلات وسيق إلى المنجنيق فوضع فيه، ثم قذف في الهواء ليستقط في المياه الباردة..

كان المتوكل في غاية النشوة.. يتسلّى باستغاثة عبادة الذي أشرف على الموت..

عندها أشار الى مهرج آخر يرتدي زي صيادي السمك فألقى شبابه على الضحية الأحمق وانتشله من الغرق والموت برداً..
وجيء به الى المتوكل الذي سأله متلذذاً.
- كيف حالك؟! -

قال عبادة وأسنانه تصطك من البرد:

- جئت من العالم الآخر.

هتف المتوكل ضاحكاً:

- إذن كيف حال أخي الواثق؟

قال المنخث وهو يدرك مدى حقه على أخيه:

- انني لم أمر بجهنم!

وكما تُرمى كسرة خبز للكلب.. رمى المتوكل اليه بصرة مملأى بالدراهم..

وراح المتوكل يدير عينيه في حاشيته فوقعتا على ابن العبرة الشاعر الأحمق فأشار الى رجاله..

أطلق الأحمق ساقيه للريح ولكن دون جدوى فقد امسكوا به ووضع في

المنجنيق وعندما قذف في الهواء صاح:

- الطريق.. الطريق.. جاءكم المنجنيق..

واثالت مياه البركة.. ورمى الصياد شبابه فانتشله وصيد كما تصاد

الاسماك..

وغابت الشمس وازدادت النسائم برودة ونهض الخليفة معلناً انتهاء
الحفل.. وفي رأسه تشتعل أحلام ليلة حمراء آثمة.

(٣٢)

أجرى الطبيب «يزداد» النصراني فحوصاته على الخليفة..

- كل شيء على ما يرام.. ولكني انصح بالافتصاد.

قال الطبيب بخضوع تام.. فهذه أول مرة يدخل فيها البلاط، وقد عرفه

استاذة بختيشوع..

ومن صندوق خشبي مصنوع من الأبنوس استخراج أدوات عمله كان

المتوكل ينظر اليه بانزعاج مكبوت وود أن يسأله عن دواء منشط..

كان «يزداد» يقوم بعمله بدقة تامة فقد سمع عن نزع الخليفة الكثير، فهو

لا يريد أن يسبب لنفسه المتاعب.. ولكن إجراء هذه العملية البسيطة كفيلة

بأن تجعله في ذروة الشهرة وستدرّ عليه أموالاً طائلة..

انهى الطبيب عمله وتمنى للخليفة العافية والصحة والسلام.. في الاثناء..

دخلت فتاة حسناء فاتنة كانت تتقدم بدلال وقد ارتدت ثياباً حريرية ملوثة

وشفافة لكانها حورية قدمت من الجنة.. ويبدو أنها قد نالت حظاً من التعليم

وثقافة العصر..

كانت الفتاة تحمل كأساً من الذهب الخالص ودناً من البلور الرائق مليء

بسائل وردي.. وأدرك المتوكل أن السائل من أعتق خمور «قطر بل» -

وأغلاها ثمناً.. وكان الطبق الفضي الذي استقر عليه الكأس عليه يحمل رقعة

فيها ثلاثة أبيات شعرية:

إذا خرج الإمام من الدواء وأعقب بالسلامة والشفاء
فليس له دواء غير شرب بهذا الجام من هذا الطلاء
وفضّ الخاتم المهدي إليه فهذا صالحٌ بعد الدواء

وابتسم المتوكل وهو يرى توقيع رئيس وزرائه: الفتح بن خاقان..
ونهض المتوكل وقد فارت الدماء في عروقه وأخذ بيد الفتاة الى جناح
الحريم وتوارى معها وراء الستائر المخملية..
وجاء ابن الخليفة_ لمقابلة أبيه قبل أن يذهب مع رفاقه الأتراك في
رحلة للصيد..

واعتذر وصيف للأمير بأن الخليفة قد افتصد توّاً وهو يرغب في
الاستراحة..

وانطلق الأمير المدلل ابن «قبيحة» تلك المرأة الساحرة التي سيطرت
تماماً على عقل الخليفة، وراحت تفكّر بتوسيع نفوذها باستخدام ابنها في
تحقيق المزيد من الثراء..

البراري خارج سامراء مدّ البصر، وانطلقت الخيول وكان أفراد الرحلة:
الأمير المدلل ابن الخليفة، ويونس ابن القائد التركي بغا والفضل بن العباس
ابن الخليفة المأمون.. أما الآخرون فموكب الأمير وحرّاسه..

194 كان الفضل يحاول وخلال الرحلة الممتعة استدراج الأمير الشاب الذي
لم ينبت الشعر في وجهه بعد يستدرجه الى دير «ماري» فهناك توجد لذائد
آئمة لا تتوفر إلا في الأديرة..

وعندما شعر الأمير بالظماً قال الفضل:

- يا أميرنا أعرف في ذلك الدير راهباً خفيف الروح.. وهناك آلات جميلة.. ماذا لو نميل إليه؟

قال الأمير المدلل:

- ولم لا هيا بنا..

وانطلقت الخيول الثلاثة تنهب المسافة الى الدير الذي يتوسط غابة من الكروم..

رحب الراهب بضيوفه خاصة الأمير الجميل وابن القائد التركي.. همس في أذن الفضل الذي عرف الشابين بأنهما من أبناء الجنود في سامراء.

قال الراهب:

- ماذا تقول؟! بل مفلتان من أزواج الحور.

ضحك المعترز فيما انصرف الراهب ليعود وهو يحمل بعض الشطائر..

همس المعترز في أذن الفضل:

- قل له بينك وبينه من تحب أن يكون معك من هذين؟

وعندما خلا به قال له:

- ما رأيك في هذين الغلامين؟

- ما رأيت أجمل منهما.

- فمن تحب منهما أن يكون معك.

قال الراهب بخبث:

- كلاهما...

وعندما سمع الأمير ضحك حتى مال على حائط الدير.

قال الفضل للراهب:

- ولكن يجب أن تختار احدهما!

راح الراهب يدقق في النظر فيهما ثم قال:

- الاختيار في هذا دمار.

فجأة ارتفع سهيل الخيول خارج الدير.. ودخل الجنود الدير فارتاع

الراهب.

قال الأمير:

- بحياتي استمر في حديثك..

وبعد ساعة من تبادل الأحاديث أمر الأمير بأن يُهدى للراهب خمسين

ألف درهم.

هتف الراهب:

- لن أقبلها إلا بشرط.

- ماهو شرطك؟

أن يلبي الأمير دعوتي مع من أحب.

وابتهج الأمير المدلل قائلاً:

- سألبي دعوتك متى تشاء.

غادر الطبيب القصر المنيف عائداً الى منزله مبتهجاً بما انجزه اليوم لقد

196 أصبح طبيب البلاط وسوف يجني من وراء ذلك ثراءً عريضاً..

وعندما انعطف في شارع درب الحصا، واجتاز قصر القائد التركي

«بغا».. وقعت عيناه على منظر بدا له عجباً.

رأى فتى اسمر اللون يرتدي ثياباً سوداء كالتى يرتديها رجال الدولة..

وقد استوى على سهوة حصان أدهم..

فغرفاه قال في نفسه:

- ثياب سوداء، ودابة سوداء ورجل اسود؟! سواد في سواد في سواد؟!
وصل الفارس العجيب، وتوقف ونظر الفتى الاسمر اليه نظرات حادة
وقال:

- قلبك أسود مما ترى عيناك من سواد في سواد في سواد!!

فوجيء «يزداد».. من يكون هذا الفتى الذي يصغي الى ما يموج في
اعماق الانسان؟!.. هل هناك من بني البشر من يعلم الغيب.. لقد سمع في
طفولته الكثير من القصص عن المسيح.. كيف كان يخبر اليهود عمّا
يدخرون في بيوتهم.. وهاهو الآن يقف وجهاً لوجه أمام فتى يقرأ صفحات
من الغيب الذي لا يطلع عليه البشر!!

واجتازه الفارس في طريقه.. ونسى «يزداد» أن يبارك نفسه برسم علامة
الصليب وانبعثت في اعماقه رغبة في أن يعرف المزيد عن هذا الفتى ودّ لو
يلحقه فيسأله ولكن، الفارس كان قد توارى بعيداً.. سوف يسأل عنه سيما
وأن رآه عندما خرج من منزله..

ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى حصل يزداد على معلومات مثيرة:
اسمه علي بن محمد.. اصله من الحجاز.. استقدمه المتوكل خوفاً من ثورة
قد يقوم بها ويطيح بحكم العباسيين..

(٣٣)

فوجيء درب الحصا حيث يقع منزل ابن الرضا علي بن محمد
بمجموعة من الرجال الاتراك المسلحين وبعض الزنوج الغلاظ يأخذون
اماكنهم.. وقد أبلغ أهل المنزل بالحصار المفروض.. لا خروج ولا دخول!!
كثيرون تساءلوا عن سرّ هذا الاجراء.. ترى ما الذي حصل لكي يحاصر
منزل هذا الفتى الحجازي؟!

في المسجد الجامع دارت أحاديث خاصّة مع الذين قدموا من بغداد..
هناك أخبار حول القاء القبض على نائر علوي يدعى يحيى بن عمر وهو من
ذرية زيد الشهيد..

قال رجل يبدو عليه الوقار:

- أنا رأيته بنفسه مقيداً بالأغلال، ورأيت عمر بن فرج ينهال عليه
بالمقرعة.. ضربه ثمانية عشرة ضربة وسيق الى سجن المطبق..

قال آخر بدهشة:

- أمره عجيب؟

- من تعني؟

- عمر بن فرج.. بالأمس كان يُضرب بعد أن صودرت أمواله وها هو
الآن يضرب ابناء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

قال الشيخ الذي نقل الخبر:

- أنت لا تعرف يحيى انه رجل صالح في وجهه نور الأولياء..

عجيب أمر الناس هذه الأيام.. كل من يريد المال والثراء تزلف للسلطان بسبب أولاد الأنبياء..

وأراد الرجل أن يقول شيئاً:

- سمعت أن...

وقطع كلامه بعد أن رأى أحد أزلام الفتح بن خاقان فغير كلامه قائلاً:

- سمعت أن امير المؤمنين سيحتفل بالبيعة لأولاده بولاية العهد؟

- نعم سمعت.. وسمعت أيضاً أنه سيأتي الى المسجد لإمامة الناس

وارتفع أذان الظهر يدعو المؤمنين للصلاة فتشكّلت صفوف الصلاة..

كان موكب الخليفة يخترق الشارع الرئيسي المؤدي الى المسجد.

وكان في الموكب رجل عباسي بدين نسي اسمه وبقي لقبه فهو معروف

بـ «هريسة».. تنضح الندالة من عينيه قال للخليفة وقد وصل الموكب منزل

علي بن محمد:

- انك تفعل أشياء عجيبة.. ما يعمل أحد بك اكثر مما تعمله بنفسك في

علي بن محمد.

- ماذا تعني؟!

- لا يبقى من الخدم في القصر والياً وشارك في خدمته.. حتى الستائر

ترتفع أمامه.. وتُفتح له الأبواب.. انه يعامل كأمر كبير!

قال المتوكل:

- وهل تظنني أمرتهم بذلك.. انهم يفعلون ذلك طواعية.

- الناس عندما يرون هذا الاستقبال يظنون ان الخليفة لم يفعل ذلك إلا

لأنه يرى استحقاقه للخلافة.

- وماذا تريدني أفعل؟

- دعه إذا جاء القصر يشيل الستر لنفسه ويمشي كما يمشي غيره.. وبهذا

سيشعر بالهوان!

قال المتوكل وهو يصوب نظرة حاقدة على المنزل:

- سأفعل ذلك.. لن يشيل الستر له أحد.

وأردف حائقاً:

- سأستدعيه بعد الظهر ونرى كيف يتصرف؟

انتبه الجميع الى صوت سنايك الخيل تمرق من شارع الخليج.. قال الفتح

بن خاقان دون مقدمة:

- انها خيول الأمير.. لقد عاد من رحلة الصيد..

وشعر الخليفة بالزهو.. انه يعلق آمالاً على ابنه الذي يشبهه تماماً..

وخرج طفل في الخامسة من عمره.. لفت نظر الحراس.. عيناه النجلاوان

تضيئان بالصفاء.. القى نظرة حوالية ثم مشى باتجاه أطفال في مثل سنّه كانوا

يلعبون، توقف قريباً منهم وراح يراقبهم بصمت وحزن.. لا أحد يدري سرّ

حزن هذا الطفل البريء.. عندما يغوص المرء في أعماق الحياة يشاهد

حقائق كثيرة مستورة وراء مظاهر براقّة خادعة..

هناك من يرى الزهور في الربيع فينتشي بهجة الحياة.. ولكن ألا تحمل

200

الزهور سرّ الذبول والاندثار؟!!

ألا تنطوي حركة الشمس في الشروق على حقيقة الغروب؟.. كل شيء

في هذا الوجود يتحرك باتجاه غائية ذات أهداف.. وعندما يعي الانسان

حركة العالم تنكشف له أسرار كثيرة وحقائق مستورة.

من أجل هذا كان يحيى بن زكريا الذي أوتي الحكمة صبياً يحزن وهو يراقب أمه عندما تشعل الموقد.. انها تشعل أولاً صغار العيدان لأن الحطب لا يشتعل إلا بنارها!

قال حارس رأى دموع الحزن تموج في عيني الصبي الاسمر:

- لماذا لا تشارك أترابك في اللعب.

واستدرك الرجل بعد أن رأى انه لا يحمل لعبة:

- أتريد أن اشترى لك لعبة تلعب بها؟

قال الصبي وهو ينظر الى الرجل:

- لا.

- لماذا؟!

- ما للعب خلقنا!

فوجيء الرجل بجواب لم يكن يتوقع سماعه أبداً فقال على الفور:

- فلماذا خلقنا إذن؟!

- للعلم والعبادة.

قال الرجل وقد ازدادت دهشته:

- من أين عرفت ذلك؟!

أجاب الصبي بخشوع:

- من قوله تعالى: (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً)؟

بهت الرجل وظلّ حائراً ينظر الى هذا الصبي الغارق في الحزن قال

بأسى:

- أنت ما تزال صغيراً بريئاً لا ذنب لك ما الذي حصل لكي تفكر هكذا؟!

قال الحسن الذي تشرب الحكمة صبياً:

- إليك عني، اني رأيت والدتي توقد النار بالحطب الكبار فلا تتقد إلا بالصغار.. إنني أخشى أن اكون من صغار حطب جهنم..

وأطرق الحارس الغليظ القلب.. كان يفكر في مصيره.. مشاهد من النار المجنونة تتراقص أمام عينيه.. ولم ينتبه الى نفسه إلا بعد أن سمع كافور الخادم ينادي على الصبي الذي عاد أدراجه وتوارى خلف باب المنزل..

وفي الأصيل كان الازدحام على باب القصر شديداً أناس من مختلف الاجناس البشرية تتحشد عند البوابة الكبرى تترقب أذناً في الدخول.. ومن خلال ما يرتديه القوم يكتشف المرء مستوياتهم المعاشية فهناك تجار كبار، وفقراء مدقعون تفضح الثياب فقرهم.. وهناك شبان جاءوا من اصقاع بعيدة لرفع شكاوى ضد حكاهم ولعل ما يلفت الانتباه ذلك الوفد الاصفهاني الذي يتصدره شاب جسور عيناه تشعان بالشجاعة والشهامة.. في الباب حدثت ضوضاء وجلبة للحرس وسمع القرييون لغطاً بسبب تنفيذ أمر الخليفة الذي صدر قبل دقائق..

وخرج موظف رسمي يعتذر للمحتشدين عن تأجيل مواعيد اللقاء..

تساءل الشاب الاصفهاني واسمه عبدالرحمن:

- ما الذي حصل يا ترى؟!

وأجاب رجل له معرفة بما يجري في هذه المدينة:

- الخليفة أمر باحضار علي بن محمد ابن الرضا.

- ومن يكون هذا الرجل؟!

- رجل علوي تقول الرافضة بإمامته!

ردّ رجل آخر من أهل المدينة:

- اتوقع أن يغادر القصر جثة هامدة!

قال شيخ اصفهاني لعبدالرحمن:

- هيّا بنا الى الخان لا فائدة من الوقوف والانتظار!

قال عبدالرحمن باصرار:

- لا أبرح حتى أنظر الى هذا الرجل.. أيّ رجل هو.

وفي الاثناء ظهر من مكان قريب شاب أسمر يمتطي جواداً أدهم وتطلع الناس اليه وقد انتظموا صفين.. كان علي ينظر الى نقطة واحدة.. توقع عبدالرحمن أنها قريبة من عرف الفرس.. الهدوء والطمأنينة يغمرانه.. لكأن ما يحدث في هذا العالم لا يعنيه.. لم يكثرث لكل هذه العيون التي تتطلع اليه ولا يبدو عليه أنه يواجه خطر القتل في قصر طاغية أرعن يسوس الأمور وفق هواجسه ومخاوفه.. مثل نبع بارد يتدفق ماءً زلالاً تدفق الحب في قلب عبدالرحمن - وشعر بالدهشة عن مصدر هذا الحبّ العجيب الذي ولد من أول نظرة.. هتف في اعماقه المتوجسة:

- يا رب ادفع عنه شرور المتوكل! احمه ياربّ.

وعندما حاذى الفارس العجيب رفع رأسه والقى نظرة على عبدالرحمن

وقال بمحبّة:

- استجاب الله دعائك وطوّل عمرك وكثّر مالك وولدك.

وغمرت عبدالرحمن حالة من القشعريرة افقدته توازنه، وشعر بان قدميه

تخذلانه.. فاستند الى أحد رفاقه الذي بادره:

- ماذا حصل لك يا عبدالرحمن!!؟

- أجاب مبهوراً:

- لا شيء.. لا شيء أبداً!

ترجّل علي بعد أن اجتاز البوابة، واتجه الى المدرج حيث يقف حراس غلاظ عند باب القصر الداخلية..

كانت هناك عينان تتلصصان فلقد أمر الخليفة إلاّ يبادر أحد لخدمة ابن الرضا.. ليرفع الستائر بنفسه ويفتح الأبواب.

كانت الأبواب مشرعة لفسح الطريق أمام نسائم الأصيل المنعشة لتدخل أروقة القصر. عندما وصل الشاب الأسمر الستائر المخملية حدث شيء عجيب هبّت نسمة قوية رفعت الستائر، وولج الرجل العلوي البهو.. كانت العينان المتلصصتان تراقبان بدهشة ما يجري.

جرى اللقاء وغادر علي البلاط باتجاه الستائر التي ما إن وصل إليها حتى ارتفعت واجتاز الامام يغمره نسيم الاصيل العليل.. كانت العينان المتلصصتان تسجلان تفاصيل دخول الرجل العلوي وخروجه..

ووصلت رقعة الى الخليفة فيها:

- «ان علي بن محمد دخل الدار فلم يُخدم ولم يَشِلْ أحد بين يديه سترًا هب هواء رفع الستر له فدخل... وإن هواءً خالف ذلك الهواء شال الستر له

204 حتى خرج».

قال المتوكل بحقد:

- «ليس نريد هواءً يشيل الستر.. شيلوا الستر بين يديه».

وابلغ الخدم والحرس في القصر بأمر الخليفة الذي الغى فيه أوامر سابقة.

الشاب العلوي يغادر القصر عائداً أدراجة الى منزله، وقد الغيت اجراءات الحصار ولكن الخليفة لم ينس أن يوعز بتكثيف المراقبة على منزله والتجسس على لقاءاته حتى في الطريق..

الجواسيس يطاردون عن بعد خطوات الأمام، والامام يجتاز الشارع المؤدي الى درب الحصا وقد بدت من بعيد المنارة الملوية كفنار يهدي السفن التائهة الى شاطئ الأمان..

اتجه الإمام نحو المسجد الجامع، وعندما أراد أن يعبر الشارع انبرى اليه رجل أبرص يلتمس البركة وقد جلس ينتظر في قارعة الطريق.. أشار الامام بيده قائلاً:

- تنحّ عافاك الله..

لكن الرجل لم يتوقف.. ولم ينتبه أيضاً للعيون التي تبرق بالندالة وهي تراقب تصرفات الامام الذي هتف مرة أخرى:

- تنحّ عافاك الله.. تنحّ عافاك الله..

توقف الرجل الأبرص ولم يجسر على الاقتراب وتقهقر الى الوراء كئيباً وراح ينظر الى الفتى المبارك نظرة من يفقد أمله الأخير وانتبه الى صوت جاره يخاطبه:

- هل كلمته؟

- لا لكنه أشار بيده قائلاً: تنحّ عافاك الله قال جاره:

- قد دعا لك قبل أن تسأله.. انك ستعافي.. انه رجل مبارك.. ومضى

الرجل الابرص وقد غمره الأمل بالشفاء.

(٣٤)

وصلت أخبار عن اشتعال ثورة مسيحية في مدينة حمص السورية وقد تم قمع الثورة بوحشية..

واتخذ المتوكل اجراءات قاسية في معاملة الرعايا المسيحيين في انحاء الدولة الاسلامية.

ومن حمص وصل ايضاً نبأ عن وفاة الشاعر الشيعي عبدالسلام بن رغبان الذي عرف بـ «ديك الجن»..

وفيما كان البلاط يستعد للاحتفال بعقد ولاية العهد للابناء الثلاثة وصلت أخبار من مدينة بغداد تفيد بتدهور صحة حاكم المدينة الذي

أرسي دعائم الحكم فيها بالحديد والنار.. ان اسحاق بن ابراهيم يحتضر وهو يعيش ساعاته الأخيرة.. تظاهر ابنه محمد الذي يعمل موظفاً في البلاط

بالحزن أما قلبه فيكاد يرقص فرحاً سوف تسقط مدينة السلام.. في يده مثل تفاحة ناضجة شهية.. آه بغداد مدينة الاساطير مدينة الجواري الحسان

واللدائد، وقطع سلسلة احلامه صوت جلبة في البلاط أن الأمير الزبير.. الذي سيغادر مع وفد من القادة الأتراك سامراء الى بغداد لعيادة حاكمها..

انضم محمد بن اسحاق الى أعضاء الوفد وقد كسى وجهه ملامح كاذبة من حزن مفتعل..

تركت زيارة الوفد لقصر الحاكم انطباعاً كاملاً بأن الرجل الذي حكم بغداد عشرين سنة ستراخي قبضته وسيصبح في عداد الاموات.. الليلة أو غداً في الصباح.

ولذا قفل راجعاً بعد أن زار القاضي المغضوب عليه يحيى بن اكنم، وقد كانت الزيارة من أجل الافادة من خدماته فهناك نوايا لطرد رئيس سلطة القضاء ابن ابي دؤاد بشكل رسمي بعد أن عزل عملياً من ممارسة نشاطه.

صادفت زيارة الوفد ظاهرة طبيعية أثارت فرع البغداديين فقد فوجيء السكان بلون مياه دجلة يستحيل الى الاصفرار واستمر ذلك الوضع ثلاثة أيام ثم انقلب فجأة الى ما يشبه لون ماء المدود.. وغادر الوفد بغداد التي كانت مضطربة بسبب الشائعات حول حاكم المدينة وقائد الشرطة.. وما اثارته مياه دجلة العجيبة من هواجس.. وأخبار عن هدم دور العلويين، وما يتعرض له يحيى بن عمر من تعذيب داخل السجن..

في سامراء بدأت الاستعدادات لعقد ولاية العهد، وانصرف «الصولي» كاتب البلاط الى صياغة عهد الولاية لكل من محمد ولقب بـ «المنتصر» والزبير ولقب بـ «المعتز» وابراهيم وقد لقب بـ «المؤيد» وقد قسمت الدولة الاسلامية الى ثلاثة مناطق للإدارة والحكم؛ ومالبث بريد بغداد أن وصل لينبئ عن وفاة حاكم بغداد العام، فتأجلت الاحتفالات يومين تم خلالها تنصيب خلفه محمد حاكماً عاماً لبغداد..

وفي ليلة الاحتفال ارتدت زوجة الخليفة اليونانية الاصل.. بدلة حريرية فائقة الجمال فبدت وكأنها «افروديت» ربة الحسن خرجت من البحر..

حاولت المستحيل أن تجعل ابنها المدلل الولي الأول للعهد بجميع رغباته الشاذة.. ولكن الخمرة كانت قد اطاحت بآخر ذرّة من وعيه ولم يعد يفهم ما تهذي به «افروديت» الساحرة..

اتصلت برئيس الوزراء الفتح بن خاقان حاولت إقناعه بكل وسيلة ولكن كيف يمكن تجاوز تقاليد الخلافة العباسية العريقة؟ كيف يمكن تجاوز الابن الأكبر.. ان محمد يكبر الزبير بأكثر من خمسة أعوام وقد اثبت رجاحة في العقل.. ومع ذلك فعلها الأتفقد الأمل.. ربّما يحدث شيء من يدري.. ربّما يصبح المعتز هو الأول..

بدأت الاحتفالات بعد صلاة الغروب، وكان القصر قد استحال الى صدفه تتدفق بضياء مئات القناديل.. بدأت مراسم عقد الولاية بجلوس الخليفة على سرير ذهبي مرصع بالجواهر الثمينة.. ثم حضر ولاة العهود المنتصر، المعتز والمؤيد وهم يرتدون بدلات سوداء اللون شعار الدولة الرسمي، وقد تألّقت فوق رؤوسهم تيجان الذهب، فاتخذوا أماكنهم وقوفاً قرب السرير الملكي..

كان البلاط يغص بالحاضرين من قادة الجيش والوزراء وكتّاب الديوان..

208 نهض ابراهيم الصولي ليقف قريباً من السرير المهيب ليقراً عهد الولاية..

توزيع المملكة على ولاة العهود فكان نصيب المنتصر إفريقيا، والمغرب، وللمعتز اقليم خراسان الثري وأذربيجان وأرمينية، وللمؤيد الشام والأردن وفلسطين..

وارتجل الكاتب البليغ شعراً في المناسبة:

اضحت عرى الاسلام وهي منوطة بالنصر والاعزاز والتأييد
 بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا بالخلافة من ولاة عهد
 قمر توالته حوله اقماره يكنفن مطلع سعده بسعود
 كنفتم الآباء واكتفت بهم فسعوا بأكرم انفس وجدود
 بعدها نهض المتوكل لتسليم ابنائه ألوية العهد والعمل في مناطق
 الحكم، فسلم المنتصر لواءين أسود وبيض، فالأسود هو لواء العهد
 والابيض هو لواء العمل في المناطق الخاضعة لحكمه!
 وتلا ذلك قيام المعتز بإعلان محمد بن اسحاق حاكماً على بغداد خلفاً
 لوالده الذي توفي قبل يومين، كما قلده سيفاً ثميناً.

بعدها بدأ توزيع الجوائز على رجال الدولة، وراح الخليفة بعد أن
 تبددت مسحة الحفل الرسمية يشرب أنخاب الاحتفال البهيج ويملاً كؤوس
 الخمرة لضيوفه..

كان خاقان واقفاً في زاوية من زوايا البلاط ولم يكن يشارك في شرب
 الانخاب.. كان يتورع فيما يبدو من شرب الخمرة واكتفى باظهار الابتهاج
 بما يجري..

وعندما رمقه المتوكل.. ملأ له كأساً وأمر رئيس وزرائه الفتح بن خاقان
 أن يقدمها الى ولده..

قال المتوكل: قل له لا يردّ هذا الشرف.. خليفة يملأ له الكأس ويخدمه
 وزير!

ابتسم خاقان متملقاً ورفع الكأس قائلاً:

-لم أكن اشربها من قبل.. أنني أشرب من أجل أمير المؤمنين.
وابتسم المتوكل انه لا يودّ رؤية انسان شريف..
يجب أن يتملّق له الجميع.. يجب أن يشربوا من دنان خمرته ويأكلوا
من فئات موائده.. ويصفقوا له دائماً.

ما يلفت النظر في الاحتفال حضور يحيى بن اكنم من بغداد، وقد
انتشرت شائعات عن احتمال تولية السلطة القضائية.. والذي أكد هذه
الأخبار غياب أحمد بن أبي دؤاد عن حضور حفلة تتويج ابناء الخليفة
كولادة للعهد، ولم يغير من الوضع حضور «محمد بن أحمد» رئيس محكمة
الاستئناف من قناعة الجميع باحتمال تولي ابن اكنم سلطة القضاء..

لم يحضر أيضاً «علي بن محمد» والاسباب معروفة أنه لا يحرص على
حضور حفلات القصر بشكل عام ولن يحضرها بسبب ما ترتكب فيها من
انتهاكات للاخلاق والشريعة..

وفيما كانت أصوات الغناء وضحكات المخنثين تصدح في فضاء القصر
المضيء.. كان هناك شاعر يقطن في بيت تملكه الدولة ويدفع بدل ذلك
ايجار، وقد أغلق على نفسه الدار لأنه لا يملك بدل الايجار فراح يشدو بألم:
يا رب لا فرج مما أكابده بسر من رأى على عسري واقتاري

210 لا راحة قبل وقت الموت تدركني فيستريح فؤاد غير جبار
الفقراء يئنون من الجوع والاحرار يعيشون مشرّدين مغضوب عليهم
لأنهم لا يركعون للطغاة.

(٣٥)

لم يكن المتوكل ليهتم بشيء اهتمامه بالأخبار؛ أخبار ما يجري في القصور وهي أخبار عليّة القوم والأخبار العامّة في المدن والحوضر.. ولذا كان جهاز الاستخبارات من أنشط أجهزة الدولة فأَيّ تحرك صغير أو كبير يجد صداه في قصر الخليفة؛ الذي كان يتابع شخصياً قراءة تقارير رجال استخباراته خاصّة التقارير القادمة من بغداد..

ثم يأتي اهتمامه الثاني بحفلات المجون التي يخطط لها الطاغية شخصياً وينتخب حتى المطربات..

في ذلك اليوم البارد من شباط سنة ٢٣٦هـ ٨٥١م ورد تقرير من استخبارات مصر يفيد:

ان الوالي يزيد بن عبدالله ضرب جندياً لمخالفته.. فاقسم الجندي عليه بالحسن والحسين أن يعفو عنه فزاده الوالي ثلاثين جلدة..

أمر المتوكل الذي كان يستمع الى التقرير أن تضاف الى عقوبة الجندي مئة سوط أخرى وأن يرسل الى سامراء مخفورا..

تملّم الخليفة في جلسته ونظر الى رئيس وزرائه ومسؤول الاستخبارات العامّة، ادرك الفتح بن خاقان أن الخليفة يتوق الى الحديث عن حفلة المسائية.. فأطبق السجل وقال للخليفة المسترخي فوق السرير الملكي:

-والآن يا سيدي حان وقت المرح.

قال المتوكل:

- لقد اشتقت الى الغناء.. تركنا زمام الزامر_ بلا غناء.

واستطرد:

- ارسل الى بغداد من يخبر «عنان» أن ترسل لنا مغنية حسناء الوجه

والنغم..

قال الفتح:

- حسناً يا سيدي.. وهل ننتظر ريشما تصل؟

- كلاً سوف يسلينا عبادة في حر كاته.. وأبو العنيس في حكاياته.

القي المساء بكلاكله فوق سامراء، وقد افقرت المدينة من العابرين ولم

يعد أحد يسمح سوى ولولة رياح شباط وهي تجوس خلال الشوارع

والأرقة.. وقد يسمع في بعض الاحيان سنابك خيول الدوريات تدك شوارع

المدينة المبلطة بالحصا والصخور الكلسية.

قال الخليفة مخاطباً أبا العنيس بعد أن عبّ أول كأس من خمرة معتقة:

- ايش حكاية حمارك ووفاته حدثني!

تحفز أبو العنيس وقد برقت عيناه:

- نعم يا أمير المؤمنين.. كان حماري اعقل من القاضي..

واستطرد في حكايته مع قهقهة المتوكل:

- ولم تكن زلّة فاعتل فجأة ومات.. فرأيته في المنام فقلت له: يا حماري

العزيز كنت اسقيك الماء البارد واطعمك الشعير الجيد فلم مت على غفلة

وما الذي جرى عليك؟

- فماذا قال الحمار؟

- قال لي: اتذكر يوم ذهبت الى فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا؟
 فقد مرّت بي «حمارة» حسناء (المتوكل يضحك بخلاعة) فعشقتها من أول
 نظرة واشتد بي الهيام فمت كمدماً متأسفاً..
 قلت له: يا حماري العاشق فهل قلت في ذلك شعراً؟
 قال لي: نعم وانشدني:

هام قلبي بأتان عند باب الصيدلاني
 تيمنتي يوم رحنا بثناياها الحسان
 وبخد ذي دلال مثل خد الشيفران
 فبها مت ولو عشت اذاً طال هواني

قلت له: يا حماري الشاعر فما الشيفران؟ قال: هذا من غريب الحمير.
 وانتشى المتوكل طرباً وأمر شلّته أن يغنوا جميعاً بشعر الحمار.. ورمى
 الى ابي العنيس صراراً مليئةً بمسكوكات ذهبية_.

وفي الأثناء وقد مرّ شطر من الليل وصلت المغنية الحسناء التي بدا عليها
 تعب السفر خاطبها المتوكل بقسوة:

- أين كنتم كل هذا الوقت؟!

قالت الحسناء:

- ان مولاتي قد خرجت الى الحج واخرجتنا معها.

- الحج؟! وهل الحج في شعبان؟

قالت الجارية:

- كان حجنا الى قبر الحسين_.

طوح المتوكل بكأسه البلوري الذي تهشم فوق سجادة أذربيجانية نفيسه
وصرخ بعد أن قفز من فوق سريره:

- الحسين!.. الحسين! لقد اندثر الحسين منذ قرن ونصف.. ومن يكون
الحسين؟!

خيم صمت مخيف.. واستحال المهرجون الى فئران مذعورة.. المتوكل
يتحول الى وحش يصعب التكهن بما سيفعله.. فكر عبادة المخنث أن يقوم
بحركة تعيد الى السهرة مرحها السابق شدّ مخدّته تحت ثوبه النسائي.. ونزع
عمامته الملفوفة بطريقة مضحكة.. وراح يتمرّص وسط الصمت المطبق
هاتفاً:

- قد أقبل الأصلع البطين.. خليفة المسلمين.

وانطلق المهرجون جميعاً يصدحون بالغناء بهذا الشعر المنحط.. انطلقت

اسارير المتوكل الذي صبّ لنفسه كأساً أخرى وراح يعبّها نشواناً..

المخنث يرقص ويغني ويمسح على بطنه فجأة توقف الغناء..

لقد وصل الأمير المنتصر الذي أوماً الى المخنث أن يلتزم الأدب..

دهش المتوكل لما حصل والتفت الى المخنث:

- ما حالك؟ لماذا كففت عن الغناء؟

اقترب من الخليفة السكران وهمس في أذنه عن تهديدات المنتصر..

التفت المتوكل الى ابنه الذي اختط شاربه واطلق ضحكة ماجنة ولكنه

طوح بكأس الخمرة وصرخ:

- ما الذي يجري هنا؟

قال المنتصر بأدب:

- يا أمير المؤمنين ان الذي يحكيه هذا الكلب، ويضحك منه هؤلاء هو ابن عمك علي.. شيخ أهل بيتك وبه فخرك، اذا أردت أن تأكل لحم ابن عمك فكله وحدك ولا تطعم هذا الكلب وأمثاله منه..

أطلق المتوكل ضحكة هستيرية وصفق بيديه منشداً ببذاءة:

غار الفتى لابن عمّه رأس الفتى في حر أمه

وخاطب المهرّجين:

- هيّا غنّوا جميعاً بهذا الشعر..

واستحال البلاط الى بؤرة تمارس فيها كل ألوان الآثام والخطايا.

في اليوم التالي صدرت قرارات خطيرة فقد اقبل الوزير محمد بن الفضل بسبب ميوله الشيعية وتم تعيين عبيدالله بن يحيى بن خاقان بدلاً منه لما عرف عن حقه على العلويين..

كما اصدر أمراً باعتقال المرأة البغدادية ومصادرة جميع ممتلكاتها.. وانطوت أيام شعبان ثم تلاه رمضان..

في عيد الفطر اصدر المتوكل ومن أجل تحسين سمعته لدى الرأي العام أمراً بانزال جثمان احمد بن نصر الخزاعي من الصليب وتسليمه الى ذويه، وقد حضر ابن اخيه موسى الى سامراء لاستلام الجثمان الذي نقل في

مركب شراعي الى بغداد فوراً، وقد أحدث وصول الجثمان المقطوع الرأس الى بغداد ضجة وتجمهر الآلاف من عامّة الشعب للتبرك به، ووصلت تقارير سريعة الى سامراء حول ما يجري في بغداد فصدرت أوامر مشددة بارهاب الناس ومنع التجمّعات..

وفي نفس الشهر وصلت أخبار عن حدوث تمرد مسيحي خطير في أرمينيا فكلف القائد التركي بغا الذي عرف بالشرابي_ بمعالجة الموقف، فاجتمع بدوره مع «أبي سعيد» أحد القادة العسكريين فخرج من قصر «بغا» مخموراً ومحملاً بالهدايا متجها الى الكرخ_، وشاء القدر أن يسير موكبه في درب الحصا متجها صوب الجسر الوحيد الذي يربط بين ضفتي دجلة.. كانت نسائم آذار المنعشة تهب من ناحية النهر مشبعة برائحة المياه النديّة وقد تلالأت النجوم في سماء كحلية صافية، وكان علي ابن الرضا جالساً على دكة عند عتبة الدار وقد جلس اليه ثلاثة من جيرانه يستمعون الى حديثه.. واقترب موكب القائد «أبو سعيد محمد» تتقدمه الفوانيس المضيئة ونهض الجالسون لتحية القائد الذي بدا عليه الفرح بما حصل عليه سوف يكون حاكماً على ارمينيا بعد اعادتها الى بيت الطاعة والقضاء على التمرد فيها..

وعندما اجتاز الموكب المنزل غمغم الأمام وهو يشيع القائد العسكري:

- انه فرح بما هو فيه وغداً يموت قبل الصلاة.

تبادل الرجال نظرات فيها دهشة.. وعندما انصرفوا قال أحدهم:

- سمعت ما قاله هذا الرجل المدني؟!

- هذا علم بالغيب!

- لعله قصد أنه سيموت في النهاية.. فنهاية كل انسان هي الموت.

- ماذا تقول؟! انه يعني الليلة سيموت القائد.

- ولماذا لا نتحقق من الأمر، فاذا ظهر كذبه نغتاله ونستريح منه.

وعاد الرجال الثلاثة الى منازلهم ينتظرون مطلع الفجر وفي غبش الفجر
سمعت ضجة وكانت دوريات من الفرسان في طريقها الى قصر الخلافة..
وفي المسجد الجامع سمع الجميع الخبر.. لقد توفي القائد العسكري أبو
سعيد فجأة.. وتضاربت الاخبار في كيفية الوفاة ولكن من المؤكد أنه
اصيب بما يشبه السكتة القلبية_.

(٣٦)

في ذو القعدة من سنة ٢٣٦هـ تقرر أن تقوم أم المتوكل وهي جارية تركية اسمها «شجاع» برحلة الى الحجاز لأداء فريضة الحج مصطحبة حفيدها «محمد المنتصر» الذي بلغ سن الرجال، وظهرت عليه سيماء الرزانة والعقل.. كما تقرر أيضاً أن يقوم الخليفة بتشجيع والدته ووريثه على العرش حتى منطقة النجف حيث تنهض في تلك البقة الجرداء من ضواحي الكوفة قبة بيضاء يرقد في ظلها بطل الاسلام الخالد علي بن أبي طالب.. وتحرك موكب والده الخليفة وحفيده الذي عين أخيراً على موسم الحج لهذا العام..

وعلى مقربة من القبة البيضاء الناصعة وفيما كانت نسائم نيسان تهب منعشة جرى وداع عادي بين الأب وابنه والأبن ووالدته.. وعندما غابت قافلة «شجاع» التي يحفها حرس خاص القى المتوكل نظرة على القبة البيضاء أودعها كل احقادها وعقده النفسية..

ورأى طريقاً يتفرع من طريق القوافل فسأل عنه أجابه أحد مرافقيه بأنه طريق يتجه الى كربلاء.. من بعيد لاحت قافلة تتجه نحوها، ورجلاً يترجلون عن دوابهم مفضلين السير مشياً على الأقدام فتساءل عن سر ذلك فقيل له.. ان العشق يبلغ بعضهم بحيث ينطلق لزيارة مرقد الحسين مشياً على الأقدام!!

كاد المتوكل يتفجرّ غيظاً وحقداً لما يرى ويسمع.. قفز على صهوة
جواده والهبة بالسياط عائداً أدراجه الى سامراء فتبعه جنوده وبطانته..
من يرى عيني المتوكل في تلك اللحظات سيكتشف جحيماً مدمراً
يموج بالحقد والجريمة وسيحدث وحشية الإجراءات القادمة..
لم يكد يضع قدمه في سامراء حتى أوعز الى وزيره الجديد عبيدالله بن
يحيى أن يرسل الى حاكم بغداد تعليمات مشدّدة بمنع زيارة مرقد الحسين
في كربلاء.

كان البريد السريع ينقل بواسطة الحمام الزاجل ولذا هبط في قصر
محمد بن اسحاق حاكم بغداد طائر يحمل أوامر خطيرة وعلى الفور
اتخذت اجراءات لتنفيذ أمر الخليفة، وانطلقت مفارز مسلّحة باتجاه كربلاء
حيث اتخذت مواقعها حول المرقد..

وقرأ قائد الشرطة بياناً جاء فيه:

- ان الدولة تمنع واعتباراً من بعد غد زيارة الحسين بن علي وانه «من
وجدناه عند قبره بعد ثلاثة فسيكون مصيره السجن في المطبق»..
أمر عجيب كل شيء يمضي عكس ما يريده المتوكل! قوافل الزوّار
تندفق نحو كربلاء.. الدموع تموج في العيون.. والقلوب يعتصرها الألم..

- يا حسين يا مظلوم.. يا ريحانة محمد وسبط الرسول.. يا بن فاطمة
الزهراء..

يزيد يولد مرّة أخرى.. يزيد الجديد يريد ذبح الحسين من جديد!
انتهت أيام الانذار الثلاثة.. وانفجر الوضع بحدوث اشتباكات عنيفة بين
الوافدين للزيارة وقوات الشرطة ولم تنفع التعزيزات العسكرية القادمة من

الكوفة في ثني الناس عن التهافت.. وبلغت المأساة ذروتها في سقوط القتلى والجرحى بعد أن حدث اشتباك عنيف استخدم فيه الجيش اسلحته.. وصلت سامراء تقارير تعكس خطورة الأوضاع.. من أجل هذا صدرت أوامر شخصية من المتوكل تطلب من جميع القوات المرابطة في كربلاء بالانسحاب والإعلان أنها جاءت في مهمّة للصالح العام..

وفي بغداد حدث لغط بسبب الاجراءات التعسفية واقدام المتوكل على منع زيارة الأولياء والشهداء والصدّيقين.. وهل هناك ما هو أقدس من ريحانة النبي الحسين إبن فاطمة الزهراء؟! وبدت الاوضاع مشحونة بالخطر خاصّة في الكوفة وبدأ الجواسيس نشاطاً مسعوراً في نقل التقارير التي يشم فيها رائحة المعارضة للحكم..

وفي بغداد دوهم منزل المحدث نصر بن علي الجهمي بسبب نقله حديث عن أهل البيت جاء فيه بعد اسناد متصل: «ان رسول الله أخذ بيد الحسن والحسين وقال: «من احبني وأحبّ هذين، وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة».

وفُسّر الحديث بأنه مناهض لسياسة المتوكل.. فصدرت أوامر من سامراء بضربه ألف سوط.. وبدأ بعضهم بالتوسط لدى الخليفة مركزاً على نقطة مهمة أن المحدث ليس شيعياً وعندها استؤنف الحكم مرّة أخرى لتصبح

220

العقوبة النهائية خمسمئة سوط فقط!_

وفي بغداد أيضاً وقعت حوادث غامضة فقد توفي «الحسن بن سهل» أخو الوزير المشهور «الفضل بن سهل» وجاء في التقارير أنه تناول شربة من

دواء توفي أثرها على الفور وذلك في صباح يوم الخميس المصادف ٥ ذو الحجة وفي يوم الجمعة توفي حاكم بغداد محمد بن اسحاق! فاسندت قيادة شرطة بغداد الى محمد بن عبدالله بن طاهر الذي اصبح حاكماً على بغداد والكوفة اضافة الى اقليم خراسان بسبب ولائه المطلق للمتوكل وعدائه للعلويين.

وبلغت اجراءات منع الزيارة ذروتها مع مطلع محرّم الحرام حيث تزداد وتيرة الزيارة لتبلغ أوجها يوم عاشوراء.. امتلأت زنانات سجن المطبق الرهيب بالابرياء من الذين اعتقلوا بسبب زيارة الحسين..

في سامراء كان الحزن يغمر منزل علي الهادي بسبب ما يجري من انتهاكات واجراءات ظالمة فينما يعيش المنحرفون والساقطون في رغد من العيش يحيا الاحرار حياة لا تطاق.. جوع، تشرد وحرمان.. خاصة ابناء علي انهم لا يستطيعون الزواج.. ان الحكم الأموي لم يبلغ هذه الدرجة من الانحطاط ما بلغها في عهد المتوكل!!

فينما يتلوّى نصر بن علي الجهمي تحت السياط بسبب نقله حديث عن أهل البيت (عليهم السلام) اذا يحيى بن اكثم الذي ملأت بغداد حكايات شذوذه الجنسي يستدعى الى سامراء لتسلم سلطة القضاء ورئاسة محكمة الاستئناف..

الوقت الآن قبل منتصف الليل في تموز سنة ٨٥١م ٦ محرّم الحرام سنة ٢٣٧هـ الخليفة مع شلّته التي يجتمع بها كل ليلة.. وقد انضم اليها مؤخراً الوزير عبدالله بن يحيى، والقاضي ابن اكثم ولم يعد المرء يفرّق بين اجتماعات البلاط وحفلات المجون فكل الذين يشاركون في الأولى

يحضرون في الثانية، وكل ما ينطق به الطاغية أمر نافذ لا تراجع عنه ولا نقاش فيه.. لقد بدأ عصر الأرهاب والحكم المطلق والطغيان حيث تصبح لمنافع الحاكم ورغباته الأولوية أما الدولة والبلاد والشعب فالى الجحيم.. ماذا ينقص المتوكل؟! حرس قوي مجهز بالسلاح؛ ووزراء متملقون وحاشية فاسدة.. وجيش لا يعرف غير تنفيذ الأوامر واستلام المرتبات الشهرية..

في سامراء استيقظت في النفوس حمى الثراء وجمع المال.. الذهب، الجواهر.. لكأن نفس الحاكم الدنيئة توقظ الغرائز المنحطة والميول الفاسدة والاطماع.. في قصر زوجة الخليفة هناك عمال مستوردون لتنفيذ عمليات حفر غامضة تحت القصر سراديب ممرات رهيبة تحت الأرض وانفاق سرية..

وبدأ زمن الصعود على جثث الأبرياء.. من العلويين والمتعاطفين مع أهل البيت (عليهم السلام) وفرض الحصار على منزل علي بين محمد الهادي فلم يعد يخرج الى المدينة ولا يزوره أحد.. وفيما كان الحرس التركي يتخذ مواقعته كان المتوكل قد بدأ سهرته الليلة الماجنة لتنتقل الضحكات الخليعة وتمارس الوان الآثام والخطايا..

222 حيث يسقط الانسان في هاوية الرذيلة.

(٣٧)

من عادة الطاغية اذا اراد القيام بعمل خطير أن يتأكد أولاً من ولاء حرسه الخاص.. أنه قوي مرهوب اذ كان له حرس شديد لا يعرف غير تنفيذ الأوامر..

ومن عاداته أيضاً أنه في عشية ارتكابه لجريمة ما يستغرق بممارسة لذائذه وشهواته فيكثر عبثه ومرحه..

وفي تلك الليلة من شهر تموز ٨٥١م محرم الحرام سنة ٢٣٧هـ صدرت الأوامر للقوات المرابطة في الكوفة بالزحف الى كربلاء واحتلالها وهدم قبر الحسين (عليه السلام)..

وفيما كانت القوات المدججة بالسلاح وأدوات التدمير توظف الصحراء على امتداد المسافات بين الكوفة وكربلاء.. كان المتوكل يحتفل بليلة ساهرة..

ودارت كؤوس الخمر، وكانت فتاة حسناء ترتدي ثياباً حريرية شفافة تحمل برشاقة كؤوس الخمرة المعتقد فيما كان صوت طروب يتدفق نشوة وسحراً.. ان «محبوبة» تسحر بصوتها الرخيم السكارى وتزيدهم سكرًا الى سكر.

ودخل الوزير عبيدالله بن يحيى وعيناه تبرقان بالظفر كان يحمل سيفاً مهنداً.. تقدم باتجاه الخليفة وانحنى أمامه بملق وتخضع وسلّمه السيف قائلاً:

- هذا السيف الذي كنت تطلبه.. لقد وصل سامراء في المساء أمسك
الخليفة بالسيف.. وسله من الغمد.. وتمتم منتشياً:

- سيف عجيب!!

السيف يبرق بسبب أضواء القناديل.. وادرك بعضهم أن المتوكل ينتظر
كلمات الثناء.. قال البحترى:

- انه يشبه الهلال ذا ثلاث ليال.

وقال آخر:

- بل انه يشبه بابتسامته حسناء ذات دلال.

وقال الوزير:

- ان له من الجمال ما دام في يد الخليفة أو في يد الأعوان والرجال.

أعاد المتوكل السيف الى غمده واشتعلت في رأسه فكرة انتخاب
حارس خاص يرافقه دوماً.. من أجل هذا همس في أذن رئيس وزرائه قائلاً:

- اطلب لي غلاماً تثق بنجدته وشجاعته.. أدفع له هذا السيف ليكون
واقفاً على رأسي لا يفارقني في كل يوم مادمت جالساً..

وبرقت في ذهن ابن خاقان صورة الغلام التركي «باغر» فقال على الفور:

- يا سيدي «باغر».. باغر التركي ليس هناك من هو في مثل شجاعته

224 وبأسه!

- عليّ به!

- الآن؟!

- نعم حالاً.

وما أسرع أن دخل «باغر» بطوله الفارع لكأنه العملاق الذي تصوّره حكايات ألف ليلة وليلة.. صعّد المتوكل بصره في الفتى المفتول العضلات.. عينان صغيرتان ثاقبتان وقسوة في ملامح الوجه وجبين ضيق، وحاجبان مخيفان كخنجرين يتحفران لتنفيذ جريمة ما.. سلّم المتوكل السيف شخصياً للغلام التركي الذي منح على الفور رتبة قائد عسكري، وسيتقاضى مرتباً مغرياً.. ان مهمته الوحيدة أن يقف حارساً للخليفة.. أنه الوحيد الذي يحق له مرافقة الخليفة في أي مكان من القصر حتى جناح الحريم يستطيع أن يقف بازاء الستائر المخملية حيث يتوارى الخليفة غارقاً في لذائذه الجنسية التي لا تكاد تنتهي..

كان من المقرر أن يقوم الخليفة بتدشين يخته الملكي في الصباح ولكن الخليفة الذي اسرف كثيراً في شرب الخمر لم يستيقظ إلا في الظهر، وقد ظهرت علائم القلق على وجه رئيس وزرائه والمسؤول عن نقل الأخبار.. فهناك ما يستدعي اطلاع المتوكل عليه بعد أن وصلت اخبار خطيرة من كربلاء!!

وفي أصيل ذلك اليوم كان اليخت الملكي يرسو على ضفاف القاطول.. لم يشأ الفتح اطلاع سيّده على الاخبار إلا بعد أن ابتعد اليخت عن المرسى ليلج مياه دجلة التي راحت تحمل اليخت باتجاه الجنوب الشرقي.. وبدت مناظر المدينة وهي تعاكس مجرى التيار كشريط ملوّن، وكانت المنارة ابهى ما يكون في ذلك الاصيل.. وبدت قصور المتوكل حيث ظهر البرج..
شامخاً كعملاق..

التفت المتوكل الى رئيس الاستخبارات مستفسراً عن آخر الاخبار قال
ابن خاقان:

- لقد نفذ الجيش مهمته واحتل المنطقة المحيطة بقبر الحسين وتم هدم
البيوت التي بنيت حوله.. خرّبوا ما يقارب من مئة جريب من الأراضي..
ولكن..

- ولكن ماذا؟

- تهيّبوا تخريب القبر.. قبر الحسين.. ولم يجدوا عاملاً واحداً ينفذ لهم
ذلك..

- انهم يتمردون على أوامري؟!!

- يا سيدي ان الناس يتركون بزيارته فهو الحسين ابن فاطمة؟!!

وسمع البعض خليفة المسلمين يسب فاطمة الزهراء! حتى الشاعر
البحثري استاء من ذلك واقشعر جسمه ولكنه انصرف الى ترديد أبيات
يتغنى بها في حضرة الخليفة تهنئه له بقصره العجيب الذي بناه فوق سفينة..
قال الفتح:

- يا سيدي حتى النصارى امتنعوا عن هدم القبر!

برقت عينا المتوكل بالحقق وصرخ.

- اليهود.. عليك باليهود.. انهم يفعلون كل شيء من أجل الذهب..

لم يكره المسلمون اليهود مثلما كرهوهم ذلك اليوم.. وكان منظرهم
وهم يحملون معاول الهدم كشياطين انبعثت من أصل الجحيم تريد احراق
كل الاشياء الجميلة..

العيون اليهودية تبرق بالشر والجريمة والدناءة وانوفهم المعقوفة
تستحيل الى أنوف لذئاب لا تعرف الرحمة انهم ينطون على دناءة مقرفة،
ولو انبعث لهم موسى بن عمران لقتلوه من أجل عجل ذهبي له بريق
يخطف القلوب ويخطف الابصار!

كان الوقت مساءً وقد هيمنت في خرائب البيوت المهدمّة رهبة الظلام،
وكان صوت سهيل الخيول وحده يكسر حاجز الصمت الذي جثم فوق
المكان..

ليلة العاشر من المحرم مخزونة بحزن سماوي حتى السماء تبدو كابية
غارقة في الرماد.. كل شيء يبدو حزيناً ومنظر الخرائب وصهيل الخيول
يشعل في الذاكرة ما حدث في هذه البقعة من العالم من مأساة وفجيرة..
حتى نسائم الفرات الندية لم تبدّد مشاعر الحزن والأسى.. الجنود المسلمون
يشعرون بالعار وهم يرون عشرات اليهود كالضباع يريدون نبش قبر سبط
محمد وابن فاطمة وعلي.. ومع ذلك فهم يقفون عاجزين عن فعل أي
شيء!!

حبّ الحياة الدنيا سلبهم الثأر لكرامتهم المهذورة.. وهبّت نسائم معطورة
من جهة المرقد الطاهر حيث يرقد الحسين.. الحسين بن علي..
«آه ما أطيبك واطيب قبرك وتربتك»..

آه من الأرجاس الأوغاد.. أه من قتلة الانبياء.. لا يتورعون عن ارتكاب
كل جريمة من أجل المال.. المال.. الذهب معبودهم الوحيد..
مأساة عاشوراء تنبعث من جديد.. الحسين يقاتل وحيداً من أجل أمة
هدرت كرامتها.. من أجل أمة خضعت للطاغية.. ها هو الحسين يقاتل من

جديد ضد طاغية جديد.. المتوكل يحشد جيشه من اليهود.. من احفاد قتلة الانبياء والمرسلين لنبش قبر الحسين.. لذبح الحسين.. لمحو الحسين ولكن هيهات.. الحسين اسمه في قلوب الأحرار ورسمه في حنايا الصدور.. صدور الثوار.

«الديزج» اليهودي الذي عبد العجل الذهبي من دون الله يتقدم ومعه أولاد الأفاعي والحيات الى البقعة المباركة.. وهوى السامري على صندوق خشبي تفوح منه رائحة المسك وبدأت الذئاب البشرية تنهش الأرض المقدسة حيث هوى الحسين وحيث هشمت صدره عشرة خيول مجنونة.

كان «هارون المعري» القائد العسكري المرابط مع قواته قد نام على اصوات المعاول.. وفي عالم تسبح فيه الأرواح رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يبصق في وجهه ويطرده!

وطلع الفجر رمادياً حزيناً وتكشفت معالم الجريمة لقد دُمر المرقد الطاهر وسوى بالتراب..

وجيء بعشرة ثيران لكرب المنطقة وحرّاتها وتحويلها الى أرض زراعية..

وشوهد أن الثيران كانت تحيد عن منطقة القبر يميناً أو شمالاً ولم ينفع

228 الضرب الشديد لدفع الثيران لحرّاة القبر.

وقدم اليهودي تقريره بيد مرتجفة بسبب حمى الليلة الفاتئة للمسؤول التنفيذي عن المهمة:

- فعلت ما أمرت به.. لم أر شيئاً.. ولم أجد شيئاً!

قال القائد بدناءة:

- هل عمّقت في النبش؟

- قد فعلت فما رأيت..

قال القائد وهو ينفذ أمر الخليفة العباسي العاشر:

- افتحوا النهر على الأرض المحروثة.

مثل الطوفان اندفعت مياه الفرات لتغمر الأرض المكروبة.. وحدث

شيء عجيب.. المياه لا تغمر البقعة المباركة راحت تدور.. حولها فبدت

كجزيرة صغيرة.. واحة في قلب الصحراء وقد علا زبد الماء..

(٣٨)

أطل يوم «عاشوراء»، وتضاعف الحزن وقد استحال المتوكل الى «يزيد»
آخر اذ أغارت ذنابه من اليهود على بقعة طاهرة تضم رفاة الحسين..
عاشوراء ينبعث من جديد.. والحسين ينهض ليقاتل يزيد الجديد..

كانت البقعة من تلك الأرض، حيث دارت ملحمة الحسين ما تزال
غارقة في المياه ما خلا جزيرة صغيرة لم يمسه الماء وعمّ الاستياء المدن
الاسلامية بما فيها الكوفة، وبغداد وسامراء وتذمر المسلمون وتجراً بعضهم
على سبّ الخليفة في المحافل العامة والدعاء عليه في الصلاة.

وانتشرت آيات شعرية تندّد بجريمة المتوكل، وكان الناس يرونها
مكتوبة على جدران المنازل والجوامع وحفظها الكثير من الناس:

تالله إن كانت امية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو ابيه بمثلها هذا لعمر ك قبره مهودوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله فتبعوه رميما
وانتشرت الأبيات للشاعر المشردّ دعبل الخزاعي كان قد هاجم فيها

المتوكل لدى اعتلائه عرش الخلافة وقد وصفه فيها بالذئب البشري:

الحمد لله لاصبر لاجلد ولاعزاء إذ أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وأخر قام لم يفرح به أحد
فمرّ هذا ومرّ الذئب يتبعه وقام هذا فقام الويل والنكد

وبدأت حملة اعتقالات واسعة طالت الكثير من الابرياء الطيبين، وامتألت زنانات المطبق بالمؤمنين من الاحرار الذين ينبض في قلوبهم اسم الحسين.

عمّ الذعر أنحاء البلاد وألقي القبض على كثير من أصدقاء الامام في طليعتهم «علي بن جعفر» اذ ورد الى قصر الخلافة تقرير رفعه عمر بن فرج يؤكد خطورة علي بن جعفر وأنه من زعماء الرفضة..

وسيق الرجل الفاضل الى السجن وكان من المؤكد أنه سوف يتعرض الى تعذيب رهيب لدفعه على تقديم كل ما يملك من أجل الخلاص من أجل هذا أجرى اتصالاً مع أحد الشخصيات ووعده بمنحه ثلاثة آلاف دينار مقابل اطلاق سراحه..

واسرع الرجل الى الوزير المتنفذ عبيدالله بن يحيى وبحث معه فكرة التوسط له لدى المتوكل فوعده بذلك.

وفي المساء وكان مزاج الخليفة منفتحاً قال ابن يحيى:

- يا سيدي جئتك متوسطاً لاطلاق سراح علي بن جعفر.

فوجيء المتوكل بتصرف وزيره وقال مستكراً:

- لو شككت فيك لقلت أنك رافضي.. اتعرف من هو؟ انه وكيل

الهادي..

وتوقف لحظات ليقول بحقد:

- انني عازم على قتله.. واقسم انني لن أخرج جثته من السجن إلا بعد

ثلاثة أيام..

وشعر عبيدالله بانه ارتكب حماقة كبرى في التوسط من أجل اطلاق رجل شيعي مغضوب عليه من الخليفة.. وجاء الوسيط يستفسر من الوزير الذي قال له بيأس:

- لا تتعب نفسك.. ان عمر بن الفرج كتب عن ابن جعفر بانه رافضي.. أن قتله بات مؤكداً بل أن المتوكل أقسم على الا يسلم جثمانه إلا بعد ثلاثة أيام.

وعندما أحيط علي بن جعفر بالنتيجة اصيب بخيبة أمل ولكنه سطر بعض الرسائل الى كثير من شخصيات الدولة للتوسط في أمره..

وأخيراً نجحت الوساطات واستجاب المتوكل بشرط أن يسدد مبلغاً قدره ثمانين الف درهم فاذا عجز عن دفع المبلغ فليبع غلامه فلان بهذا المبلغ الى الخليفة وعندها يخلى سبيله..

قال الوزير مبتهجاً:

- وأخيراً سوف تخرج من السجن ليس عليك إلا أن تشهد بأنك بعت المتوكل غلامك فتذهب الى منزلك.. ما رأيك؟

قال السجين:

- نعم سأفعل ذلك.

وأمر الوزير بحضور أحد الكتّاب لتسجيل البيع وضبط شهادة الشهود..

وخلال تلك المدّة.. تألقت في ذاكرته مشاهد لغلامه الطيب الذي نشأ في ظلال الايمان الوارفة.. كيف سيسلمه الى الطاغوت فيخرجه من النور الى الظلمات؟

وعندما حضر الكاتب والشهود قال السجين بشجاعة مدهشة:

- اشهدوا انه حرّ لوجه الله.

فكتب الوزير تقريراً عما حصل وما لبث أن جاءت رسالة المتوكل شديدة القسوة:

- يقيد السجين بخمسين رطلاً وتوضع الأغلال في عنقه بوزن خمسين رطلاً ويرمى في زنزانة ضيقة..

- لقد اقتربت النهاية.

صوت دوى في السجن، كان يودّ أن يقضي السنوات الأخيرة من حياته في المسجد بين تلاوة القرآن والصلاة وقد يحج الى بيت الله حجة الختام ويستريح ولكن الحياة في ظلال الطغاة تستحيل الى جحيم لا يطاق.. إما أن ينسلخ الانسان عن انسانيته وإما أن يحيا مكبلاً بالأغلال..

وعندما سمح لأسرته باللقاء طلب من أولاده أن يحيطوا جميع اصدقائه بالخبر وأن يسعوا في خلاصه بكل وسيلة.. وكتب رسالة الى الامام بهذا الخصوص فاستلم الجواب في نفس اليوم وكانت كلمات الامام وجيزة لكنها تنطوي على ايمان بالله راسخ عميق:

- لا والله لا يكون الفرغ حتى تعلم أن الأمر لله وحده.

هزّت الكلمات وجدان السجين المؤمن.. لقد نسي حقيقة كبرى أن كل شيء يمضي بمشيئة الله.. الله وحده القاهر الجبار الملك القيوم الذي بيده

مقاليد السموات والأرض.. لماذا اذن يتوسل بالذين لا يملكون من الحول والقوة شيئاً؟!!

من أجل هذا كتب الى اسرته بوقف جميع مساعيها في اطلاق سراحه
وأن تسترد جميع رسائله التي سبق أن ارسلها الى اصدقائه ومعارفه.. فمكث
في ظلمات السجن..
ولكن الى متى؟

في البداية واجه السجين مصيره بشجاعة وتحمل التعذيب بصبر وبسالة،
ولكن الجسد الآدمي لا يستطيع تحمل سياط العذاب، دائماً هناك من
يتراجع في البداية يكتنم صرخاته لكبتها ولكن لهيب العذاب يفجر آلاما
رهيبه لا تحتمل وعندها تدوى صرخات الاستغاثة، فاذا اضيفت الى
الاغلال والقيود ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض فأن شعوراً مدمراً
بالانسحاق يجتاح المرء، ويدفعه الى التشبث كالغريق بأي شيء.. ولكن
السجين كان يعي طوال كل تلك الأيام الرهيبه أن عليه أن يستغيث بالله فقط
وأن يوصل صوته الى ولي الله.

أمّا عبدالعظيم الحسني_ فقد أفلت من قبضة رجال الشرطة ولم يعرف
له من أثر.

واستلم الامام رسالة من السجين جاء فيها: «قد ضاقت نفسي وقد خفت
الزيغ يا سيدي».

234 وجاء ردّ الأمام: «أمّا اذا بلغ الأمر منك ما قلت فسأقصد الله تبارك وتعالى
فيك».

في ذلك السرداب المغمور بالسكينة والسلام.. وفي الهزيع الأخير من
الليل.. شرع الأمام كفيه الى السماء.. انه يشهر سلاح الانبياء.
كل شيء يمضي بإرادة الله القاهرة.. بمشيئته وحده..

و شاء الله أن تداهم الحمى جسد المتوكل وأن تنصحه والدته باطلاق
سراح المعتقلين..

وجاء الوزير يبشر السجين بالحرية..

وادرك «علي بن جعفر» حينئذ أن الايمان الراسخ بالله يهب الانسان العزة
والكرامة والحرية الحقيقية..

وزاره الامام مهنتاً ونصحه بالرحيل الى مكة_:

- ان سامرا لم تعد مكاناً آمناً فارحل الى حرم الله وأمنه..

سوف يعمّ الرعب الأرض ويخاف المؤمنون سطوة الاشرار.. سيعلو
صوت الغناء تراويل القرآن.. سوف تُزخرف القصور بالذهب والفضة،
وسوف تتهاوى بيوت الفقراء.. سوف تفرّ كلّ الأشياء الجميلة، وسيخرج
الشیطان يعربد ويدمر، وسينزوي العقل البشري أمام جنون الغرائز..

ولكن معركة الانسان المؤمن لن تنتهي إلا بانتصار الانسان على الخنزير
المرتبص في أعماقه المظلمة..

انتقل المتوكل رسمياً الى قصره الجديد «البرج» الذي انفق المهندسون في بنائه ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار_ غير تماثيل الذهب والفضة، وكان اعجب ما فيه بركة مياه مفروشة بالذهب والفضة، وشجرة ذهب مليئة بتماثيل طيور ذهبية تصدر أصواتا تحاكي اصواتها الطبيعة وقد اطلق على الشجرة اسم «طوبى» شجرة الجنة، أما العرش الملكي فقد صنع من الذهب الخالص يتصدره أسدان كبيران وعلى جانبه مدرج ملئ بتماثيل الحيوانات والطيور وقد صمم كل ذلك وفق الروايات التاريخية التي تصف سرير النبي سليمان(عليه السلام) اما جدران القصر فقد زينت بالفسيفساء من الداخل والخارج وقد امتاز القصر بارتفاعه الشاهق.

أما جناح الحريم فقد اشتمل على مقصورات كثيرة جداً وقد زينت جدرانها بلوحات تصوّر فتيات يؤديّن ألواناً متنوعة من الرقص وموسيقيين اضافة الى صور الحيوانات والطيور تنحصر في تفرّعات نباتية ودوائر. وكان حوض السباحة محاطاً بالنافورات المختلفة الاشكال.. كل ذلك يوجد في قلب حديقة غناء مجهزة بدكة مرمرية واسعة، تستخدم في ليالي الصيف لاقامة الحفلات الراقصة.

في منتصف شهر محرّم الحرام طلع القمر بدرًا وقد شابت نوره الفضي صفرة فبدأ شاحب اللون حزينا، ان لهذا الشهر نكهة حزينة في النفوس إذ

تتوهج في الذاكرة كل مآسي عاشوراء يوم جثم الشمر على صدر سبط
الرسول للذبح.. ويوم رفع رأس الحسين على رمح طويل.
غير أن ما ضاعف الحزن هذا العام ما فعله المتوكل بمرقد الحسين.. لقد
هُدم الضريح وحرثت الأرض ثم اغرقت بالمياه..

استحالت كربلاء الى أرض تجوس فيها ثيران الحرائث.. وكما تنبتق في
الأرض الزهور انبتق لكربلاء اسم جديد.. اسم ولد يوم غمرت المياه أرض
كربلاء لكنها لم تغرق قبر الحسين.. حارب حول البقعة المباركة حيث
مثوى سبط محمد.. من أجل هذا عرف القبر بالحائر..

كان الامام قد ركب سفينة_ متوجهة الى بغداد لينطلق منها الى كربلاء
ولكن جميع الطرق كانت محاصرة بمفارز مسلحة تمنع الزوار من الاقتراب
من المنطقة.

وقد قطع الطريق على الامام الذي ذهب بصحبة ولديه، ولذا عاد الى
سامراء والألم يعتصر قلبه لما يجري من عدوان على القيم الاسلامية
والانسانية.

كان الوضع متأزماً جداً ينذر بوقوع حادث ما، وقد بدا الوجه الاسمر
حزيناً كسماء مثقلة بالغيوم..

237 وعندما ولج المنزل استقبلته ابنته بباقة من الورد تناولها وقد اشرفت
ابتسامة في محيائه، وقبل ابنته التي لم تبلغ الثالثة من ربيع العمر.. كان وجهها
الملائكي يختصر براءة الطفولة.. شم الأب الورد أربح وملاً صدره بشذى
العطر ثم وضع باقة الورد على عينيه وناولها صاحبه الذي قدم من بغداد
قائلاً:

- يا أبا هاشم من تناول وردة فقبلها ووضعها على عينيه ثم صلى على محمد وآله الأئمة.. كتب الله له من الحسنات مثل رمال عالج_ ومحا عنه من السيئات مثل ذلك_.

وفي القصر الجديد كان المتوكل يتشظى غيظاً ان موقف علي بن محمد يعدّ ضربة للحكم.. كان البلاط يغصّ برجالات الدولة وبينهم المعتز ولي العهد المدلل وكتاب الديوان..

المتوكل جالسٌ فوق سريره الذهبي المهيب والتماثيل وفي طليعتها الأسدان.. تبعلق بصمت.. الخليفة ينظر شزراً الى رئيس وزرائه بن خاقان.. وانفجر بركان الحقد.. ان وزيره عبيدالله بن يحيى نقل تقارير خطيرة عن ابن الرضا يهاجم فيها سياسة المتوكل.. صرخ المتوكل وهو يوجه كلماته الى الفتح الذي وقف ذليلاً:

- هذا الذي تقول فيه ما تقول؟!!

حاول رئيس الاستخبارات أن يخفف من اندفاع المتوكل في الاتهام فهناك معلومات كاذبة:

- انه مكذوب عليه يا أمير المؤمنين!

لكن المتوكل أصم أذنيه.. لقد انفجر الحقد العباسي الذي يخشى أبناء

238 علي:

- والله لاقتلته.. هذا الذي يدّعي الكذب، ويطعن في دولتي_ وفي عصبية مخيفة أصدر أمراً باحضار أربعة رجال من «سكان الخزر».. فهؤلاء لا يعرفون غير تنفيذ الأوامر.. وسلّمهم بنفسه أسلحة لاغتيال الرجل الاسمر الذي سيحضر الى القصر..

كانت فكرته أن يواجه الامام بالاتهام ثم يسمح له بمغادرة البلاط وفي الرواق المؤدي الى البوابة ينقض عليه أربعة رجال غلاظ لاغتياله والتخلص منه الى الأبد.

الإمام في طريقه الى القصر وقد امتلأ صدره غضباً علوياً وإباءً حسينياً.. كل شيء يمضي بمشيئة الله.. أنه في عين الله وإذا كان المتوكل يتكل في سلطنة الى حرسه وجيوشه فان ابن الرضا يتوكل على الله، وكفى بالله وكيلاً.. يمشى مرفوع الرأس..

تتألق في عينيه رسالات الله، وتضيء جبينه الأسمر هالة من نور محمد.. الكلمات المقدسة تدوي في أعماق الفتى الاسمر:

- «يا عدّتي عند العدد..

ويا رجائي والمعتمد..

ويا كهفي والسند ويا واحد..

يا أحد.. ويا قل هو الله أحد..

اسألك بحق من خلقتهم، ولم تجعل في خلقك مثلهم أن تصلي عليهم..

الهي عاذ المظلوم ببابك..

وتوكل المقهور منّا عليك

ورجوعه اليك

ويستغيث بك إذا خذله المغيث..

ويستصرخك اذا قعد عنه النصير..

وتتفتح أبواب السماوات وتهبط ملائكة الله لنصرة المظلوم.. فاذا به
يمشي على الأرض هوناً.. وعيون من السماء تحرسه.. أنه ليس وحيداً ومن
كان مع الله كان الله معه..

وهبّ حرس القصر لأداء التحيات، والخدم الى رفع الستائر لقد جاء ابن
الرضا تحيطه هالة من النور، وتشعّ من عينيه النجلاوين أنوار الهيبة
والقداسة. وعندما ولج البلاط غمر المكان سكينه.. حتى المتوكل الذي
كان يتحفز كنمر متوحش أخذ بالتضائل حتى استحال الى قط وديع.. ها هو
يهب من سريره مأخوذاً بالرجل الاسمر الذي بدا في عينيه عملاقاً مهيباً..
يستطيع أن يطيح بعرشه ويحيل قصره الى خرائب وانقاض.. هتف المتوكل
دون وعي:

- يا سيّدي.. يا بن رسول الله.. يا خير خلق الله يا ابن عمّي.. يا أبا الحسن

ما جاء بك يا سيّدي في هذا الوقت؟

أجاب الإمام بثبات الجبل:

- جائي رسولك يقول: المتوكل يدعوك.

- كذب ابن الفاعلة..

وأراد الأمام أن يوضح له حقيقة كبرى فقال ناصحاً:

- لا تطلب الوفاء ممن غدرت به، ولا الصفاء ممن كدرت عليه عيشه..

أتطلب الوفاء من الذين تغدر بهم؟ وتطلب منهم أيضاً تصفو قلوبهم لك

وأنت تكدر عليهم الحياة!؟

متودداً قال المتوكل، وقد وجد نفسه ضئيلاً:

- ارجع يا سيّدي الى منزلك..

والتفت الى ولي عهده والى رئيس وزرائه:

- يا فتح يا معتر شيعوا سيدكم.

وغادر الامام البلاط ظافراً.. تخفق من حوله أجنحة الملائكة.. ووراءه رجال الدولة وأمامه حرس القصر..

أما الرجال الأربعة فقد ظلوا مبهوتين وهم ينظرون الى الرجل الاسمر في موكبه المهيب..

وفي نفس اليوم استلم ابراهيم الصولي كاتب البلاط ومسؤول ديوان الضياع رقعة وصلته بطريقة غامضة فلم تكن ضمن رسائل البريد الرسمي وعندما نشرها اصفر لونه وشعر بأن حياته قد باتت مهددة.. رسالة فيها ابتزاز مالي ان شخصاً يدعى اسحاق يقول: ان بحوزته قصائد لابراهيم في مدح الامام الرضا بمناسبة تسنمه ولاية العهد وقصائد غيرها بعضها بخط ابراهيم نفسه! اما مطالبه فهو اسقاط جميع الديون التي بذمته والمثبتة في ديوان الضياع.. وفيها تهديد بايصال القصائد الى المتوكل شخصياً.

استحال قلبه الى طبل افريقي مجنون يدق بعنف.. ان وقوع القصائد في يد المتوكل يعني نهايته بطريقة بشعة.. منذ مدة وهو يعمل في البلاط ويلاحظ بعض العيون تبرق كعيون الافاعي.. مؤامرات دسائس نفاق.. تملق.. انحطاط في كل شيء..

لقد استحال المتوكل الى طاغية ولم يعد هناك شيء ثابت ولا مقدس كل شيء مستباح..

ان رجلاً يخشى الموتى وهم في القبور، لا يمكن أن يكون انساناً سوياً أبداً وخليفة

يقدم على تدمير مرقد الحسين يعني أنه أسوأ من يزيد.. يزيد الذي لا يملك حسنة واحدة.

انتبه «الصولي» الى نفسه على خطى قادمة..

وحارس يقول: أن الخليفة يطلبك على الفور!

أخفى الرقعة في أحد جيوبه وامتلل لارادة الخليفة كان يتوقع أن حادثاً ما سيقع له..

وخلال اللحظات الأولى أدرك الصولي أن الأمور غير ما كان يتوقع، اشتعلت في أرمينيا ثورة بقيادة اسحاق بن اسماعيل حاكم تفليس ومعه أمراء الأرمن والمطلوب توجيه رسالة إنذار قويّة..

أن عقلية الصولي البليغة متحفزة تماماً لتسطير رسالة شديدة اللهجة لها هيبة جيش جرار.. فشرع قلمه وراح يكتب كلمات موجزة الألفاظ واسعة المعاني جاء فيها:

- «أما بعد..

فأن لأمير المؤمنين أناة، فأن لم تغن عقب بعدها وعيداً فأن لم يغن؛ أغنت عزائمه.. والسلام».

ابدى الخليفة اعجابه بالرسالة مما جعل الصولي يتنفس الصعداء ولكنه

242 ما لبث أن غرق في هواجسه لأن مجرد اتهامه بالتشيع يكفي في تدمير

مستقبله والقضاء عليه.. ولذا بادر الى تسطير كلمات موجزة في رقعة وضعها في المكان المطلوب وفيها استجابة ودعوة للاجتماع في منزل أحد الاصدقاء..

وفي المساء حمل «الصولي» سجل «الضياح» معه واتجه الى منزل الصديق وجلس ينتظر بقلق..

طُرق باب المنزل فهب صاحب البيت ليفتح الباب لكنه مالبث أن عاد أدراجه قائلاً دون سؤال:
- كان مكدياً سأل وانصرف.

اعتصم الصولي بالصمت مستغرقاً في هواجسه، لكنّه تحفز مع طرقات خفيفة على الباب:

ودخل رجل في الخمسين من عمره يبدو عليه أنه عانى ألماً كبيراً قبل أن يحضر قال الصولي:

- لقد تأخرت عن الموعد.

قال الرجل:

- تصوّرت أنك تريد الايقاع بي.

- معاذ الله.. لقد أحضرت معي السجل لأمحو أمامك الديون التي بدمتك.

- وأنا أحضرت جميع قصائدك بخطك وبغير خطك.

قام الصولي بمحو جميع الديون التي بدمّة الرجل وقام الرجل بتسليم

جميع الأشعار..

قال الصولي:

- أريد أن تحلف لي بأنك لا تحتفظ بغير هذه الأوراق.

- أقسم لك.

راح الصولي يطالع قصائد شعره ثم راح يحرقها الواحدة تلو

الأخرى.. والدموع تموج في عينه كغيوم ممطرة..

(٤٠)

فيما كانت الجيوش الاسلامية بقيادة «بغا» تغادر العراق باتجاه ارمينيا لقمع التمرد، كانت الشرطة تعتقل القاضي السابق أحمد بن أبي دؤاد وقد صدر أمر بتجميد ممتلكاته.

لم يستطع ابن أبي دؤاد أن يدافع عن نفسه، بسبب شلله النصفي.. وما لبث أن وردته أخبار باعتقال ابنه أيضاً وبتجميد أمواله..

واضطر القاضي السابق وابنه الى تقديم غرامة مالية بمبلغ ١٦/٠٠٠/٠٠٠ درهم واجبرا على مغادرة سامراء الى بغداد بطريقة مهينة..

ومضت في ذاكرة القاضي المهان مشاهد العزّ والنفوذ والسلطان يوم كان القضاء في قبضته عشرين سنة وكانت كلمة واحدة منه تقتل ناساً وترمي بآخرين في ظلمات السجون.. وها هو الآن يطرد مهاناً من سامراء الى بغداد التي تحقد عليه ويودّ أهلها أن يشربوا دمه.

أما الأموال التي جمعها طوال هذه السنين فقد استحوز عليها المتوكل ولعلّه سبني بها قصراً جديداً..

ومضت في ذاكرته مشاهد قديمة يوم كان المتوكل ذليلاً يلتمس منه أن يتوسط له لدى أخيه الواثق.. وكيف البسه حلّة الخلافة بنفسه وكان أول من حيّاه بلقبه الرسمي.. بل أنه هو الذي صنع لقبه.

«آه يا الغدر الزمان» الدنيا لا تصفو لأحد أننا نكتشف ذلك بعد فوات الأوان..

كل ما زرعه بالأمس يحترق أمام عيني، يستحيل الى رماد تتخطفه العاصفة الهوجاء..

انني اقترب من حفرتي.. إنها قريبة جداً.. اشعر انها على خطوات معدودة.. جائع ليس في حوزتي من الزاد شيئاً..

لقد كان المتوكل قبل خمسة أعوام عبداً ذليلاً.. كان يتصور أنه سيبلغ ذروة النفوذ ويحكم باسمه.. سيكون المتوكل خليفة بالاسم فقط.. وسيكون هو الخليفة المتنفذ بالفعل.. ولكن كيف انقلب هذا العبد الذليل الذي كان يتوسل اليه بالأمس الى طاغية يحكم البلاد وفق نزواته؟!

كيف استحال هذا المخلوق الذليل الى ذئب؟ هل أكل قطعة لحم بشرية؟

في البداية كان المتوكل يتودّد ويتظاهر بالتعاطف مع أهل السنّة ويتصنّع الطيبة معهم، وفي نفس الوقت بدأ في تجنيد حرس قوي.. ثم يواجه أعداءه وخصومه..

ولا ينسى أيضاً أن يفرض الضرائب التي تزداد يوماً بعد يوم لأفقار الشعب، فينصرف المواطنون الى الانهماك في العمل لكسب قوتهم اليومي. وعندما يجد نفسه حاكماً مطلقاً فإنه يبرر لنفسه سفك دماء أهله بعد أن يقذفهم بالاتهامات الباطلة.. ويحتقر القانون والأخلاق..

أنه يتحول الى ذئب.. ذئب لا يتورع عن أكل اللحوم البشرية.. حتى حدود البلاد يتركها عرضة للغزاة لكي يشعر الشعب بحاجته الى الحاكم فيضطر الى الخنوع له من أجل كسب حمايته..

ولذا فأن المتوكل لم يطلب من الفتيات اللاتي كن يؤدين رقصة شعبية التوقف عن الرقص بعد أن تلقى انباءً خطيرة تفيد بهجوم الاسطول الروماني على مدينة «دمياط» المصرية، وإحراق المدينة وأسرهم مئات النساء والاطفال، وتدميرهم حوضاً لبناء السفن كان يجهز الاسطول الاسلامي بالسفن الحربية.

وكانت الانباء الحربية تترى: لقد غرق مئات الاطفال والنساء في بحيرة دمياط..

وفي اليوم التالي قام برحلة ترفيهية فركب يخته الملكي متجهاً أولاً الى الشماسية شمال بغداد ثم عبر الى «قطر بل»_ المليئة بالكروم والمعروفة بمعاصرها التي تنتج أفضل أنواع الخمور! فامضى ليلتين، ثم عاد الى بغداد_ فيما كانت نسائم كانون الأول تهب.

وأعلن المتوكل وهو يتصدّر موكبه المهيب في شوارع بغداد وأسواقها أنه سيردّ على الهجوم النصراني، وسيعامل اتباع النصرانية بمنتهى القسوة_ .
وعندما عاد المتوكل الى سامراء كان الخريف يللمم أيامه الأخيرة مبشراً بشتاء قارس طويل.

وفي القصر أمر الخليفة باحضار ابن السكّيت فحضر ومعه الأميران 246 المعتز والمؤيد..

ودارت أحاديث حول التقدّم الذي احرزته ولداه في العلوم كما سأله اسئلة أخرى وعن عمره فأجاب:
_لقد ذرّفت على الخمسين.
وعن مؤلفاته فقال:

- «اصلاح المنطق»، و«تهذيب الألفاظ»، «كتاب الاضداد»، «كتاب الامثال» «شرح ديوان أبي نؤاس» «شرح ديوان طرفة بن العبد» «شرح ديوان الخنساء» «شرح ديوان عروة بن الورد» وكتاب «النوادر».. واشتغل في كتاب جديد اسمه «معاني الشعر»..

قال المتوكل وقد خطرت في رأسه فكرة ماذا لو يخرج «ابن الرضا» بهذا العالم لهذا قال:

أريد منك أن تهياً اسئلة تسأل بها علي بن محمد.. تنفس ابن السكيت الصعداء لأن المتوكل لم يكتشف تشيعه ولذا أجاب على الفور:

- أبذل جهدي.. ان لدي اسئلة تتلجج في صدري منذ مدّة.

أمر المتوكل أن يشهد عدد كبير المناظرة بين ابن السكيت وابن الرضا. وعندما اكتمل الحضور بدأ ابن السكيت الذي ظل طوال الوقت معتصماً بالصمت _ اسئلته فقال بأدب:

- لم بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء؟

وبعث عيسى بابراء الاكمة والأبرص وإحياء الموتى؟

وبعث محمداً بالقرآن والسيف؟

قال الذي عنده علم النبوات:

- بعث الله موسى بالعصا واليد البيضاء في زمان الغالب على أهله السحر..

فأتاهم من ذلك بما قهر سحرهم وبهرهم. واثبت الحجة عليهم.

وبعث عيسى بابراء الاكمة.. والابرص وأحياء الموتى بإذن الله في زمان

الغالب على اهله الطب فأتاهم من ذلك ما قهرهم وبهرهم.

وبعث محمداً بالقرآن والسيف في زمان الغالب على أهله السيف والشعر، فأتاهم من القرآن الزاهر والسيف القاهر ما بهر به شعرهم، وقهر به سيفهم، واثبت الحجة عليهم»-.

وأثار الامام سؤالاً:

- ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غصاصة؟!!

وسكت ابن السكيت كعادته فأجاب الإمام:

- لأن الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في

كل زمان جديد، وعند كل قوم غض الى يوم القيامة»-.

قال ابن السكيت:

- فما الحجة الآن:

أجاب الامام متحدياً التيار الذي يحاول تهيمش دور العقل:

-العقل.. يعرف به الكاذب على الله فيكذب.

وفي الاثناء حدثت جلبة.. لقد القي القبض على رجل نيسابوري يدعي

أنه نبي وأنه ذو القرنين.. ومعه كتاب يزعم أنه كتابه المقدس: ومعه سبعة

وعشرون من أتباعه..

لم يكن الرجل مترناً في تصرفاته، وكان يبدو عليه الاجهاد النفسي..

248 عيناه زائغتان ونظراته تائهة.. أشار المتوكل الى جلاّد أن يلهب جسمه

بالسياط.. فتهاوى الرجل تحتها..

ورأى اتباعه صاحبهم ينهار ويتوسل وقد انخطف لونه..

قال المتوكل لهم:

- إذا اردتم النجاة فاصفعوه..

واندفعوا مثل المجانين لينهالوا عليه بالضرب.. والمتوكل يقهقه مبتهجاً..
فيما اعتصم الامام بالصمت وقد غمرته حالة من الحزن.. لعلّه الجوع دفع
بهذا المعتوه الى إدعاء هذه الترهات.

أمر المتوكل حرسه بحمله الى الميدان العام ليعلن كذبه على الملائم
يلقى في الحبس، ريثما يُنظر في أمره وعندما انفض الحاضرون قال «ابن
اكنم» لخليفته وقد تأججت في نفسه الاحقاد والاطماع:

- ما لابن السكيت والمناظرة؟! انما هو صاحب نحو وشعر ولغة.

قال المتوكل:

- فهل تستطيع أن تسأله.

- ولم لا؟! سوف اهيأ له من الاسئلة ما يعجز عن جوابها!

- سوف نرى!

ومضى ابن اكنم يهيا سؤاله وحباله..

وهتف المتوكل بغلامه النصراني الاثير:

- يا أبانوح! أين أنت

وانطلقا معاً نحو بركة السباع للاستجمام.

(٤١)

كان يحيى بن أكنم جالساً بين يدي الخليفة الذي بدا نصف نائم وينظر بطرف خفي الى القاضي وهو يقرأ اسئلته قبل طرحها على ابن الرضا. وكان «المنتصر» ولي العهد قد بدا في زيّه الرسمي ملكاً مهيباً وعندما حانت التفاته من الأب الى ابنه شعر قليلاً بالغيظ، وخامره شعور بان ابنه سوف يصبح ملكاً وكلما كبر الابن يعني ان الأب في طريقه الى الفناء. ان مجرد تصوّر هذه الفكرة يزعجه، ولذا استوى جالساً وراح يتأمل رجال البلاط بعينين نافذتين.. يحاول أن يغوص في الاعماق الغامضة ويعرف ما يموج فيها من مؤامرات ودسائس.

قال للقاضي الذي استكمل قراءة الأسئلة بشيء من الغرور:

- سلّم الرقعة لابن السكّيت ليرفعها الى ذلك الأسود -.

وفيما كان المتوكّل يتطلع الى القاضي وهو يلف اسئلته، وردت انباء عن حدوث قلاقل في مدينة حمص، واشترك النصارى في الثورة التي اندلعت في المدينة، قال المتوكّل بعد أن قطع على رئيس وزرائه قراءة التقرير:

- اين النصراني الذي فجر بالمرأة المسلمة؟

اجاب القاضي:

- سيقام عليه الحدّ

- لينفذ الحكم أمامي.

وجيء بالنصراني الذي زاغت عيناه من الرعب وعندما لمح الجلادين
أدرك ان نهايته وشيكة سوف يموت تحت السياط..
اقترب من الغلام النصراني ليهمس في أذنه شيئاً.
صاح الخليفة:

- ماذا قلت له يا أبا نوح!

استنكر بعضهم موقف الخليفة الذي كنى غلامه النصراني، قال القاضي:
- يا سيدي لا تجوز تكنية الكافر!

وسكت الخليفة قليلاً ثم أشار الى الجلاد لتنفيذ الحكم ولكن النصراني
الزاني عمل بنصيحة الغلام فصاح:

- اشهد أن لا إله إلا الله.. اشهد أن محمداً رسول الله.

قال القاضي.

- لقد هدم ايمانه شركه وفعله.

قال أحد الفقهاء وكان يراقب ما حصل:

- ان اسلامه لا يدفع عنه الحد.. ولكن يخفف عنه وحدث لغط في
البلاط.

اقترح الفتح بن خاقان رفع القضية الى ابن الرضا.

وعندما حررت رقعة في القضية قال المتوكل:

- اضف الى المسألة مسألة أخرى: هل يجوز لي تكنية غلامي النصراني

أم لا؟

أريد الجواب حالياً.

في منزل الامام كان ابن السكيت يكتب أجوبة الامام عن اسئلة ابن
اكرم.

والقى الامام نظرة في السؤالين الجديدين وكتب بخطه:

- يضرب النصراني حتى الموت.

وكتب تحت السؤال الثاني.

- بسم الله الرحمن الرحيم: (تبت يدا أبي لهب وتب) .

وانطلق الكاتب وقد امتلأت نفسه اجلالاً للأمام الذي وجده كنيع يتدفق

علماً وخلقاً.

هيمن صمت مهيب على البلاط، وهتف القاضي باستياء:

- لا القرآن يقول بهذا الحكم ولا السنة!!

وحدث لغط حول الحكم العجيب وبرقت عينا المتوكل فقد يهزم ابن

الرضا أمام الفقهاء..

ولذا أعاد الرقعة الى الامام ومعها رسالة شفوية تقول:

«ان فقهاء المسلمين قد انكروا ذلك، وقالوا: لم تجيء بهذا الحكم به

سنة ولم ينطق به كتاب.. فبين لم أوجب عليه الضرب حتى يموت؟

وجاء الجواب من الذي أوتي علم الكتاب:

- بسم الله الرحمن الرحيم: (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده

وكفرنا بما كنا مشركين، فلم يكن ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا) .

ورضخ الجميع لحكم القرآن .

وفي قرارة نفسه كان المتوكل قد بدأ يرضخ لشخصية الامام وكلما ازداد ايماناً بهذه الحقيقة، ازداد حقداً وازداد توجساً منه.. انه لن ينفك عن التخطيط للقضاء عليه.. انه الوحيد من بين الجميع لم يطأطىء له رأساً ولم يخش سطوته.

وبدا القاضي بوجهه العبوس انساناً منطقتاً منهزماً خاصة في اعتراضه على المتوكل في تكنية غلامه النصراني، قال في نفسه:
- كأني لم أقرأ القرآن.. ولم أقرأ أبداً سورة اللهب.

واستعادت ذاكرته مشهداً قديماً قبل ربع قرن عندما القى سؤاله العويص على «محمد الجواد» يوم أراد المأمون تزويجه من ابنته واعترض عليه العباسيون!

كان محمد الجواد يومها في العاشرة من العمر تقريباً.. وتمرّ السنون ويدفعه القدر مرّة أخرى الى امتحان ابنه علي الهادي الذي اجتاز العشرين.. وفوجيء القاضي بعودة ابن السكيت الذي اكتست ملامحه بنشوة الظفر..

كان يحمل رقعة ملفوفة بعناية فيها أجوبة اربعة عشرة سؤال.. سلّمها الى القاضي ومضى..

253 وراحت عينا القاضي تعبران على الاسئلة وتتوقفان عند بعض الأجوبة الحساسة..

توقف متأملاً جواباً عن سؤاله: قال تعالى: (أو يزوجهم ذكراً وأناثا) اذ كان الله يزوج عباده من الذكور، فكيف عاقب قوماً فعلوا ذلك؟
وجاء الجواب قوياً:

- «ان الله تعالى زوج الذكران المطيعين ومعاذ الله أن يكون الجليل العظيم عنى ما لبست به على نفسك تطلب الرخصة لارتكاب المحارم، ومن يفعل ذلك يلقي اثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهاناً.. إن لم يتب».

وقفزت عيناه الى سؤال آخر:

- أخبرني عن رجل أقرّ باللواط على نفسه أيحدّ أم يدرأ عنه الحدّ؟

فجاء الجواب:

«اما الرجل الذي أقرّ باللواط على نفسه ولم تقم عليه بينة وانما تطوّع بالاقرار فاذا كان للامام الذي من الله أن يعاقب عن الله، كان له أن يمنّ عن الله.. أما سمعت قول الله: (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) فبدأ بالمنّ قبل المنع..

قد انبانك بجميع ما سألتنا عنه فاعلم».

ادرك القاضي ان المتوكل لم يلتفت الى مدلول الجواب الاخير: «فاذا كان للامام الذي من الله» وما فيها من سلب لشرعية الخلفاء الذين لا تتوفر فيهم شروط الخلافة، ولذا التفت الى الخليفة وقدم له نصيحة مخصصة قائلاً:
- لا تسأل هذا الرجل عن شيء بعد مسائلي فانه لا يرد عليه شيء بعدها

254 إلا دونها وفي ظهور علمه تقوية للرافضة».

اكتفى الخليفة بان صوّب اليه نظرة ازدراء وأدار ظهره إليه ليشعره بوجود إخلاء المكان ولم ينس أن يصدر أوامره بتكثيف المراقبة على منزل الامام وابلاغه بعدم الخروج من البيت حتى لأداء الصلاة في المسجد الجامع.

وفي نفس الليلة كان المتوكل يجتمع مع شلته من المهرجيين وكان علي بن الجهم ومروان ضمن الحضور، بدأت الحفلة بشرب الانخاب كالمعتاد، وكان المتوكل قد وقع اختياره على ابن الجهم لينفس عن عقده النفسية فقال مخاطباً ابن الجهم:

- سمعت أنك خطبت امرأة من قريش فلم يزوجوك لأنك لست قرشياً
وأن عثمان ادخل عشيرتك في قريش ثم أخرجكم علي بن أبي طالب.
أجاب ابن الجهم ثائراً:

- هذه دعوى الرافضة لعنهم الله..

غمز المتوكل مروان ليحطّ من شأنه فقال مروان:

إن جهماً حين تنسبه ليس من عجم ولا عرب
لج في شتمي بلا سبب سارق للشعر والنسب

حاول ابن الجهم أن يتجاهل مروان وأوماً المتوكل لمروان أن يزيد الهجوم عليه فقال:

فخلّ قريش وانسابها فأنت لانسابها سارق
فان كان سامة جداً لكم فأمك مني إذا طالق

وتأجج الحقد في قلب علي بن الجهم ان منافسه مروان يحظى بمنزلة كبيرة أمّا هو فقد اصبح نصيبه الاحتقار والامتهان. قطع المتوكل عليه افكاره عندما سأله:

- يا علي أيما اشعر أنت أم مروان؟

- أنا يا أمير المؤمنين!

التفت المتوكل الى مروان:

- ما تقول؟

- كل أحد اشعر مني ولا أصف نفسي، وما دام أمير المؤمنين راض عني
فما أبالي.

والتفت الى ابن الجهم قائلاً باحتقار:

- أنت أشعر مني؟!!

- أو تشكّ في ذلك؟

- اشدّ الشكّ.. أمير المؤمنين حكم بيننا.

- أمير المؤمنين يحابيك.

تدخل المتوكل قائلاً:

- هذا من عجزك يا ابن الجهم..

وأردف وهو يؤجج نار الاحقاد بين الشعارين:

- لقد أبحت كل واحد منكما في هجاء صاحبه.

والتفت الى أحد اصدقائه:

- احكم بينهما يا بن حمدون.

قال ابن حمدون.

- طرحني بين أنياب ومخالب.. واما إذا أمرت فان اشعرهما عندي

256 أعرفهما في الشعر.

قال المتوكل:

- قد سمعت يا علي.

قال ابن الجهم وقد نخره الحسد:

- انك تميل اليه.

- هذا عيٌّ منك وعجز.. ان كنت شاعراً ماهراً فلا أفضله عليك.. اهجه اذا استطعت.

وجم ابن الجهم.

فقال الخليفة منتشياً بالمعركة:

- اهجه يا مروان.

فاندفع مروان:

ان ابن جهم في المغيب يعيني ويقول لي حسناً اذا لاقاني
فاذا التقينا نال شعري شعره ونزا على شيطانه شيطاني
صغرت مهابته وعظم بطنه فكأنما في بطنه ولدان
ان ابن جهم ليس يرحم أمه لو كان يرحمها لما هجاني
ودوت ضحكات المتوكل وامتلاً البلاط بضحكات الحاضرين..

التفت المتوكل الى مروان:

- بحياتي عليك ان حضرك شي آخر فهاته.

اندفع مروان ليسدد ضربته الأخيرة الى ابن الجهم فشبهه بالمرأة قائلاً:

بنت جهم يا عليه صرت بعد قرشية

قلت ماليس بحق اسكتي يا نبطية

اسكتي يا بنت جهم اسكتي يا حلقيه

راح المتوكل يرفس برجليه من شدة الضحك_ وراحت الكؤوس تدور
مرة أخرى.. وكانت برهان الجارية الحسنة تحمل دنأ بلورياً فقال لها
المتوكل:

- صبى الكأس في فمي.

وراحت الحسناء تصب الخمر في فم الخليفة السكران.

وكانت ليلة حمراء مثقلة بالمتع الآثمة.

وفي الصباح كان ابن الجهم يحزم امتعته فقد صدر أمر بنفيه الى

خراسان_ ولم تنفع توسلات الشاعر الحقير الذي باع نفسه للشيطان.

(٤٢)

كان محمد بن الفرّج الذي زج في السجن.. سجن المطبق الرهيب منذ سنة ٢٣٢ يصلي الظهر عندما ناداه السجان وسلمه رسالة قادمة من سامراء..

وعندما فض الرسالة أدهشته جملة تقول:

- يا محمد لا تنزل في ناحية الجانب الغربي.

قال في نفسه:

- يكتب اليّ وأنا في السجن!!؟

رجال شرطة السجن يعرفون محمداً هذا ويعرفون أنه شقيق عمر بن الفرّج الذي انحدر بشخصيته الى الحضيض ورضي أن يصبح جلاّداً بعد أن كان من المع رجال البلاط..

كانوا يحترقونه لأنه يقدم على خطوة واحدة للتخفيف عن محنة أخيه في السجن، ولم يتوسط أبداً لاطلاق سراحه.. كانوا يتمنون أن يروا عمر مكان أخيه وكانوا يتبارون فيما بينهم عن حجم العذاب الذي سوف يصبونه عليه لو حصلت تلك المعجزة..

259

لقد القي في السجن فيما مضى مدّة من الزمن، ولكنه استطاع أن يحصل على أمر باطلاق سراحه مقابل بعض الخدمات.. لقد باع نفسه للشيطان.. أنه على استعداد أن يلبي كل رغبات المتوكل حتى لو أمر بقتل أخيه لفعل ذلك!

وحصلت المعجزة في زمن قلّت فيه المعجزات وبدأت الحوادث بأن لفق عمر بن الفرج تقريراً عن صاحب خانات بغداد يتهمه فيها بأنه سبّ صحابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فدوهم خان بغداد واعتقل الرجل وسيق مخفوراً ليمثل أمام قاضي الشرقية «أبو حسان الزيادي» الذي تسنّم القضاء مطلع العام أي قبل أشهر معدودة.

لم يجد عمر بن فرج صعوبة في العثور على الشهود فحشد سبعة عشر شخصاً تضاربت شهاداتهم في المحكمة ومع ذلك فقد «دين الرجل البريء». ولكن الحقيقة أن الجواسيس المزروعين في خانات بغداد سمعوه يهاجم سياسة المتوكل، وهدمه قبر سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الحسين بن علي لأنها سابقة خطيرة جداً لم يجرؤ عليها حتى الامويين.

ولكي يُعدم الرجل لُفقت له هذه التهم الباطلة واعتقل بسبب سبّه المزعوم للصحابة..

ولعل الذي حصل انه لعن كل من يسبّ علياً (عليه السلام) ومعنى هذا أنه يلعن خليفة المسلمين..

ورُفعت القضية الى سامراء.. الى الوزير الحاقد عبيدالله بن يحيى الذي

260 رفعها بدوره الى المتوكل فجاءت الأوامر كما يلي:

- «يضرب المتهم ألف سوط.. وحتى الموت ثم تلقى جثته في مياه دجلة دون اجراء مراسم الصلاة باعتباره خارجاً على الشريعة ملحداً في الدين..».

وفي نفس اليوم اطلق سراح محمد بن فرج بعد ثمانية أعوام قضاها في سجن المطبق الرهيب، والعجيب أن يلقي القبض على أخيه عمر بن فرج ويحكم بالسجن، وأن يصفع يومياً.

أما محمد فقد انطلق الى خان بغداد بسبب استمرار تجميد جميع أمواله، وهناك سمع تفاصيل عن قضية صاحب الخان الذي القي القبض عليه.

كثيرون من أهالي بغداد حضروا تنفيذ الحكم وشهدوا مقاومة الرجل وكان شيخاً وقوراً، ظل يقاوم السياط القاسية ببسالة أما محمد بن عبدالله بن طاهر حاكم بغداد، فقد اكتفى بالنظر اليه بقسوة لا مثيل لها..

في السوط الثلاثمئة اسلم الشيخ البريء الروح، وظل جسده الملتهب يتلقى السياط دون ألم.. لقد حلقت روحه بعيداً.. تركت هذا الإهاب الطيني، الى عوالم مغمورة بالسلام.

القي جثمان الشيخ في مياه دجلة الحزينة فحملته بعيداً الى شواطئ مهجورة.

وفي مدينة حمص الثائرة كان الجنود الاتراك يعيشون فساداً بعد قمع الثورة، فتهدمت صوامع وبيع وكنائس يذكر فيها اسم الله.

وكشفت المتوكل عن وجه الطاغية بعد أن وصلت أوامر رهيبة في تنفيذ احكام الاعدام:

- يجلد زعماء الثورة حتى الموت.

ثم يصلبون على أبواب منازلهم.

يرسل عشرون من أبرز وجوه المتمردين الى سامراء.. بعد جلد كل واحد منهم ثلاثمئة سوط.. تهدم جميع الكنائس في المدينة وطرد جميع النصارى من المدينة!

كان الفصل صيفاً قائظاً وشمس آب ترسل من اللهب ما يشوي الوجوه.. ووقع حادث عجيب إذ تحشدت في سماء سامراء غيوم لا يعرف من أين قدمت، ومالبت الرعود أن دوّت في الفضاء.

وتدفق المطر غزيراً_ وكانت أجساد المصلوبين تغتسل في المطر. وفي بغداد انقضت الشهب والنيازك_ منذ الساعات الأولى من المساء وظلت تنهمر مثل المطر وذلك مساء الاربعاء سنة ٢٤١هـ آب سنة ٨٥٥م. وأغارت الجيوش الرومية على حدود الدولة الاسلامية وأسرت آلاف من «الزط» نساءً ورجالاً وأطفالاً كما ساقت آلاف المواشي_.

كما تعرّضت الدولة الاسلامية في حدودها الغربية الى غارات «البيجة» للسيطرة على مناجم الذهب والماس.

وفي منتصف الليل دوهم منزل الامام وأخذ مخفوراً الى قصر المتوكل وهناك أودع في سجن في سرداب القصر وفي اليوم التالي انتشرت شائعات حول نية الخليفة في اغتيال ابن الرضا.

262 من أجل هذا جاء رجل من أقصى المدينة يسعى.. جاء يتنسم أخبار ابن الرضا، فولج القصر وهو يكتم ايمانه، انضم الى جموع الناس التي كانت تنتظر قضاء حوائجها.

كان «زرافة» الحاجب بطوله الفارع الذي يشبه الزرافة يؤدي عمله، عندما وقعت عيناه عليه أوماً اليه.

- يا صقر ما شأنك.. هل جئت لشيء؟

- خير أيها الاستاذ.

وأشار اليه:

- اقعد.

وانتحي صقر زاوية في المكان واجتاحته موجة من الندم وشعر بأنه وقع

في ورطة.. ماذا يقول للحاجب.. ليس هناك ما يبرر مجيئه؟!

ان زرافة ليس من الغباء بحيث لا يعرف لماذا حضر بن أبي دلف الى

القصر.. لقد جاء يسأل عن ابن الرضا.

قال زرافة بعينين نافذتين:

- لعلك تسأل عن مولاك؟

قال صقر متوجساً:

- ومن مولاي؟ مولاي أمير المؤمنين.

اشار بكفه الغليظة الى فمه:

- اسكت مولاك الحق هنا.. في سرداب القصر لا تحتشمي اني على

رأيك.

- الحمد لله.

- اتحب أن تراه؟

- نعم.

- انتظر حتى يخرج مسؤول البريد.

وعندما غادر صاحب البريد، قال زرافة لغلام له:

- خذ بيد صقر وارشده الى الرجل العلوي المحبوس..

وأضاف:

- اتركهما لوحدهما!

تقدم الغلام الذي أخذ معه مشعلاً الى السلالم المؤدية الى سرداب القصر.. ووجد نفسه في ظلمات متكاثفة.. واجتاز الغلام بعض الممرات وكانت الخطى يتردد صداها في الفضاء الخالي، وخيل الى صقر انه سمع زئير أسد من وراء الجدران الصخرية.

أوماً الغلام الى حجرة وتركه عائداً من حيث أتى.. وتقدم صقر من الحجرة متوجساً، وتناهى إليه صوت تلاوة حزينة:

- «فاتقوا الله واطيعون.. وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين.. أتبنون بكل ريع آية تعبثون؟! وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون?!

وإذا بطشتم بطشتم جبارين.

فاتقوا الله واطيعون.

واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون..

أمدكم بأنعام وبنين..

وجنّات وعيون..

اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم..

قالوا: سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين..

إن هذا إلا خلق الاولين..

وما نحن بمعذبين..

فكذبوه فاهلكناهم.. إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين..

وإن ربك لهو العزيز الرحيم..»

وولج صقر الحجره فألقى مولاه جالساً على حصير والى جانبه قبر

محفور.

- سلام عليك.

أشار الأمام اليه أن اجلس:

- سلام عليك..

وبعد لحظات صمت قال ابن الرضا مشفقاً عليه:

- يا صقر ما أتى بك.

قال صقر بحزن:

- سيدي جئت أتعرف خبرك.

والقى نظرة على القبر واجهش بالبكاء فقال الامام بحب:

- يا صقر! لم يحن الأجل بعد.

- الحمد لله!

تساءل صقر بعد لحظات سكوت:

- يا سيدي حديث يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا أعرف

معناه.

- وما هو؟

- قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تعادوا الايام فتعاديكم.

أجاب الإمام:

- نحن الأيام ما قامت السموات والأرض.

السبت: رسول الله.

الأحد: أمير المؤمنين.

الاثنين: الحسن والحسين.

الثلاثاء: علي بن الحسين، محمد بن علي وجعفر بن محمد.

الأربعاء: موسى بن جعفر، علي بن موسى، محمد بن علي، وأنا.

الخميس: ابني الحسن.

الجمعة: حفيدي واليه تجتمع عصبة الحق.. وهو الذي يملأ الدنيا قسطاً
وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

هذا معنى الأيام فلا تعادوهم في الدنيا، فيعادوكم في الآخرة.
وقال الامام:

- اتحب أن ترى بقعة من بقاع الجنة يا صقر؟

- نعم يا سيدي!

- انطلق الى طوس وزر قبر جدّي الرضا!

اغتسل وصل عند رأسه ركعتين.

ان موضع قبره لبقعة من بقاع الجنة، لا يزورها مؤمن إلا اعتقه الله من
النار، واحلّه دار القرار».

وعندما مضت ساعة قال الامام:

- ودّع واخرج فلا آمن عليك.

ربما يعتقلونك بسبب زيارتك لي.

كان صقر يودّ لو امتد به اللقاء الى مالا نهاية.. انه يشعر في حضرة هذا
العلوي الطاهر بأنه يجلس على ضفة نهر ظليل.. يشمّ شذى الورد والكلمات
المضيئة التي تتدفق من نبع الحقيقة.

نظر الى رجل أوجب الله طاعته على الناس.. وتأسف لهذه الأمة التي
ضيعت رجالها فضاعت، ولم تحترم قاداتها الحقيقيين فسحقت تحت
الاقدام..

يالهوان الدنيا؟!

يتربع رجل تافه على عرش الحكم..بينما يلقي بالانسان الطاهر في
ظلمات السرايب!!

وقبل أن يغادر اضاء الامام له قنديلاً من الحقائق:

- «الدنيا سوق.. ربح فيها قوم.. وخسر فيها قوم آخرون»-.

(٤٣)

ليس هناك من يعرف بالضبط السبب الذي دفع المتوكل الى طرد القاضي ابن اكثم من مناصبه في سلطة القضاء ومحكمة الاستئناف ومصادرة أمواله.

ولكن من المؤكد أن الجميع يعرفون تلذذ الطاغية في رؤية مشهد السقوط المدوي..

أمر عجيب لقد قام المتوكل برفعه من الحضيض الذي قذفه فيه المأمون عندما قال عنه: «فيه خبث سريرة وسوء طوية» وأوصى أخاه المعتصم ألا يقربّه ولا يستوزره..

ولم يكن المتوكل يكن احتراماً لأبن اكثم ولكن توصية أحمد بن حنبل جعلته يعينه رئيساً لسلطة القضاء..

هو الآن جليس البيت يقبّ كفيه فيراها صنفراً من كل ما جمعه من الأموال أخذوا منه خمسة وسبعين ألف دينار، وعثرت الشرطة اثناء التفتيش على الفي دينار كان قد اخفاهما داخل اسطوانة وها هو يتلقى أمراً باخلاء القصر الهاروني.. كما سمع بمصادرة الدولة أربعة آلاف جريب له في البصرة.. ففكّر بالذهاب الى مكة.. لقد بات فقيراً معدماً.. لم يعد يملك في العراق ناقة ولا جمل..

اطلق سراح الامام في الليل سرّاً ولم يسمع أحد باعتقاله كما لم يسمع أحد باطلاق سراحه.. ما يزال الامام جليس البيت يخشى الناس زيارته لما

يترتب على ذلك من تنكيل وقد منع من مغادرة البيت إلا إذا أراد الذهاب إلى أرضه للعمل.

في المدينة التي تشبه معسكراً كبيراً، وبالرغم من ضجيج الحياة وكثرة الباعة في الأسواق فإن الشوارع تكاد تكون مقفرة إلا من روث الدواب فالأتراك لا يتركون عاداتهم في ركوب صهوات الجياد بكامل اسلحتهم ولا يكادون يراعون النظام وقد اعتاد الناس هذه الفظاظة، لأنهم في كل الأحوال لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً من ثقافة هذه المدينة التي أنشئت في الأساس كثكنة عسكرية لايواء مئتين وخمسين ألف جندي تركي مع أسرهم.

كان هناك رجلان غربيان يتجولان في المدينة أحدهما أعرابي رث الثياب لكأنه وصل تَوّاً من صحراء قاحلة جرداء.. وآخر يمتطي بغلة رمادية اللون يقودها غلام.

قال الغلام وقد شعر بالتعب:

- كيف تريدنا نعرش عليه دون سؤال؟!

قال الرجل الذي يرتدي زي النصارى:

- أما سمعت في الخان.. ان الخليفة قد منعه من مغادرة المنزل والسؤال

عنه يعرضنا للخطر.. هذه مدينة مليئة بالجواسيس..

واستأنف بعد لحظات صمت:

- أنا أخشى الخليفة.. وهذا ابن الرضا رجل مبارك لقد سمعت الكثير من

كراماته.. انني اعتقد ببركته.. انه ابن نبي!

فغر الغلام فاه!

- فلماذا لا تعتنق الاسلام؟

- يا بني ليس سهلاً أن يدع الانسان دين الأجداد.

وعندما ولجا درب الحصا شمّ رائحة أرض مرشوشة بالماء وداخله شعور بأنّ المنزل الذي يبحث عنه يكمن هنا قال لغلامه:

- اطرق الباب واسأل لمن هذا المنزل.

تقدّم الغلام وطرق الباب طرقات خفيفة، وفي باله أن يبحث عن عذر مقبول كأن يطلب شربة ماء مثلاً!

انفتح الباب وظهر غلام شديد السواد كلؤلؤة سوداء..

سأل الغلام بعد أن حيّاه.

- لمن هذه الدار؟

- لابن الرضا.

وأردف بعد أن أشار الى الرجل الذي يمتطي دابّته:

- أنت يوسف بن يعقوب؟!

ودهش النصراني الذي بادر قائلاً:

- نعم!

- انزل!

270 ترجل يوسف ومضى يتبع الغلام الأسود، الذي قاده الى الدهليز وأمره

أن ينتظر.

دخل كافور حجرة تفوح منها رائحة الورد ثم خرج بعد لحظات ليقول:

- أين المئة دينار؟

كاد يوسف يصعق من المفاجآت: كيف عرف ابن الرضا أنني حملت له مئة دينار هدية؟!

أخذ الغلام صرة الدنانير وولج الحجرة مرّة أخرى ليظهر بعدها قائلاً:
- تستطيع الدخول.

نهض يوسف وولج الحجرة المفعمة برائحة الورد كان ابن الرضا جالساً وحده فنظر اليه بعطف وحنان وقال:
- أما آن لك؟!

وأدرك يوسف أنه يدعوهُ الى الاسلام رسالة الله الآخيرة.
فقال:

- يا مولاي قد بان لي من البرهان مافيه الكفاية.

أجاب الامام وهو يعرف تشبته بدين الآباء:

- هيهات.. انك لا تسلم..

وسكت لحظات ليقول:

- ولكن سيسلم ولدك.. سيكون من شيعتنا..

ونظر من خلال كوة الى الافق الازرق البعيد وتمتم:

- يا يوسف ان أقواماً يزعمون ان ولايتنا لا تنفع أمثالك... امض فيما

وافيت له.. سوف ترى ما تحبّ.

ونهض النصراني الذي شعر بان البركة تغمره.. انه لم يشعر بالطمأنينة إلاّ

في حضرة هذا السيّد المبارك!

نهض واثقاً من أن الخليفة لن يمسه بسوء بل أنه سوف يحقق هدفه من لقاء المتوكل.. فغادر الحجرة آمناً تملأ السكينة قلبه وفي ذكراته مشاهد متألفة عن زهد يشبه زهد الانبياء..

لم يمض من الوقت سوى لحظات عندما نهض الامام ليرتدي ثيابه فقد آن له الذهاب الى أرض زراعية له يعمل فيها..

الأعرابي الذي كان يجتاز الأزقة والشوارع باحثاً عن منزل ابن الرضا وصل الى درب الحصا بعد أن عثر على من يرشده..

طرق الباب فخرج اليه صبي في العاشرة اسمر الوجه حياً الأعرابي بأدب وأخبره بأن ابن الرضا يعمل في قرية خارج المدينة وأرشده الى الطريق التي توصله اليه.

ومضى الأعرابي لا يلوي على شيء.. اجتاز الشوارع والاسواق ثم وجد نفسه خارج المدينة كان الوقت ضحياً وشمس خريفية تغمر الدروب الملتوية خلال الزروع فيما ظهر دير على ضفاف النهر تحيطه الكروم. وعندما وصل الاعرابي القرية لم يجد صعوبة في العثور على الرجل الذي يبحث عنه.

272 كان الشاب العلوي مستغرقاً في عمله في أرض تفوح منها رائحة طيبة..

حيّاه بأدب وابتسم العلوي الأسمر وهو يردّ التحية باحسن منها.. قال الاعرابي وقد تألفت عيناه بالأمل:

- يا بن رسول الله! أنا رجل من أعراب الكوفة ومن المتمسكين بولاية جدك علي بن أبي طالب، وعليّ دين فادح عشرة آلاف درهم، ولم أر من أقصده سواك.

غمر الحزن الوجه الاسمر.. الناس البسطاء يتضورون جوعاً والمترفون من الحاكمين ينهبون خيرات الأرض..

دعا الامام الأعرابي الى الجلوس فجلس عند جذع شجرة وجلس الامام بعد أن أستخرج قلماً ورقعة ودواة وكتب صكاً بمبلغ عشرة آلاف درهم يتوجب تسديده بتاريخ هذا اليوم..

قال الامام وهو يسلمها الى الاعرابي:

- خذ هذه الورقة فاذا جئت منزلي في «سر من رأى» وحضر عندي جماعة فطالبني بالدين الذي في الورقة، واغلظ عليّ في ترك ايفائك..

- يا سيدي لا استطيع أن أفعل ذلك!

- لا تخالفني فيما أقول لك.

نظر الاعرابي الى الوجه الاسمر المضيء.. الجبين الواضح تجمعت فوقه حبات عرق الفلاحين كلؤلؤ منضود، وقد فاحت رائحة زكية.. وقبل أن يغادر الاعرابي قال مستغرباً:

- سيدي أين الرجال؟! أتباشر العمل بنفسك؟!

- قال الامام وهو يمسك بالمسحاة بقوة:

- قد عمل بالمسحاة من هو خير مني ومن أبي في أرضه.

- من هو يا سيدي؟!

- رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين وآبائي كلهم
 عملوا بأيديهم وهو من عمل الانبياء
 والمرسلين والأوصياء الصالحين..
 هتف الاعرابي وهو يغادر الأرض الطيبة:
 - السلام عليك وعلى آبائك الطاهرين.
 وفي الأصيل كان الاعرابي يترصد من بعيد الباب المشرعة لاستقبال
 الزائرين..

ومرّت ساعة ورأى ألواناً من الناس تفد الى المنزل، تدخل ورأى بعض
 الوجوه القاسية تدخل هي الأخرى ولفت نظره شيخ طيب تبدو عليه سيما
 الصلاح ترجل عن برذونه ودلف الى المنزل فدلف معه الاعرابي..
 وهبّ الامام لاستقبال الشيخ قائلاً:

- مرحباً بأبي هاشم.

لم يجلس الاعرابي وانما ارتدى جلد النمر وهو يمسك بالرقعة ملوحاً:
 - لقد جئت لاستيفاء الدين الذي بذمتك.

أجاب الامام معذراً:

- ولكن ليس بحوزتي شيء من المال فأمهلني.

- الى كم هذا التسويف!؟

- لو كان عندي مال لاعطيتك يا أخا العرب.

- كلاً لن أخرج من العسكر حتى استوفي المال.

قال الامام بلهجة فيها محبة:

- أجّلني الى غد أو بعد غد.

- سأبيت الليلة في الخان وأعود صباح غد.

وغادر الأعرابي المنزل فيما كانت بعض العيون تبرق كعيون الأفاعي..
مع ارتفاع الأذان للصلاة من فوق المأذنة الملوية، التي بدت كفنار في
مرفأ مهجور.. غادر الجميع المنزل باستثناء أبي هاشم الجعفري.
انطلق رجل تبرق عيناه كأفعى الى القصر وقدم تقريراً مفصلاً عما جرى
في منزل ابن الرضا ولم ينس بطبيعة الحال قصة الأعرابي..

كان الامام جالساً فوق حصير في حجرة مفروشة بالحصا، ليس فيها من
زخرف الحياة شيء غير سيف هو ذكرى والده الراحل.. وقد بدا السيف في
غمده مقهوراً لكانه ينتظر لحظة الانطلاق في دروب الثورة والجهاد.
وفي الصباح كان المتوكل قد أمر بحمل ثلاثين ألف درهم الى منزل
الامام لتسديد ديونه وعندما جاء الاعرابي ناوله الامام المبلغ كله قائلاً:

- خذ هذا المال فأقض به دينك، وانفق الباقي على عيالك.

واهتز الاعرابي لخلق الامام الكريم:

- ان ديني يقتصر على ثلث هذا المبلغ يا سيدي!

- انه لك انفقه على عيالك!

وأخذ الأعرابي كيس النقود وهو يردد مأخوذاً:

- الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وانقلب الاعرابي الى أهله مسروراً يملأ صدره بالهواء الطلق.

(٤٤)

حل شتاء سنة ٨٥٦م وكان بدر شعبان قد أخذ بالتناقص ووصلت انباء محزنة: فقد ضربت الزلازل المنطقة الوسطى من إيران وقد لقي آلاف الناس حتفهم تحت الانقاض..

كان منزل الامام مغمور بالسكينة وقد شابهته حالة من الحزن.. لزم ابن الرضا الفراش وقد ألمت به وعكة صحية..

وصل أبو هاشم المنزل متأخراً، وعندما وضع كفه على الجبين الاسمر ألفاه يتوهج من شدة الحمى..

فتح ابن الرضا عينيه وعندما وقعتا على أبي هاشم غمغم:

- ابعثوا رجلاً الى الحائر_ يدعولي.

كان أبو هاشم الذي قدم من بغداد متعباً لا يستطيع أن ينفذ هذه المهمة.. لهذا غادر المنزل للبحث عن أحد اصدقاء الامام فطرق منزل علي بن بلال وعندما جلس لحظات قال:

- ان سيدنا ابن الرضا يطلب من أحدنا أن ينطلق الى الحائر للدعاء له قال

علي بن بلال وقد انبعث في قلبه سؤال: 276

- ما يصنع بالحير وهو الحير؟!

الحسين امام وهو امام فلماذا الدعاء عند مرقد الحسين، وما الفرق بين

إمام وإمام؟!

وسكت أبو هاشم، ولكن ابن بلال أعرب عن استعدادة للذهاب نزولاً عند رغبة الامام..

وعاد أبو هاشم الى منزل الامام.. جلس عند ابن الرضا.. الوجه الاسمر يتألق نوراً وسكينة ان قلق العالم كله لن يستطيع يؤثر على صفاء هذا الانسان الذي مسّه الله وطهره تطهير..

لم يمكث أبو هاشم سوى وقت قليل ثم غادر المنزل متجهاً الى شارع الخليج حيث ترسو القوارب والسفن الشراعية.. وهناك على الشاطئ الرملي وحيث تندفع أمواج دجلة جلس الرجل الذي هدّت قامته السنون وراح يدندن بأبيات شعرية ليروّح بها عن نفسه:

في المساء وبعد أن تألقت الغيوم في السماء جاء أبو هاشم يتفقد صحة الامام فوجده منطلق الوجه طيباً فجلس عنده وراح يتأمل وجهه المضيء فتألق في أعماقه اسم فاطمة الزهراء فتساءل:

- لم سميت فاطمة: الزهراء.

قال ابن فاطمة:

- كان وجهها يزهر لأمير المؤمنين من أول النهار كالشمس الضاحية وعند الزوال كالقمر المنير، وعند غروب الشمس كالكوكب الدرّي، وعندما أراد أن ينهض مودّعاً قال له الإمام:

- اجلس.

وعاد الى جلسته وقد أشرقت نفسه بالنور وتذكر كلمات ابن بلال فقال:

- ان ابن بلال قال: ما يصنع بالحير وهو الحير!

أجاب الامام ليؤكد مجد الحسين:

- ألا قلت له: إن رسول الله كان يطوف بالبيت ويقبل الحجر الأسود، وحرمة النبي والمؤمن أعظم من حرمة البيت؟

- جعلت فداك لو كنت أعرف مثل هذا الجواب لم أرد عليك.

- يا أبا هاشم هذه مواطن يحب الله أن يتعبّد له فيها، فأنا أحب أن يدعى لي حيث يحب الله أن يُعبّد.

يا أبا هاشم أن الله عز وجل جعل من أرضه بقاعاً تسمى المرحومات، أحب أن يدعى فيها فيجيب، والله عز وجل جعل من أرضه بقاعاً تسمى المنتقمات، فإذا كسب الرجل مالاً من غير حلّ سلّط الله عليه بقعة منها فانفقه فيها.

كان الظلام قد أصبح حالكاً فسطعت النجوم. ونهض أبو هاشم ليغادر المنزل، وخيل إليه أنه رأى شبحاً يمرق في الظلام..

لشدة ما يمقت هذه المدينة المليئة بالأشباح والجواسيس.. جواسيس لا يمكن أن يكتشفهم، فربما كان الجاسوس غلاماً أو جارية.. ربّما كان شحاذاً يصادفه المرء عند أبواب المساجد..

هناك عشرات الآذان التي تنصت لكل ما يقال.. وآلاف العيون التي تبرق كعيون الافاعي.. وعشرات الوجوه المثلثة..

ومضى أبو هاشم يشق طريقه في الليل وحيداً يفكر.

في الصباح كانت سامراء تضحج بالحركة والحياة، بعد الاعلان عند توقيع هدنة مع الروم سوف يفرج عن الأسرى بعد أن نجح نصر بن الأزهر في مهمته في القسطنطينية.

رياح كانون تهبّ قارسة البرد لكنها لم تبدد الفرجة التي عمت بغداد حيث تدفق الكثير من أهلها الى سامراء لمرافقة الوفد الذي سيتجه الى شواطئ نهر «اللامس» حيث تتم هناك عملية الافتداء.

وأعلن ان القاضي جعفر بن عبدالواحد سوف يشهد عملية فداء الاسرى، وقد أناب في منصبه فتى يدعى «ابن أبي الشوارب».. وعندما أهل شهر رمضان كان كانون الثاني قد رحل تاركاً هبوب الرياح الباردة لشباط، وكان الناس يتطلعون الى عيد الفطر بشوق فهو اليوم الذي تعين أن يكون موعداً لفداء الف رجل وامرأة يعيشون تحت نير الروم.

وفي المساء دشّن المتوكل قصره الجديد «المليح» الذي فرغ العمل منه وكان جاهزاً لاستقبال الخليفة منذ اسبوع وقد كلف بناؤه 5/000/000 درهم.

جلس المتوكل مسترخياً فوق سرير ذهبي يستمع الى قصيدة البحري:

| | |
|-------------------------|------------------------|
| واستمم الصبح في خير وقت | فهو مغنى أنس ودار مقام |
| ناظر وجهه المليح قلوب | يسطيع معلناً بالسلام |
| البسا بهجة وقابل ذا ذاك | فمن ضاحك ومن بسام |

وبعدها قدّم مشعوذ هندي بعض الألعاب السحرية.

وفي آخر الليل استحال البلاط الى بؤرة للرديلة.. وكان المهرجون يفعلون كل شيء يجعل المتوكل منبسطاً مرحاً، وكان الخليفة قد ثمل تماماً فدخل بغا الشرابي ليصرف الندماء ويقود الخليفة الى مخدعه خلف الستائر الحريرية.

(٤٥)

انفجر الوضع داخل البلاط بعد تنامي نفوذ زوجة الخليفة اليونانية الاصل.. فهذه المرأة الطموحة التي كانت في الاصل مجرد جارية حسناء استغلت كل الوسائل في السيطرة على زوجها الذي اصبح طوع بنانها.. ثم مدّت نفوذها الى البلاط عبر رئيس الوزراء الفتح بن خاقان الرجل الثاني في الدولة، وشيئاً فشيئاً أصبحت «قبيحة»_ المرأة القويّة في البلاط. وهاهي الآن تدفع ابنها المعتز الى كسب المزيد من النفوذ حتى غدا ابن القصر المدلل..

وحتى اصبح قصره «بركوارا» الذي كلف بناؤه عشرين مليون درهم_ من أجمل قصور سامراء.

ثم فوجيء الجميع بظهور عملة جديدة للدرهم تحمل اسم المعتز وهذا ما أثار كثيراً من اللغظ.. لأنه يعدّ إهانة لولي العهد الأول «المنتصر» واكتشف الجميع أن زوجة الخليفة قد باتت الحاكمة الفعلي للبلاد.. خاصة بعد أن ظهر بان الخليفة قد عين ولده المعتز مسؤولاً أعلى لخزائن الدولة ودور الضرب وسك النقود..

وأخذت الدسائس في القصر طابعاً خطيراً بعدما تجرأ «عبيدالله بن يحيى» الوزير المتنفذ في البلاط على تقديم تقرير الى الخليفة حول ميول ولي العهد «المنتصر» وتعاطفه مع العلويين، وهذا اتهام خطير قد يؤدي الى الموت.

وقد تناقل الناس أستياء المنتصر من تصرفات أبيه المعادية لأهل البيت خاصة اقدمه على تدمير مرقد الحسين (عليه السلام).

وفي بغداد وسامراء بدأ الهمس الخائف عن «المهدي» من ذرية فاطمة الذي «سيخرج فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً».

لم يعد التكهن بتصرفات المتوكل بعد اليوم، اصبح هدفه الوحيد الاستمتاع بالمتع الآثمة.. وقمع من يتصوره يقف في طريقه.. يجب أن يستحيل الشعب الى بقرة حلوب لا تعرف غير الطاعة ودرّ اللبن وبسخاء وإلا فسوف يحلب الدماء حتى الموت..

يجب أن يتحول الناس الى عبيد له.. لا يعرفون غير تنفيذ أوامره والخشوع في حضرته.. واكثر ما يربعه أن يرى انساناً حراً مستقلاً التفكير.. انه بهذا يتحداه ويواجه حكومته..

من أجل هذا عندما وصله تقرير عن ميول ابن السكيت الشيعية استدعاه ليرهبه..

كان ابن السكيت الذي قضى أعواماً في تعليم المعتز والمؤيد والمنتصر قد اخفق في بذر فكرة الخير في قلب المعتز الذي نشأ في احضان امرأة فاسدة.. اما المؤيد فقد نشأ ضعيف الارادة تماماً.. ولكنه يأمل خيراً من

المنتصر، فهذا الشاب الذي نشأ في احضان فتاة صالحة متديّنة قد بدأ يفتق عن عقل فذ وإرادة واستقلال في التفكير وتعاطف مع الخير والعدل..

دخل ابن السكيت البلاط ليقف وجهاً لوجه أمام الطاغية الذي يحفه حرس شديد وقد بدا «باغر» بطوله الفارع وقسوة ملامحه عملاقاً كالذي

تصفه الحكايات البغدادية.. ولوهلة تذكر مسرور خادم الرشيد ذلك الكائن الغامض الذي ينطوي على كثير من الاسرار.

ظل ابن السكيت واقفاً وذهبت تحية للخليفة ادراد الصمت الذي جثم فوق البلاط..

كان المعتر والمؤيد واقفين يرتديان الزي الرسمي، والحرس التركي يقف كالتماثيل الحجرية كما اصطف عشرة من الحراس الزوج بأيديهم الرماح الطويلة كل هذه المخلوقات تنتظر مجرد اشارة واحدة من هذا المخلوق الضئيل الأصفر الساقين.. انه يستمد جبروته من خنوع هذه النفوس الآدمية التي انسلخت عن انسانيته واستحالت الى قطع من الذئاب البشرية. تصور المتوكل أن ابن السكيت قد أربب بمافيه الكفاية، وأنه سوف ينهار مع أول كلمة.. سوف يهزم وسيطيح بحرّيته وكرامته فالبقاء حيّاً يستحق كل التضحيات.. حتى بالكرامة قال المتوكل دون مقدّمات:

- يا يعقوب! أيهما أحبّ اليك ولداني هذان.. أم الحسن والحسين؟
تفجّر غضب مقدس في اعماق ابن السكيت.. لم يرَ أمام عينيه سوى جثة محنّطة.. فهذا الطاغية يريد سحق كرامته وهيئات؛ أجاب بكلمات تتشظى بسالة وتحدياً:

282 - والله ان قنبر خادم علي خير منك ومن ابنك!

استحال الطاغية الى ذئب لم يكن ليخطر في باله أن يسمع مثل هذا الجواب.. اشار الى حرسه التركي فانقضوا عليه كالوحوش.. وراح الانسان الذي ثار لكرامته يتلقى الركلات

بصبر عجيب حتى هوى فوق أرضية البلاط.

وأمر المتوكل جلاداً أن يستلّ لسان الضحية من قفاهِـ.
وغمغم المعتز وهو يضع قدمه فوق عنق معلمه بندالة:
- إذا وليت الخلافة لأبيدن آل أبي طالب.

وفي المساء حمل قارب شراعي جثمان الشهيد الى بغداد حيث دفن
هناكِـ.

وعندما سمع الامام الهادي بالنباّ تجمعت في عينيه الدموع لقد فقد
صديقاً عزيزاًِـ وعالماً كبيراً، وانساناً كريماً وفي اليوم التالي تسرّبت أخبار
أكيدة عن نية الخليفة السفر الى دمشق واتخاذها عاصمة لهِـ، كما شيّع
جثمان كاتب البلاط ابراهيم الصولي.

وفي المساء كان الفرّاشون يفرشون دكّة مرمرية واسعة في الحديقة
الخلفية من القصر حيث نبتت اشجار الآس.. وفيما كان المنتصر ولي العهد
الذي تآزمت علاقاته مع والده في طريقه بين قصر الجوسق الخاقاني الى
قصر «المليح» كان المتوكل قد اتخذ مكانه بين الوسائد الوثيرة فيما انتصب
خلف الاشجار حرس تركي.. أما «باغر» فقد وقف قريباً من الخليفة وفي
راسه تموج طموحات لا يعرفها أحد، ولم يلحظ أحد أيضاً علاقاته الوثيقة
مع موسى بن بغا الذي حمل اسم بغا الصغير والذي اختص بتقديم دنان
الخمير والاشراف على حفلات الخليفة.. أما أبوه بغا الكبير فقد غادر سامراء
الى الشام استعداداً لغزو جديد.

أراد المتوكل استفزاز ابنه الذي ثبت لديه تعاطفه مع العلويين واستيائه
من سياسته تجاههم. قال له متهكماً:

- يا رافضي.. ألا تسأل ربك الأسود عن هذا الآس ماله قد اصفر؟ فانك تزعم أنه يعلم الغيب!!

أجاب المنتصر بآتران:

- يا أمير المؤمنين إن ربي الله والذي تعنيه لا يعلم الغيب..
ومع ذلك فأنا لا شك بأنه يعلم أشياء كثيرة.. انه من أهل بيت الوحي.
نظر المتوكل الى ابنه باستياء:

- سوف اسميك المنتظر بدلاً من المنتصر..

- لماذا يا أبي؟!!

- لأنك تنتظر موتي لتصبح خليفة.

- من قال ذلك.. انني أتألم من أجل ابناء عمومتي.. مشردين في الأرض
لا يملكون قوت يومهم.. أما المخشون فقد انتفخت بطونهم من الحرام.

- ماذا تنتظر.. لماذا لا تذهب الى ربك الأسود فتسأله.

- غداً يا أبي.

صاح بهياج:

- كلاً الآن يا منتظر.. الآن.

انحنى المنتصر لأبيه الخليفة وغادر المكان..

لم يجد الشاب الذي اجتاز العشرين صعوبة في لقاء ابن الرضا.

لشدماً يحب هذا الانسان الهادى.. وجهه الاسمر يغمره سلام وطمأنينة..

تُرى لماذا يحقد أبوه على هذا الرجل العلوي الذي لا يريد شيئاً سوى

انتشار الفضيلة والخير والمحبة؟!!

قال الامام بود:

- امض واحفر أصل الآس الأصفر فانك ستجد جماجم نخرة واصفرار الآس لتنتها.

وعندما رأى المتوكل الجماجم شعر بقشعريرة.. ان قصوره وحدائقه تنهض على مئات الجماجم البشرية التي لا يعرف من قتل أصحابها ومتى؟!
صاح بابنه:

- أهْلُ التراب.. لا أريد لهذا الخبر أن يتجاوز باب القصر.. أفهمت؟

- نعم يا أمير المؤمنين.

وفي اليوم التالي صدر مرسوم بنقل العاصمة الى دمشق وحدثت حركة مناهضة لقرار الخليفة في صفوف الجنود الاتراك الذين يشكّلون عماد الجيش عالجها المتوكل بزيادة في مرتباتهم ومنح أسرهم امتيازات جديدة..

سقوط الطاغية - _

سقوط الطاغية

(٤٦)

هل هناك علاقة بين مسار الانسان وعطاء الأرض وحنو الطبيعة؟ لماذا وعد نوح قومه بالخصب والمطر إذا ما نبذوا الاوثان التي كانوا يعبدون؟ ولماذا تبنى القرى عندما تفسد في الأرض؟..

وهل تظل لعنة سدوم وعمورا تطارد الخليقة الى الأبد؟! «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لنزلنا عليهم بركات من السماء والأرض» اصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً واتخمت بطون المهرجين حد الانتفاخ، وتصور الاحرار جوعاً من أجل الكرامة والحرية.

ازداد سعي المتوكل في اقامة حفلاته الخليفة وازدادت الضرائب وتوقفت بركة الارض، وارتفعت الاسعار.

وكان المتوكل الذي وصل دمشق في صفر من السنة ٢٤٤هـ مايس ٨٥٨م قد شعر بالندم فقد كان يتوقع أن الربيع سيكون لطيفاً في قصره

286 الجديد في ضواحي دمشق.. ولكنه وجد الرياح باردة، ثم زحّت السماء بالثلج حتى تعطلت الحياة في المدينة وانقطعت الطرق..

وما لبث الجو أن تغير فجأة من البرودة الى الحرارة وهاجم البرغوث المنطقة، وتزامن ذلك مع هزّات أرضية مخيفة.

وكانت التقارير قد بدأت تصل حول تحركات مشبوهة يقوم بها الاتراك في سامراء_، فقرر المتوكل العودة، وبرقت في خياله فكرة بناء مدينة جديدة قريبة من سامراء، وظلّت الفكرة سرّاً لم يطلع عليه أحداً حتى رئيس وزرائه الفتح بن خاقان فخزانه الدولة خاوية.

سامراء حزينه، فهذه المدينة تحمل في طياتها سرّ الفناء انها ولدت لتكون عاصمة للبلاد ومركزاً سياسياً وادارياً وثكنة عسكرية للجيش، فإذا نقلت العاصمة الى مدينة أخرى فمعنى هذا الخراب.

كان الناس يتحدثون في كل مكان عن جنون الخليفة في نقل العاصمة الى دمشق..

ولكن الخليفة لديه من الخطط الشيطانية ما يجعل الشعب يعيش في حيرة وذهول..

ولا أحد يعرف ما يدور في خلد الطاغية سوى انسان واحد.. انه علي بن محمد المعروف بابن الرضا إذ قال لصاحبه وهو ينظر الى الأفق البعيد:

- ان هذا الطاغية يتبدىء ببناء مدينة لا يتم له بناؤها ويكون حتفه فيها على يدي بعض فراعنة الاتراك.

وقال الرجل الحائر:

- فكم بقي من ملك المتوكل؟

أجاب الامام وهو يتلو بخشوع:

- بسم الله الرحمن الرحيم

(تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلاً
مما تأكلون.. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهن

إلا قليلاً مما تحصنون ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون).

لقد استحال المتوكل الى طاغية وأصبحت الأمة قطعاً ينتظر الذبح.. من أجل أن يتلذذ الطاغية بمنظر الذبح واتهام اللحوم الآدمية الشعب أصبح أسيراً في قبضة طاغية هو الآخر مستعبد لشهواته الشاذة.. حتى هو لم يعد يشعر بالحرية أنه أسير رغباته المستعرة دوماً.. لقد هبط المتوكل الى أسوأ مراتب العبودية، أصبح هوسه الجنسي مصدر عذاب له وللآخرين.. إنه يشعر بقوة وضيقة جداً تدفعه الى التردّي يوماً بعد آخر.. أنه يشعر بالخواء.

فقيرة هي النفس التي تنظر الى باطنها فتجد خواءً، فتمتد الى خارجها لتقتني ما يسد لها هذا الخواء، وماذا تقتني؟

تتصيد أناساً آخرين ذوي نفوس أخرى لتخضعهم لسلطانها، فحيثما وجدت طاغية - صغيراً كان أو كبيراً - فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه. ان المكتفي بنفسه لا يطغى.. إن من يشعر في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة الى دعامة من سواه» -.

في الصباح الباكر انبعثت صرخة - من جناح الحرير في قصر الجوسق الذي فضل المتوكل الاستقرار فيه لدى عودته من دمشق..

واجتمع الحرس التركي.. كان الخليفة غائباً عن الوعي تماماً في ذلك الصباح بعد ليلة حمراء ساهرة..

وصل الطبيب بخيشوع متأخراً وأجرى فحوصات على الجسد الملهب بسبب الحمى..

وجاءت والدته وهي تشعر بالقلق لمصيره وفيما كان بختيشوع يقوم بفحوصاته همست الأم بلهجة فيها لكنة تركية في أذن ابنها ونصحته باطلاق سراح السجناء.

ارتسمت ابتسامة سخرية في وجه الطبيب النصراني من تفكير أم الخليفة، فنظر اليه المتوكل بعينين فيهما تهديد.

كانت قد ظهرت في عنق المتوكل دمامل.. ربما بسبب تلوث الهواء في دمشق وكان الطبيب يعالجها ببعض المراهم التي لم تسفر عن نتيجة حتى سقط الخليفة مغمياً عليه.

- ليس هناك من طريق سوى إجراء الجراحة.

همس بختيشوع.

نظر اليه المتوكل بعينين فيهما توجس.. انه يخشى دسائس الاطباء.. لقد

مات كثيرون بسبب ذلك؟

ومن يدري ربما يحاول هذا النصراني الثأر لابناء دينه بعد الاجراءات المذلة التي لم يفلت منها سوى أصحاب النفوذ.

أمر المتوكل وزيره أن يستدعي أطباء آخرين خاصة ابن الطيفوري ويزداد النصراني فرحاً لديهم ما ينفع.

سادت حالة من التوجس سامراء بين من يتفائل بموت الخليفة والخلاص منه وبين خائف على نفوذه وما جمعه من أموال..

حتى زوجة الخليفة اصبحت تفكر بمستقبلها الخاص.. يجب تنفيذ خطتها في تقديم ابنها المعتر على ابن «حبشية».. ولم تكفي بذلك بل راحت تملأ الأقبية السرية في قصرها بالمزيد من الذهب والجواهر

والأموال.. هذه المرأة الفاتنة اخطر من زوجها انها تعرف مصدر الخطر الذي يهدد نفوذها.

وكان المنتصر الذي غادر القصر مساءً بعد حلول والده فيه قد سمع بالنبا فشعر بالتفاؤل.. ان القدر سيقضي على والده، وعندها سيثار لكرامته التي يحاول أبوه سحقها..

في الظهر تشكل فريق من الاطباء برئاسة بختيشوع الذي أعاد فحوصاته كما اجرى ابن الطيفوري فحوصات أخرى.. وكانت النتيجة أن الجراحة هي الوسيلة الوحيدة للعلاج.. نقل رئيس الوزراء تقرير الفريق الطبي للخليفة الذي استمع اليه باهتمام وظهر خوف في عيني المتوكل.. خوف لا يعرفه سوى ابن خاقان فهذا الانسان الذي يرعب الجميع ويخشاه الجميع يخاف من مبضع الجراحة!!

الأم تنظر الى ابنها بقلق ولكنها شعرت بالأمل عندما سمعت الفتح يقول:
- لماذا لا تبعث الى هذا الرجل فتسأله.. فإنه لا يخلو أن يكون عنده
وصفة يفرج بها عنك.

- من تعني؟

- ابن الرضا.

- ابن الرضا؟!!

290

وشع الأمل في عيني «شجاع» _ ونذرت في نفسها أن عوفي ابنها أن تهدي الى الرجل المبارك عشرة آلاف دينار.

هز المتوكل رأسه موافقاً.. وسرعان ما انطلق مبعوث خاص الى منزل الامام الهادي في درب الحصا.

(٤٧)

كان منزل الامام في ذلك الاصيل مشرعاً فقد رفع الحصار ظاهراً، ولكن الجواسيس كانوا يتناوبون العمل ويراقبون بدقة كل ما يجري..
كان المنزل يكتظ بالحاضرين وفيهم شخصيات عباسية وعلوية اتخذت أماكنها قرب الامام فهم جميعاً ينتمون الى هاشم شجرة المجد..
ودارت أحاديث حول بعض الأمور اليومية.. قال رجل يدعى محمد بن هارون الجلاب:

- يا سيدي.. رويانا عن آبائك أنه يأتي زمان لا يكون فيه شيء أعزّ من أخ أنيس أو كسب درهم حلال.

أجاب الامام وقد علت وجهه سحابة حزينة:

- يا محمد: ان الأخ الأنيس موجود، ولكنك في زمان ليس شيء اعز من درهم حلال، وأخ في الله عز وجلّ!..

وقال رجل أهوازي وهو يتألم من جرح في اصبعه لرجل في جواره كفاني الله شرّ هذا اليوم.

واستطرد:

- لقد جرح اصبعي، وصدمني راكب في كنتفي ودخلت السوق وكان مزدحماً فمُزّقت ثيابي.. فما أشأم هذا اليوم؟!
التفت الامام وقد سمع طرفاً من الحديث:

- يا حسن كيف تتهم بذنبك من لا ذنب له.

قال الرجل وقد انتبه الى خطأه.

- استغفر الله يا مولاي.

قال الامام بمحبة ليعظ الجميع:

- يا حسن ما ذنب الأيام حتى صرتم تشائمون فيها؟

- استغفر الله لن أعود الى ذلك الى الابد انها توبتي الى الله يا بن رسول

الله.

- اما علمت يا حسن ان الله هو المثيب وهو المعاقب.. والجزاء بالاعمال

عاجلة وآجله؟!

- بلى يا مولاي.

- لا تجعل للأيام صنعا في حكم الله.

قال حسن بأدب من يتلقى العلم:

- بلى يا مولاي..

وسأل رجل:

- ما معنى التوبة النصوح؟

أجاب الامام:

- أن يكون الباطن كالظاهر..

وسكت لحظة:

- وأفضل من ذلك..

وساد صمت مهيب فقال الامام وهو يدعو الناس الى النظافة لأنها

الخطوة الأولى للنهوض بالامم والمجتمعات:

- ان الله يحب الجمال والتجمل، ويكره البؤس والتبؤس..

وان الله عز وجل إذا انعم على عبد نعمة أحب أن يرى عليه أثرها.

تساءل رجل:

- كيف يُظهر أثر النعمة؟

أجاب الامام:

- ينظف ثوبه، ويطيب ريحه، ويحسن داره، ويكنس أفنيته.. حتى ان السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر، ويزيد في الرزق»-.

ودلف رجل تظهر عليه سيماء العلم والجلال فأراد أن يجلس في زاوية ما، ولكن الامام الذي يمجد العلم والعلماء نهض له احتراماً للعلم والتقوى فلهما المجد الحقيقي لا للنسب.

وجلس الرجل الى جوار الأمام وقد غمرت روحه الفرحه.. انه يعيش في زمن يمجد المال والثراء والجاه الكاذب.

وانشغل الامام بتفقد شؤون العالم الذي كان يرتدي حلة بسيطة تفضح مستواه المعاشي.

وكان كافور الذي ينتظر اشارة سيده قد أدرك ان الامام سوف يهب لهذا الرجل مبلغاً كبيراً أنه يعرف مدى تكريمه للعلماء-.

وعندما نهض الرجل وغادر المكان ونهض له الامام احتفاءً به وتكريماً

له.. ساد همس بين العباسيين الذين اعتبروا هذا الموقف اهانة لهم.. وسرعان

ما استحال الهمس الى لغط وقال احدهم للامام:

- كيف تقدمه على سادات بني هاشم؟

أجاب الامام وهو يعرفهم مجد العلم.

- أيّاكم أن تكونوا من الذين قال الله تعالى فيهم: (ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون)..

والتفت الى المستائين:

- أترضون بكتاب الله حكماً.

- وكيف لا؟!

- أليس قال الله سبحانه: (يا أيّها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم) الى قوله: (والذين أوتوا العلم درجات).

فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرض للمؤمن إلا أن يرفع على من ليس بمؤمن..

اخبروني عن قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) هل قال: يرفع الله الذين أوتوا شرف النسب درجات؟
أوليس قال الله: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)؟
فكيف تستنكرون رفعه له وقد رفعه الله لعلمه لا لنسبه.

سكت الحاضرون على مضض.. لقد اعتادوا التمجيد على أساس النسب منذ عشرات السنين.

قال رجل عباسي تعدّى الخمسين من عمره:

- يا ابن رسول الله لقد شرّفته علينا.. وما زال منذ أول الإسلام يقدم الأفضل في الشرف على من دونه.

أجاب الامام مستنكراً هذا المنطق اللااسلامي:

- سبحان الله!! أليس العباس بايع أبا بكر وهو تيمي والعباس هاشمي.. أو ليس عبدالله بن عباس كان يخدم عمر بن الخطاب وهو هاشمي وأبو الخلفاء، وعمر بن الخطاب عدوي..

وما بال عمر أدخل البعداء من قريش في الشورى، ولم يدخل العباس؟؟ فإذا كان رفعا لمن ليس بهاشمي على هاشمي منكرأ فأنكر على العباس بيعته لأبي بكر وعلى عبدالله بن عباس خدمته لعمر وإذا كان ذلك جائزاً فهذا جائز» _.

وسكت الرجل أمام منطق الاسلام الاصيل الذي لا يعرف مجداً إلا للايمان والعلم.

وانتبه الجميع الى دخول شخص يرتدي الزي الرسمي لموظف يعمل في البلاط.. تقدم الرجل وحياً للإمام وسلّمه رقعة فيها بضعة كلمات تبين حالة الخليفة الصحية والاعراض التي ظهرت عليه ويطلب وصفة للعلاج.. وكتب الامام وصفة العلاج: يؤخذ كسب الشاة_ فيداف بماء الورد ويوضع عليه.. فإنه نافع بأذن الله» _.

وقدمت الوصفة الى الفريق الطبي، وصدرت من أحد الاطباء كلمات تنمُّ عن استهزاء..

ولكن الفتح اشار على المتوكل بتجربة الوصفة فلا ضرر من ذلك وحُضِرَ المرهم العجيب، ووضع بعناية على منطقة الدمامل، وما لبث المتوكل أن غط في النوم وكانت أنفاسه قد انتظمت..

وبعد ساعات فوجيء الجميع بانفتاح «الخرّاج» وخروج القيح والصديد،
وتماثل الخليفة للشفاء وبشرت والدته التي سارعت الى الوفاء بنذرها.
وفي المساء وقد تاقّت نفس المتوكل للترويح اجتمع شمل شلّة الأنس
للمرح وكان فيهم سليمان الطبال، حشيشة، ابن القصار، صالح الدفاف، ومن
المغنيات عريب وجواريها: بدعة، سراب، شارية، وجواريها: ندمان، منعّم،
نجلة، تركية، فريدة، وعرفان_ وتألقت محبوبه بثوب حريري أخذ.
وأدّى البعض معزوفات جميلة كما انبرت المطربة محبوبه فراحت
تنشده شعراً تتغزل فيه بزوجة الخليفة الحسناء:

وكاتبه بالمسك في الخد جعفرأً بنفسي خطّ المسك من حيث أثرا
لئن كتبت في الخد سطرأً بكفّها لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من مملوك لملك يمينه مطيع له في ما أسرّ وأظها
ويامن من مناها في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثناياك جعفرا
وطرب المتوكل وراح يحتسي خمرته المفضلة؛ وراحت محبوبه تشدو:
أدور في القصر لا أرى أحدا اشكو اليه ولا يكلمني
حتى كأني ركبت معصية ليست لها توبة تخلّصني
فهل لنا شافع الى ملك قد زارني الكرى فصالحني
وعندما انفض الجميع نهض الخليفة نصف ثمل ليأخذ محبوبته الى ما
وراء الستائر الحريرية.

(٤٨)

وصلت القصر تقارير خطيرة حول استلام الامام مبالغ كبيرة من المال وأن منزله مشحون بالاسلحة، ومعنى هذا أن هناك استعداداً للثورة..
كان التقرير من الخطورة بحيث أفزع المتوكل فأصدر أمراً الى سعيد الحاجب أن يفاجيء منزل الامام بهجوم ليلي وضبط كل ما يعثر عليه من المال والسلاح..

كانت سامراء غافية في تلك الليلة من ليالي خريف سنة ٢٤٥هـ - ٨٥٨م، عندما نفذ سعيد الحاجب هجوماً مفاجئاً على منزل الامام وضع سعيد السلم على الجدار ومنه ارتقى الى السطح.. كان القمر في المحاق والظلام دامساً ما خلا نجوم اشتد سطوعها، فبدت كقلوب تنبض بوهن.. ومن فوق السطح كان سعيد يتلمس طريقه الى مدرجات ليتمكنه النزول منها الى باحة الدار ولكن دون جدوى..

فجأه وفيما هو حائر يسمع صوتاً يناديه باسمه:

- يا سعيد مكانك حتى يأتوك بشمعة..

وجاء كافور الخادم يحمل شمعة، وفي ضوئها رأى سعيد المدرج الذي يؤدي باحة الدار..

ولمح سعيد الأمام مرتدياً جبة صوف وقلنسوة فأشار الى حجرات المنزل قائلاً:

- دونك البيوت.

وانصرف الى سجّادته متجهاً الى الكعبة العظمى، فيما كانت النجوم
تسطع في السماء؛ وراح سعيد يفتش الغرف تفتيشاً دقيقاً وكانت مشاعر
الخجل تتعاظم في أعماقه وهو يرسل اللعنات على أولئك الجواسيس
الأوغاد..

وجد في احدى الغرف بكرة_ عليها ختم أم المتوكل، وكيساً مختوماً
بنفس الختم..

ولج الى السرداب وشعر برهبة في ذلك العمق تحت الأرض.. لكنه لم
يجد شيئاً سوى أرضية مفروشة بالحصى وكان الحوض الصغير خالياً من
الماء..

وقبل أن يغادر المنزل خاطبه الامام:
دونك المصلّى.

تقدّم سعيد الى الحصر ورفعه ليجد سيفاً في غمد، فأخذه معه وغادر
المنزل من الباب وقد شيعه كافور الخادم بعد أن أخذ منه الشمعة..
وانطلق الحاجب الذي ترك السلم على الجدار لا يلوي على شيء..
استعرت هواجس المتوكل وهو يرى بكرة وكيساً مختومين بختم
والدته، وانتابه قلق.. كل شيء يمكن أن يحدث، ولكن هل تتآمر والدته

298 عليه؟!

انه يعرف جيداً عواطف ابنه المنتصر الذي ذهب بعيداً في ولائه لأبناء
علي.. انه يتحداه في قصره، ويدافع عن علي أمام الجميع بينما يتزلف اليه
الناس بشتم علي والتهريج عليه!

- كلاً!

صرخ المتوكل بحقد، وأصدر أمراً بايقاظ والدته فوراً.. جاءت المرأة التي اجتازت الستين بحلّة النوم، وقد خطف الرعب لونها.. ما الذي حصل يا ترى؟!

كان «باغر» بطوله العملاق يتقدم المرأة الى البلاط حيث جلس ابنها على سرير وثير وأمامه على منضدة مضلّعة دن بلوري خاوي..
أدركت المرأة العجوز ما جرى بعد أن لمحت بدرة الدراهم والكيس..
نظر اليها المتوكل بغیظ، ونظر الى المال المختوم بختمها قالت «شجاع»
بلكنة تركية:

- كيف؟.. قد نذرت في علّتك لمّا أیست منك إن عوفیت حملت من مالي عشرة آلاف درهم..

- هذا خاتمك؟!

- نعم هو خاتمي!

- والكيس؟ كم فيه؟!

- أربعمئة دينار.

فتح المتوكل الكيس وعدّ النقود وكانت أربعمئة..

أطرق المتوكل برأسه وقال:

- عودي الى حجرتك.

تساءلت الأم:

- ما الذي حصل؟!

- لا شيء.. لا شيء..

وعندما غادرت المرأة، المكان التفت المتوكل الى حاجبه وأمره بأعادة الأموال الى صاحبها.. كما أعاد أيضاً السيف المقهور الذي لم يشهر حتى الآن.

قال سعيد الحاجب وهو يسلم الأموال والسيف الى الامام معتذراً:

- يعز علي يا سيدي أن أدخل دارك بغير أذنك ولكني مأمور.

واكتفى الامام بالصمت ثم تلا قوله تعالى:

-(وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)-.

ورجف قلب سعيد، إنه لا يشعر بالهيبة التي يحسها حتى في حضرة المتوكل.. انه يحس بان عيني الامام تنفذان الى أعماقه الحائرة.

وفي منتصف الليل عندما استحال القصر الى بؤرة للرذيلة، وكان المتوكل ما يزال تحت تأثير الحادثة برقت في ذهنه فكرة..

آه لو استطع أن اجرّ ابن الرضا الى الشراب.. آه لو ينادمني مرّة واحدة.. ولكن لا فائدة.

التفت الى عبيدالله بن يحيى قائلاً بصوت سمعه الجميع:

- ويحكم لقد أعياني أمر ابن الرضا وجهدت أن يشرب معي، وينادمني

فامتنع وجهدت أن أجد فرصة في ذلك فلم أجدها!!

قال أحدهم وقد برقت في عينيه الندالة:

- اذا لم يجد ذلك مع ابن الرضا، فهذا أخوه موسى.. يأكل ويشرب

ويعشق ويتخالع فاحضره وشهّر به.. فان الخبر يشيع عن ابن الرضا بذلك فلا

يفرق الناس بينه وبين أخيه.. أما الذين يعرفونه بشخصه فانهم سيتهمون أخاه

بمثل أفعاله.

وجد المتوكل في هذه الفكرة سلاحاً جديداً يستخدمه ضد الامام علي الهادي فاصدر أمره الى الوزير على الفور:

- اكتبوا باشخاصه مكرماً.. وأن يستقبل رسمياً وبحفاوة وأن يخصص له من الآن قصر ويجهز بكل ما يحتاج اليه.

ولم ينس المتوكل أن يؤكد على شيء جوهري هو تخصيص جواري مغنيات ويجهز المنزل ببعض دنان الخمر..

رفع المتوكل الكأس البلوري عالياً معلناً بدء الليلة الساهرة.. وانطلقت موسيقى رقيقة وانسابت صوت إحدى المطربات.. وانطلقت بعض القهقهات الخليعة..

وفيما كانت النوافذ المضيئة بنور القناديل تتدفق ضوءاً والأصوات السكرى تختلط بصوت الموسيقى، كانت الرياح الخريفية تجوس خلال الأزقة الغارقة في الظلام، فيما كانت اشباح تمرق خلال الحلقة الدامسة لا أحد يعرف من أين تأتي والى أين تتجه؟!

وهناك في حجرة صغيرة في منزل يقع في درب الحصا كان رجل في الثلاثين من عمره يتلو القرآن على ضوء قنديل.. وكان صوته الحزين يمشي مع الريح..

301 ان الذي يمرّ قرب المنزل في تلك الليلة لابد وأنه سمع صوتاً مفعماً بحزن مقدس صوتاً منقوعاً بدموع الانسان المقهور:

- «الهي!

مسيء قد ورد..

وفقير قد قصد..

لا تخيب مسعاه..

وارحمه واغفر له خطاه» _.

انه في الثلاثين من عمره ولكن الأيام والعذابات والآلام جعلت منه شيخاً في الستين.

- «الهي صل على محمد وآله محمد..

وارحمني اذا انقطع من الدنيا أثري.

وامحى من المخلوقين ذكرى..

وصرت في المنسيين كمن قد نسي..

الهي كبر سني..

ورق جلدي..

ودق عظمي..

ونال الدهر مني..

واقترب أجلي..

ونفدت أيامي..

وزهدت شهواتي..

وبقيت تبعاتي..

الهي!

ارحمني اذا تغيرت صورتى» _.

روحه تهيم في سماوات بلا انتهاء.. تذوب في الوجود:

- «الهي تاهت أوهام المتوهمين.

وقصر طرف الطارفين..

وتلاشت أوصاف الواصفين..

واضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك عجيب شأنك.. أو البلوغ الى
علوك.

فانت في المكان الذي لا يتناهى.

ولم تقع عليك عيون بإشارة ولا عبارة..

هيهات.. ثم هيهات..

يا أولي!

يا وحداني..

يا فرداني..

شمخت العلو بعز..

وارتفعت من وراء كل نهاية بجبروت الفخر»..

وتنحدر دموع الخشوع.. دموع الايمان.. لكأن الروح تذوب في بوتقة

الوجود فتصبح جزءاً من حركة هذا العالم المليء بالأسرار.

(٤٩)

وصل موسى بن الامام الجواد سامراء، التي كانت تعيش احتفالات شعبية لا نظير لها فقد صادف عيد الاضحى احتفال النصرى بعيد «الشعانيين» وعيد «الفطر» اليهودي.. كان الخليفة يمتع نظره من فوق المأذنة الملوية ويتأمل سامراء العاصمة التي بناها أبوه.. لم تعد تشع جنونه انه يفكر ببناء مدينة أخرى.. مدينة جديدة.. عاصمة جديدة تليق بمركزه وابهته..

وفي «قنطرة وصيف» حدث لقاء هام بين الأخوين بعد فراق دام أكثر من عشرة أعوام.. ومن خلال الاستقبال الرسمي الذي حظي به موسى من قبل موظفي الدولة والقادة العسكريين وحرص الجميع على تسمية أخيه بابن الرضا أدرك الامام أن المتوكل يريد من وراء ذلك تشويه سمعته بجر أخيه الى بؤرة الرذيلة من أجل هذا حذر أخاه من الفخ الذي نصبه المتوكل:

- ان هذا الرجل قد جاء بك وأحضرك ليهتكك، ويضع من قدرك، فلا تقرّ له أنك شربت نبيداً قط. واتق الله يا أخي ان ترتكب محظوراً.

قال موسى:

- انما دعاني لهذا فماذا أصنع؟! -

- يا أخي ان طاعة الله أولى من طاعة المخلوقين..

يا أخي ان المتوكل يريد منك أن تشرب الخمر والنبيد حتى يشيع بين

الناس أن ابن الرضا يشرب ويسكر!

وسكت موسى.. فرق كبير بين الأخوين.. منذ أكثر من ربع قرن وعندما كانا في المدينة المنورة وقد سافر أبوهما الى بغداد.. طلب موسى من والده أن يأتي له بهدية من مصوغات بغداد، والتفت الوالد الذي لن يعود من سفره وسأل علياً الذي بلغ من العمر ست سنين وسأله عن الهدية التي يحب فقال:

«أريد سيفاً كأنه شعلة»!.. آه أن علياً لم يتغير ما يزال هذا السيف ذكرى والده الراحل يرافقه.. وانتبه موسى الى كلمات أخيه الغاضبة:

- انك لن تلتقيه الى الأبد!

كانت كلماته تشبه نبوءات الانبياء.

وضاعت الكلمات الصادقة.. لم تجد لها أذنًا واعية.. ومضى موسى الى قصره الفخم وهو لا يشعر بأنه يضع قدمه في بيت العنكبوت بيت هو أو هن البيوت.. سوف يظل يطرق أبواب المتوكل التي لن تفتح له أبداً.. فالطاغية غارق في هواجسه وهو يخطط لبناء مدينته الجديدة..

ضربت الزلازل مصر والعراق وسوريا، ورجفت الأرض بأهلها، فقد زلزلت كثير من المدن بغداد واللاذقية والرقّة ورأس عين ودمشق وطرسوس وأدنة وسواحل الشام، واستحالت انطاكيا الى انقاض.. وهاج البحر، وهاجمت الامواج الغاضبة المدن الساحلية في البحر الابيض.. واختفى الجبل الاقرع في انطاكيا.. كما ابتعلت الارض نهراً يمرّ قريباً من البحر.. وغارت «عين مشاش» في مكة..

وامتدت الزلازل والهزات الارضية الى ايران، ومازاد الاوضاع سوءاً قيام الروم بالهجوم على السواحل المصرية ومحاصرة «سمياط».. اما الطاغية فقد

كان مشغولاً عن كل ذلك بلذائذه وشهواته وكان هاجسه الوحيد بناء «المتوكلية».

وكانت أول خطوة قام بها هو إصداره أوامر بتهديم قصرين في سامراء وهما: «المختار» و «البديع» ونقل موادّ البناء فيهما الى شمال سامراء على بعد أربعة أميال عربية .

وقد تولّى المهندس النصراني دليل بن يعقوب كاتب «بغا» الإشراف على تخطيط وتنفيذ بناء القصر الجعفري وشق نهر يرفد المدينة بالمياه. وبدأ العمل ببناء قصر فخم على ضفاف دجلة ثم يبدأ العمل بتنفيذ بناء المدينة بما في ذلك مسجدها الجامع الكبير الذي سيكون على غرار المسجد في سامراء وستكون له مئذنة ملوية أيضاً .

وفي ظروف بالغة القسوة بدأ العمل بتدفق آلاف العمال.. وسرعان ما نهض القصر الجعفري في الزاوية التي يتفرع منها نهر القاطول عن دجلة وقد بلغت تكاليف البناء لهذا القصر مليوني دينار .

واستحال موظفي البلاط الى ذئاب بشرية تتخطف أموال الأئمة وكان المهندس النصراني ما انفك يملأ تلك الأفواه الشرهة بالرشاوي . وبدأت الخزينة تصفر من الأموال مما دفع بالطاغية الى البحث عن مصادر للمال 306 وكان عليه أن يختار إحدى الأبقار التي سمت في بلاطه وتقديمها الى الذبح ..

وبدأ رجال البلاط يشمون رائحة الدم.. فتضاعفت حمى التآمر وبدأت وتيرة الدسائس بالتنامي!

وانفجر الصراع بين عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير الطاغية وبين نجاح بن سلمة المسؤول عن التواقيع الرسمية للبلاط، وكانت اسرة خاقان قد بلغت الذروة في سيطرتها على شؤون البلاط وقد أدى كثير من الاسباب الى بدء تحالف دنس بين زوجة الخليفة «قييحة» التي نجحت في ايجاد قطيعة نهائية بين زوجها وابنه المنتصر المرشح الأول للخلافة فيما مضى وبين رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.. لقد اصبح كل شيء جاهزاً وسوف يتم خلع ولي العهد في اللحظة المناسبة أو حتى اغتياله..

كانت فكرة رئيس الوزراء مصادرة أموال بعض القادة الاثراك للحد من نفوذهم.. وكان اسم وصيف في صدر القائمة ولذا بدأت الدسائس تتحرك في هذا الاتجاه.

ولكن القدر دفع الأحداث باتجاه آخر..

كان «نجاح بن سلمة» يخطط لازاحة جميع خصومه والسيطرة على شؤون البلاط، وليس هناك من وسيلة أفضل من إغراء المتوكل بالقاء القبض على شخصيات متنفذة متخمة بالاموال وقد حان الوقت المناسب للانقضاض عليهم.. فلديه ادلة دامغة على خيانة بعض كبار الموظفين في البلاط وتواطئهم مع عبدالله بن يحيى ذلك الوزير الشره الذي عرض حكم الولايات الاسلامية لمن يدفع الأكثر من الرشاوي..

أعدّ «نجاح» تقريراً مشيراً حول خيانة كل من «الحسن بن مخلد»، مسؤول ديوان الضياع و «موسى بن عبدالملك» مسؤول ديوان الخراج وانهما قد اختلسا باستغلال منصبيهما أموالاً ضخمة.. وانه يستطيع أن يستخرج منهما ما قيمته ٤٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم!

تمكن الوزير من الاطلاع على التقرير الخطير بعد أن وقع في يد المتوكل، فوضع رجاله في حالة استنفار، واستدعى «موسى» و«ابن مخلد» واطلعهما على ما يجري وفي لهجة تفوح برائحة الخطر قال الوزير:
- إذا دخل نجاح على المتوكل فإنه لن يخرج إلا برأسيكما ومصادرة كل ما تملكان.

قال ابن مخلد:

- وماذا بوسعنا أن نفعل؟

- اكتبنا رقعة تقبلان فيها على دفع ٢/٠٠٠/٠٠٠ دينار!

أجابا على الفور:

- سنفعل ذلك متى شئت.

- اليوم..

وأردف الوزير وقد برقت عيناه بالشروع:

- نتغدى به قبل أن يتعشى بنا!

وفي المساء استدعى المتوكل «نجاح بن سلمة» لمنادته وشرب الخمر معاً.

كان المتوكل قد أفرغ دناً بلورياً من الخمر، ولم يكن قد سمح بعد

308 للمغنين والمغنيات بحضور المجلس..

قدّم المتوكل كأساً يطفح بخمرة معتقة الى نديمه وقال:

- يا نجاح بكّر الي غداً سأسلمك الرجلين.. ولكن الفي ألف درهم لا

تكفي.. هل تستطيع أن تأخذ منهما أكثر من ذلك؟

واستحال نجاح الى افعى وبرقت عيناه بالغدر:

- يا مولاي أعرف عشرين آخرين لو سلّمتمهم اليّ لا ستخرجت لك منهم أموالاً كبيرة تبني بها مدينتك..

وسكت لحظة ثم قال:

- فإنه يلزمك من الاموال في بنائها ما يعظم قدره ويجلّ ذكره قال الطاغية وقد استحال الى ذئب بشري:

- سمّمهم لي! -

قال «نجاح»:

- سوف اسجل لك اسماءهم في رقعة.. واذكر الأموال التي يمكن أخذها منهم..

- اذكر لي بعضهم؟

- موسى بن عبدالملك، وعيسى بن فرخنشاه، نائب الحسين بن مخلد، وأبن مخلد، وزيدان بن إبراهيم، نائب موسى بن عبدالملك.. وسكت لحظات ليري انعكاس كلماته على وجه المتوكل الذي كان يصغي بشراهة، تجرأ نجاح وأردف:

- وعبيدالله بن يحيى وأخوه عبدالله وزكريا وميمون بن ابراهيم، ومحمد بن موسى المنجّم وأخوه أحمد وعلي بن يحيى وجعفر المعلوف وغيرهم..

هتف المتوكل وقد اسكرته الخمرة والأموال القادمة:

﴿٢٣٢﴾

- خذل الله من خذلك بقرّ الى غداً سوف اسلمهم جميعاً اليك.

كان الخليفة قد استكمل شرب سبعة أرتال من الخمرة وبدأ يتعلم في حديثه، ولذا تقدم موسى بن بغا وأشار الى الندماء باخلاء المكان وفقاً لتعليمات الخليفة الذي يتوجب عليه في هذا الوقت الانصراف الى مخدعه الوثير حيث تنتظره إحدى حسناوات القصر.

(٥٠)

في الصباح الباكر وفيما كانت رياح شباط _ تجوس شوارع سامراء كان نجاح بن سلمة قد اعدّ رجاله الذين سيتولّون المناصب الجديدة بعد اعتقال رجال القائمة السوداء.

وفي مدينة يحكمها الجواسيس تنتشر الاخبار والشائعات انتشار الروائح.. وقد تأكد لدى الجميع أن نجاحاً سوف يطيح بجميع الرؤوس الكبيرة.. وستكون له السطوة وحده وقد يصبح وزيراً كبيراً أو رئيساً للوزراء.. فالطاغية ليس له اصدقاء لأن الطغاة لا يعرفون معنى الصداقة!

والطاغية لا يملك من الانسانية سوى الشكل فقط أما داخله فغابة رهيبة يدويّ في فضائها صراخ الحيوانات المتوحشة والشريرة.. وتلك هي الغرائز المجنونة عندما تتمردّ على نظام العقل وحكمته.

وعندما يغيب الكرى ذلك الجزء العاقل الرقيق من النفس الذي يتولّى التحكم في الجزء الآخر، ينطلق الجزء الحيواني المتوحش في النفس من عقاله مثقلاً بالطعام والشراب، فينفض عن نفسه النوم، ويبحث عن مجال نشاطه، ومنتفس لشهواته، والنفس ها هنا لا تخجل من شيء قط، كما لو كانت قد تخلّت عن كل حياء، فلا تتردد في ارتكاب أية جريمة» _.

والطاغية مخلوق يخرج من أهاب الانسان ويندفع نحو اشباع رغبات مجنونة حيث تشتد هستيريا الهوى النفسي في ارضاء الرغبات المتطرّفة،

ويغدو الطاغية في سلوكه مخلوقاً يجمع بين صفات السكير والمجنون حيث يحلّ اللاشعور مكان الشعور الانساني النيبيل.

وفي ذلك الصباح الباكر كان المتوكل قد تحفز في أعماقه الذئب البشري مع شهوة جامحة للافتراس.. أنه بحاجة الى المال.. المال الكثير لبناء مدينته.

قبل أن يصل نجاح بن سلمة القصر ويجتمع بالمتوكل كان عبيدالله بن يحيى وزير البلاط قد دخل على الطاغية قائلاً باستخذاء:

- يا أمير المؤمنين! أراد نجاح الأ يدع كاتباً ولا قائداً ولا عاملاً إلا أوقع به.. فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين!؟

نظر الطاغية الى وزيره باحتقار ولعلّه قال في نفسه، أية أعمال أيها التافه!؟

أدرك الوزير أن المتوكل لن يصغي الى مثل هذا الكلام فغيّر من لهجته قائلاً:

- ان الحسن وموسى يوافقان على دفع المال المطلوب.. وهذه رقعة بخطيهما.

- كم يدفعان؟

- مليوني دينار.

....

- انهما على استعداد أيضاً لدفع مبلغ آخر يقرب مما ضمنه لك نجاح.

- حسناً.. وهل يضمنان ذلك!؟

- سأفكر بالأمر.

وغادر الوزير المكان، وسرعان ما وصل نجاح ليجد أمامه في البهو الرجلين اللذين سيلقى القبض عليهما بعد لحظات.. لكنه فوجيء بالوزير يمنعه من الدخول على المتوكل قائلاً له باحترام متكلف:

- انتظر يا أبا الفضل.. تفضل هناك ريثما آخذ لك أذنًا بالدخول..

وعندما ولج نجاح إحدى الغرف قال الوزير للرجلين مرهباً أيّاهما:

- إذا اجتمع بالمتوكل فمعنى ذلك نهايتكما.

وقبل أن يتكلما استطرد الوزير بحذر:

- اكتبوا رقعة تضمنان للمتوكل دفع المال المطلوب..

- ومن أين نستطيع ذلك؟!

قال الوزير وهو يصرّ على أسنانه وينظر الى الغرفة التي ينتظر فيها نجاح:

- أنا أعرف كيف سنحصل عليه!

وفيما كان موسى وابن مخلد يهيئان رقعة جديدة ويوقعان عليها توجه

الذي يفوق الحرباء في تلوّنها.. قال لنجاح بلهجة فيها قدر من النصيحة:

- يا نجاح! أشير عليك بأمر لك فيه صلاح.

قال نجاح:

- ما هو؟

- اصلح علاقتك بهذين الرجلين..

- كيف؟ لقد اخبرت الخليفة بخيانتهم؟!

قال الوزير بخبث:

- وما الضرر من ذلك؟! اكتب رقعة واذكر انك كنت شارباً، وانك

تكلمت بأشياء تحتاج الى اعادة النظر فيها..

- ولكن هذا سيعود بالضرر علي!!
- لا تخف أبداً سوف اصلح لك الأمر.

...-

- ماذا تنتظر اكتب! اكتب بسرعة قبل فوات الأوان وانخدع نجاح فكتب
رقعة ذكر فيها أنه كان سكراناً وأنه كان يهذي الليلة الفاتنة باشياء خطيرة.
عندما أمسك الوزير بالرقعة ودخل على الطاغية كان قد حسم الموقف
تماماً قال وهو يضرب ضربته القاتلة:

- يا أمير المؤمنين لقد تراجع نجاح عما قاله البارحة.. وهذه رقعته بخطه
وتوقيعه.

ثم ناوله رقعة أخرى:

- وهذه رقعة موسى والحسن يتقبلان بما كتبنا فتأخذ منهما ما ضمناه ثم
تعطف عليهما فتأخذ منهما قريباً مما ضمن لك نجاح عنهما.

صفق الخليفة مبتهجاً.. وهتف منتشياً:

- ادفعه اليهما..

طغت البهجة على تصرفات المتوكل ولم يكن ليهمه «نجاح» ولم يشعر
بأية وخزة وجدانية للمصير الأسود الذي سوف يلاقه كاتبه على أيدي

314 ذئاب التعذيب..

انه على استعداد على أن يرتكب أية جريمة دون أن تطرف له عين.. بل
أنه على استعداد أن يذبح ابنه المنتصر إذا شعر بأنه ينافسه أو يترفع عن
سلوكياته.

لقد أصبح يمقت ابنه لسبب واحد هو أنه قد أصبح رجلاً ذو كرامة..
رجلاً شريفاً ذو روح عالية وشخصية مستقلة.. ان ابناً بهذه الصفات محكوم
بالموت من قبل الطاغية لأنه ينافسه في السيادة أنه متأكد من أن ابنه لم يكن
هكذا ولكنه تأثر بشخصية ابن الرضا.. آه لشدما يمقته! انه المصدر الوحيد
للخطر!

انه الوحيد الذي استعصى عليه ارهابه واخضاعه؟

وهكذا سيق نجاح ذليلاً، وقد استسلم لمصيره الرهيب وتبادل موسى مع
صاحبه النظرات.. هذا الذي اراد اقتطاف رأسينا قد وقع في قبضتنا.. كما
العنكبوت تقع في شرك بيتها اسيرة!

وقبل الضحى كان قد تم القاء القبض على «أبي الفرج» ابنه أما ابنه
الآخر فقد استطاع الهرب، كما القي القبض على مساعديه: «اسحاق بن
سعد» و«ابن البواب»، وصدورت قصور الجميع وأملاكهم في سامراء
وبغداد، وتعرض نجاح الى تعذيب وحشي من قبل موسى بن عبدالملك
وصدر أمر من قبل المتوكل شخصياً بتغريم اسحاق بن سعد واحداً
وخمسين ألف دينار ادعى.. الخليفة ان سعداً هذا كان مساعداً لعمر بن فرج
زمن الواثق وأنه أخذ منه خمسين ديناراً رشوة حتى يستطيع استلام مرتبه..

315

ولم يصمد نجاح تحت التعذيب، واعترف مع ابنه باختلاس أموال تصل
الى مئة وأربعين ألف دينار، واعترف اسحاق بخمسين الف دينار.. ولقي
نجاح حتفه تحت التعذيب الوحشي، كما القي القبض على ابنه الهارب،
وتمّ ترحيل جميع أفراد اسرته من سامراء في ظروف سيئة وامتدت حملة

المطاردة والاعتقالات لتشمل كل من له صلة بنجاح من قريب أو بعيد والقي بعضهم في السجون.

وكان الاستجواب والتحقيق والتعذيب قد تم في ديوان الخراج حيث يمارس موسى بن عبد الملك وظيفته الرسمية.

وفي صباح بارد توجه موسى بن عبد الملك الى قصر المتوكل واطلاع البلاط على وفاة المتهم اثناء جلسات الاستجواب والتحقيق!!

وتلقى الطاغية الخبر بأسف شديد لأنه لم يتم استحصال المبلغ المطلوب ولذا أكد على وزيره ان يستحصل المبلغ الذي ضمنه بأسرع وقت.

كما اصدر تعليماته بتعيين الوزير ابن يحيى مسؤولاً على ديوان التوقيع بدل نجاح.

وتلقى الناس الانباء العجيبة بذهول لأنها جاءت عكس التصورات السابقة.

وسئل «أبو العيناء» الذي كان يتردد في تلك الأيام على قصر الخليفة عن مصير نجاح فقال:

- وكزه موسى فقضى عليه.

316 وانتشر التعليق الساخر مع الاخبار والشائعات حتى وصل مجلس

المتوكل في نفس اليوم قبل أن تبدأ حفلته المسائية.

واقترح أحدهم على الخليفة الذي ضحك للتعليق الساخر أن يضمّ أبا العيناء الى شلة الندماء فقال:

- لولا أنه أعمى لنادمته..

وفي تلك الليلة عبّ المتوكل عشرة أرطال من الخمر حتى ثمل وراح
يهذي بأشياء كثيرة ولكن الوزير سمعه مراراً، يهتف:

- ردّوا عليّ كاتبني وإلاّ فهاتوا المال_-.

وفي الصباح وعندما وقعت عينا موسى بن عبدالملك على ابي العيلاء
تهدّده بالعقاب الشديد... فقال الشاعر الساخر:

- يا موسى أتدريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس!؟

وضحك الناس المجتمعين عند بوابة القصر فيما ألهب موسى ظهر
حصانه بالسوط وقد توهجت عيناه بالشرّ.

(٥١)

لاح هلال محرّم حزيناً، كقارب يبحر في سماء تنوء بغيوم نيسان
الرمادية..

وفي هذا الشهر الذي يحرص فيه المؤمنون على زيارة كربلاء للتبرك
بزيارة ريحانة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّ الشرطة تكثف من
مراقبتها في الأرض التي اصبحت زراعية منذ عقد من الزمن.

غير أن بعض الزائرين قد وضعوا علامات تساعد الذين يحجون لتلك
البقعة الطاهرة حيث هوى الحسين شهيداً قريباً من شطآن الفرات.

وبالرغم من أن كثيراً من المؤمنين كانوا يحرصون على زيارة المكان
ليلاً ولكن الشرطة كانت تلقي القبض على بعضهم وترجّهم في سجن
«المطبق» الرهيب.

وبرز في تلك الظروف الرهيبة أدلاء يعرفون طرق التسلل بعيداً عن
عيون المفارز المسلحة..

وكانت العلامة الأكيدة في ذلك الوقت انبعاث رائحة طيبة منعشة
318 حيرت حتى العطارين..

وانتشرت حكاية ذلك الاعرابي من بني أسد الذي استطاع اكتشاف
البقعة الطاهرة بعد أن عفى أثرها فكان يأخذ قبضة من التراب فيشمّها
وهكذا الى أن انتهى الى المكان الطاهر فأخذ بقعة وشمّها، فاذا هي تفوح
عبيراً.. فبكي وغمغم قائلاً:

- بأبي أنت وأمي ما أطيبك؟ وأطيب تربتك.

ثم راح يدندن:

أرادوا ليخفوا قبره عن وليه***وطيب تراب القبر دلّ على القبر_
وفيما كان الناس خاصة في الكوفة وبغداد وحتى سامراء يشدون
الرحال الى كربلاء سرّاً وعلانية... انتشرت في العاصمة اخبار عن نية الخليفة
الانتقال إلى قصره الجعفري والاستعداد لاقامة احتفالات كبرى بهذه
المناسبة.

لا أحد يدري لماذا انتخب الطاغية يوم «عاشوراء» موعداً لتدشين
قصره الجديد وتوزيع إقطاعات المدينة الجديدة التي تم تخطيطها نهائياً.
ومن أجل الأسراع في انجاز بناء المدينة في وقت قياسي فقد تقرّر
تكليف اصحاب الاقطاعات من قصور ومنازل بمسؤولية تنفيذها بعد منحهم
نفقات البناء_ وهي نفس فكرة المعتصم في بناء سامراء قبل ستة عشرة
عاماً_.

لقد ابرز المتوكل كل عقده كطاغية في قصره الجديد فكان من الابهة
والفن في العمارة والبناء ما يعتبر اعجوبة الزمن..

ولكن هل يدوم بناء نهض على الجماجم والدماء؟

ودخل الطاغية ماخورته_ وهو ظالم لنفسه..

النفوس الضعيفة تنخدع بالظواهر الخلابّة... ولا شك أن قصر الجعفري
الذي اشتق من اسم الخليفة كان من العلوّ الشاهق بحيث بدت منارة الملوية
ضئيلة بالقياس إلى ارتفاعه الشاهق.

بدأت الاستعدادات للاحتفال منذ الغروب، وكانت نسائم نيسان المنعشة وهي تهب من النوافذ المشرعة مفعمة برائحة الورود الربيعية.. كانت الدعوة عامة للجميع واعدت منصة في حدائق القصر وفتحت بوابات القصر من كل الجهات حتى البوابة المطلة على نهر دجلة. كانت الحدائق تتلألأ بأضواء القناديل والشموع... وتدفق أهالي سامراء الى القصر الاعجوبة حتى أقفرت المدينة_ ولم يبق في سامراء إلا الذين لا يرون في هذا القصر المشؤوم سوى الخرائب والدمار والمزيد من الضرائب والقهر والدسائس والمؤامرات والطغيان... والمزيد من الفساد والخلاعة والانحطاط.

والقى الطاغية نظرة تصفح فيها الحاضرين من علية القوم وأثار حنقه غياب ابن الرضا واعتبر ذلك اهانة لسيادته وتحدياً لسلطوته وجبروته! بدأ الاحتفال بقصيدة الشاعر البحري فراح يتمايل وهو يشدو:

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| قد تم حسن الجعفري، ولم يكن | ليتم إلا بالخليفة جعفر |
| ملك تبوأ خير دار انشئت | في خير مبدى للأنام ومحضر |
| في رأس مشرفه حصاها لؤلؤ | وترابها مسك يشاب العنبر |
| مخضرة والغيش ليس بساكب | ومضينة والليل ليس بمقهر |
| ظهرت لمخترق الشمال وجاورت | ظلل الغمام الصائب المتغزر |
| فرفعت بنياناً كأن مناره | أعلام رضوى أو شواهد صبر |
| ازرى على همم الملوك وغض من | بنيان كسرى في الزمان وقيصر |
| عال على لحظ العيون كأنما | ينظرن منه الى بياض المشتري |

ببانيه باني المكرمات وربّه رب الاخشاب والصفاء والمشعر
 ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاته قطع السحاب الممطر
 وتسير دجلة تحته ففناؤه من لجة غمر وروض أخضر
 ثم تلا ذلك فقرات غنائية وبعدها أدى المهرجون بعض الملاهي
 المضحكة_ وقام المشعوذون بحركات مدهشة أثارت ابتهاج المتوكل
 الذي وهب الجميع ٢/٠٠٠/٠٠٠ درهم جوائز وهدايا_.

وحزّ في نفس المنتصر الذي حضر الاحتفال هذا الاسراف والتبذير كما
 آثار غضبه أن والده كان يعامل أخاه التافه بطريقة يفهم منها الجميع انه
 الابن المدلل وربّما الخليفة في المستقبل.. وسُفحت مئات الدنان من الخمر.
 ولم تكن والدة المتوكل سعيدة بالاحتفال بل أنها انسحبت من المكان
 المخصص لسنة القصر... اما أم المنتصر فلم تسكن القصر بالمرّة وفضلت
 البقاء في الجوسق الخاقاني ولم تكن راضية بطبيعتها المتدنية عن تصرفات
 زوجها خاصّة معاملته القاسية والمذلة
 لابنها_.

وقال المتوكل لأبي العيّن:

- ما رأيك بالجعفري؟

قال الشاعر:

الناس يبنون قصورهم في الدنيا وأنت بنيت الدنيا في قصرك؟

وفي اليوم التالي كان بلاط القصر يعجّ برواة الحديث وكأنهم يتبارون
 بنقل الحديث وحفظ الاسانيد الطويلة... يقف أحدهم فيجر إسناداً طويلاً

عن ظهر قلب: حدثني فلان قال حدثني فلان... التفت عبيدالله بن يحيى وقد برقت عيناه بالندالة وهمس بخبث:

- الآن يمكنك أن تسدد ضربة لابن الرضا.

التمعت عينا الطاغية:

- كيف؟!

- تحضره الآن وتساله عن تفسير هذه الآية: (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً)..

- ولماذا هذه الآية؟!

- لأنه يفسرها في الشيخين.

- حقاً؟!

- نعم يا سيدي.. احضره واسأله أمام أهل الحديث فإن فسرها هكذا كفاك هؤلاء أمره.. وأن فسرها بخلاف ذلك فهي فضيحة له بين أصحابه! وتصور الطاغية أن الامام سيقع في الفخ المنصوب ويقضى عليه انتصاراً للسنة وسيكون مصيره كمصير عيسى بن جعفر بن عاصم الذي اعدم بتهمة شتم الخليفة الأول والثاني.

برقت عيناه وقال:

- ارسل وراءه فوراً!

وكان شيخ طويل اللحية ما يزال يلقلق بسند طويل لحديث مزور سخيف...

عندما وصل الامام كان البلاط يغص برجال الحديث واغلبهم على استعداد كامل لأن يشرب من دماء الشيعة والمعتزلة.

وهب المتوكل للقاء ابن الرضا فور ظهوره في البلاط.. القوام المربوع والوجه الاسمر المهيّب.. وداهمه شعور بالضآلة لا يعرف مصدره... لماذا يتضاءل كلما التقى هذا الرجل العلوي الذي ظهر بعض الشيب في لحيته وهو في منتصف الثلاثين من عمره؟!

لقد مرّ اكثر من عشرة أعوام على احضاره الى سامراء وفي كل مرّة كان يقرّر تصفيته ولكنه يتراجع في اللحظة الأخيرة.. أمّا هذه المرّة فسوف يجعله بين انياب المحدثين!!

عندما استقر بالامام الجلوس ينظر الى جموع أهل الحديث تروي أحاديث لم يتفوه بها جدّه العظيم.. شعر بالحزن المرير لهؤلاء.. وكان أولى بهم أن يعرضوا الحديث النبوي على كتاب الله فأن وافقه أخذوا به وأن خالفه طرحوه.

فالقرآن الكريم وهو المعيار في سلامة الحديث وإلا كان مفتعلاً في زمن بني أمية لارضاء الخلفاء والسلاطين.

ورأى المتوكل الفرصة سانحة لتسديد ضربة لابن الرضا فقال:

323

- يا أبا الحسن ما تقول في تفسير قوله تعالى: (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول ياألنتني اتخذت مع الرسول سبيلا.. يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً)؟!

نظر الامام بعينين تشعان حزناً الى عيدالله الذي شعر بان اشعة نفاذة
تغوص في أعماقه وتفضح ما يموج فيها من دسائس ومؤامرات..
واصغى الحاضرون لما سيقوله الامام وفيهم قضاة ومسؤولون في
الدولة.. قال الامام بهدوء وهو ما يزال يحدّق في وجه عيدالله الذي علته
صفرة شديدة:

- هذان رجلان كنى الله عنهما، ومنّ عليهما بالستر، أفيحبّ أمير
المؤمنين أن يكشف ما ستره الله؟!
قال المتوكل على مضض:
- كلا.. لا أحب.

وهيمن صمت مهيب على المكان، سرعان ما كسره رجل من أهل
الحديث انبرى ليجتر سناً طويلاً ثم يختمه بحديث من انتاج الوضاعين
والأفاكين!

تمت ترقية الضابط التركي «باغر» واصبح شخصية لها نفوذها في البلاط
وأصبح من حقه أن ينتخب بعض رجال الحرس لحماية الخليفة من أية
محاولة للاغتيال.

وبالرغم من أن نفوذ القائد التركي القديم «وصيف» ما يزال قوياً إلا أنه
شعر بان هناك من يحاول الايقاع به، فالوزير بن يحيى لا يكف عن حبك
الدسائس ضد كل من لا ينحني أمام «آل خاقان» الذين اصبحوا الحكام
الحقيقيين، فهناك ما يشبه الحلف بين أفراد الاسرة وزوجة الخليفة التي ما
انفكت تخطط للسيطرة على الخلافة من خلال ابنها المعترّ.

ولكنّ وصيفاً لن يقف مكتوف الأيدي ويتعين عليه أولاً أن يكسب
«بغا» أو ابنه بأية طريقة!!

أما القائد «بغا» العجوز فقد كان واثقاً من مركزه فهو زوج خالة
الخليفة. فزوجته هي اخت «شجاع» فهو إذن خال الخليفة!

كما أن ابنه موسى الذي يلقب بـ «بغا الصغير» أو بغا الشرابي هو ابن خالة
الخليفة والمسؤول الأول عن حفلات المتوكل وهو الذي يقوده عندما
يتمل من الشراب الى مخدعه.

ولذا اصبح في مأمن من دسائس الوزير، ومع ذلك، فان المتوكل لا
يمكن الركون اليه والوثوق به أبداً إنه لم يعد يفكر إلا بمنافعه الشخصية
حتى لو كان ثمنها هلاك العباد ودمار البلاد.

كما أن بغا الكبير ظل يحافظ على هيئته العسكرية من خلال قيادته العامة للجبهة الشمالية حيث الاشتباكات مع الروم تندلع بين فترة وأخرى في ظل ظروف متوترة دائماً ساعدت على تثبيت مركز الخليفة وتبرير استبداده وعندما تهدأ الأوضاع في الجبهات يعود الى سامراء خاصة مع بدء المفاوضات لتبادل الأسرى والتي بدأت هذا العام بعد حلول شهر صفر.

وفي كربلاء كان التوتر ينذر بوقوع انفجار خاصة مع حلول شهر شعبان حيث يحرص الناس على زيارة البقعة المباركة حيث يرقد الحسين رمز الاباء والثورة على الظلم وعلى كل «يزيد» جديد.

فوجئت الشرطة بأعداد غفيرة تتدفق، يشكل سكان الأرياف أغلبية ساحقة.

واصبح من الصعب مواجهة كل هذا العدد خاصة وأنهم لم يأتوا مسلحين وانما جاءوا فقط لزيارة الحسين ابن بنت نبيهم وريحانته!

حاول قائد الشرطة منعهم من الاقتراب وحذرهم من عواقب ذلك ولكنه لمح في عيونهم اصراراً لا يمكن زحزحته، وسمع بعضهم يهتف:
- لو قتلنا عن آخرنا لما أمسك من بقي منا عن زيارته.

ووجه القائد الى سامراء رسالة سريعة يوضح فيها خطورة الوضع..

وجاء الجواب من الطاغية الى القائد بالكف عنهم والمسير الى الكوفة والانكفاء الى المصّر.

وكانت فكرة المتوكل تعزيز قواته العسكرية وضرب طوق كامل على المنطقة ومن ثم القيام بحرثها مرّة أخرى وطمس جميع المعالم التي قد تدل على القبر.

ولذا فقد رابطت قوَّات عسكرية قرب النجف واكتفت بمنع زيارة مرقد الامام علي بن أبي طالب..

وفي هذه الظروف الخطيرة أعلن الامام الهادي عن بعض الافكار المناقضة لسياسة الحكم الفكرية.. فقد اجتمع في منزله جمع غفير من الناس وفيهم علماء كبار.. واتخذ الاجتماع صبغة التحدي للطاغية الذي يريد للأمة أن تستحيل الى قطع من النعاج لا يعرف غير الطاعة حتى لو ساقها الى المسلخ!

وكان واضحاً تماماً أن الامام سوف يجيب على أي سؤال فكري دون تردد..

وكان السؤال الحساس والخطير حول امكانية رؤية الله سبحانه!! فجاء الجواب حاسماً:

- لا يجوز الرؤية ما لم يكن بين المرئي هواء ينفذه البصر فإذا انقطع الهواء، وعدم الضياء بين الرائي والمرئي لم تصح الرؤية.. وكان في ذلك الاشتباه لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان في ذلك التشبيه لأن الاسباب لا بد من اتصالها بالمسببات»..

327

ان الجهاز البصري انما يرى الاشياء من خلال الضوء والهواء وفي انعدامها تستحيل الرؤية.. والضوء والهواء من الممكنات المحدودة فكيف يمكن أن يكونا وسيلة لرؤية القوَّة التي ابدعتها وابدعت غيرها. كما ان الرؤية تستلزم المساواة بين الرائي والمرئي، ولذا صعق موسى النبي عندما أراد رؤية الله:

قال: ربّ أرني أنظر اليك؟

قال: لن تراني... ولكن انظر الى الجبل فان استقرّ مكانه فسوف تراني.

فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا، وخرّ موسى صعقاً!

فلما أفاق قال: سبحانك.. تبت اليك وأنا أول المؤمنين» _.

وسأل آخر:

- هل ان الله جسم؟

وغمرت الامام حالة من غضب مقدس فقال:

- ليس منا من زعم ان الله عز وجل جسم، ونحن منه براء في الدنيا

والآخرة..

يا بن أبي دلف ان الجسم مُحدّث والله محدثه ومجسّمه» _.

ان من يقول بتجسيم الله انما ينفي عنه الأزلية...

تساءل ابن أبي دلف:

- ولكن هشام بن الحكم _ كان يقول بالتجسيم!؟

- مالكم ولقول هشام.. سبحان من ليس كمثلته شيء لا جسم ولا

صورة _.

وسأله آخر:

- هل يمكن وصفه سبحانه؟

328

- ان الخالق لا يوصف إلا بما وصف نفسه، وكيف يوصف الخالق الذي

تعجز الحواس أن تدركه والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه والابصار

عن الاحاطة به!؟

جلّ عما يصفه الواصفون، وتعالى عما ينعتة الناعتون..

نأى في قربه وقرب في نأيه..
فهو في نأيه قريب.. وفي قربه بعيد.
كيف كيف.. فلا يقال له كيف؟
وأين أين.. فلا يقال له أين؟
إذ هو منقطع الكيفية والأينية..
هو الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد..

﴿٢٤٦﴾

وتساءل شيخ تبدو عليه سيماء الإيمان:

- ماهي حقيقة التوحيد؟

أجاب الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب:

- أن نعتقد أن الله لم يزل وحده لا شيء معه، ثم خلق الأشياء بديعاً،

واختار لنفسه الأسماء، ولم تزل الأسماء والحروف معه قديمة..»-

ومن خلال النافذة أرسل الأمام نظرات ملؤها الحزن والخشوع وهو

يحدّق في الافق البعيد ويتمتم بخشوع:

- الهي تاهت أوهام المتوهمين.

وقصر طرف الطارفين.

وتلاشت أوصاف الواصفين.

واضحلت أقاويل المبطلين.

انت في المكان الذي لا يتناهى..

يا أولي.. يا وحداني.

يا فرداني..

ودمعت عيون البعض خشوعاً لله رب العالمين.
غير أن هناك بعض العيون الزجاجية كانت تراقب بقسوة كل ما يجري..
انها عيون الجواسيس الذين لا يفقهون شيئاً مما يسمعون فهم كالانعام بل
هم أضل سبيلاً.

كانت فكرة المتوكل من وراء بناء مدينته الجديدة لا تنحصر فقط في اشباع رغبته المجنونة في بناء القصور فهناك أهداف أخرى أيضاً.. فالبناء يتطلب أموالاً كبيرة، والمطلوب من حكام الولايات توفير هذه المبالغ الخيالية.. وسوف يقود هذا الى ارتفاع الضرائب، وارتفاع الضرائب سيقود الى افقار الناس، الذين سيضطرون الى العمل ليل نهار من أجل الحصول على رغيف الخبز.. وعندها لن يكون لديهم الوقت الكافي للتفكير في سياسة الحكم أو التأمير على الطاغية.

ثم أن المدينة الجديدة قد منحها نفس لقبه: «المتوكلية» وشاعت لدى الناس باسمه: «الجعفرية»، وسيسكنها غلبة القوم أو بعض الشخصيات التي قد تهدد مركزه فيسهل حينئذ مراقبة الجميع ولن يكون بمقدورهم بعد اليوم الاتصال بالشعب... أما الجواسيس فستكون لهم مهمتهم القديمة: تدمير روح المواطنين وانعدام الثقة بينهم.

من أجل هذا خصص المتوكل قطعة من الأرض للإمام أبي الحسن الهادي ليعيش فيها منزله_ وبهذا سوف يعزله عن الناس وتسهل مراقبته جيداً، ولذا اصدر أوامره بمنح الامام ثلاثين ألف درهم_ لتشييد منزله في المتوكلية واخلاء منزله في سامراء بأسرع وقت... وسيكون الامام الهادي بعد نهوض منزله الفخم الجديد في نظر الكثيرين من الناس انساناً مثل

الآخرين... انساناً ثرياً قد لا يختلف عن اصحاب النفوذ من العباسيين وربما حتى القادة العسكريين الاتراك!

ان الذين يعرفون المتوكل قبل أن يصبح خليفة، سوف يصعقون وهم يشاهدونه في صورته الجديدة طاغية كبير ثبت حكمه من خلال اساليب رهيبة جداً.. جواسيس كبار لا يعرفهم المرء فقد يكون الجاسوس خادماً صغيراً أو جارية حسناء، وربما كان شحاذاً متسولاً في سامراء!

كان المتوكل قبل أن يتسلم زمام الحكم شاباً مائعاً بشعره الطويل، الذي يشبه شعر المرأة_ وكانت تلوح عليه ملامح المختئين!!

فأين يكمن يا ترى سرّ كل هذا الإرهاب؟ وكيف تفتق هذا الانسان الوضيع عن طاغية رهيب؟!

ان الاشباح التي يخشاها المرء في الظلام ليس لها وجود إلا في رؤوس الخائفين الذين يتصوّرون خشخشة الأشواك شياطين سوف تنقضّ عليهم..

وكذلك الطغاة انهم ليسو مرعيين بذاتهم... ان صورهم المرعبة لا توجد إلا في اعماق النفوس الخائفة المتسلمة للذل من أجل الحياة..

من أجل هذا يحقد المتوكل على «الحسين» بعد أن استحال رمزاً يتألق مجده كلما ظهر «يزيد» جديد.

332 ومن أجل هذا اقدم الطاغية على تدمير قبة الحسين ومرقد الحسين

وسوى القبر بالتراب... من أجل أن يحطم روح العزّة والاباء في نفوس ابناء شعبه ورعاياه.

ولم لا يكون المتوكل مربعاً ومخالبه تنشب في كل مكان يريد..
وهاهي الاخبار تصل عن اغتيال الشاعر المشرد دعبل الخزاعي في قرية نائية
قريباً من «سوسة»_.

لقد انتهت حياة الشاعر الذي يعد أول من وصف المتوكل بالذئب.
هاهو الآن يرقد في اعماق الثرى الذي يضم بين حناياه رفات الأنبياء.
لقد ظلّ يحمل معه صليبه عشرات السنين متشرّداً في المدن الخائفة_.
تدفق آلاف العمّال الى شمال سامراء للعمل في المدينة ليل نهار، وكان
١٢/٠٠٠ عامل ينهمكون في شق تفرع نهري شمال «المتوكلية» لتأمين مياه
الشرب وملء الأحواض وامداد النافورات بالمياه الكافية.. ولكن «المهندس
دليل» قد بدأت تساوره الشكوك في نجاح المشروع بسبب صلابة الارض
بعد أن باتت معاول العمال تعجز في تفتيت الصخور والحصى كلما أمعنوا
في الحفر وقد تجاوزت نفقات الحفر اكثر من ١/٥٠٠/٠٠٠ دينار دون أن
يبشر النهر بخير.

وكانت جدران القصور والمنازل في المدينة الجديدة قد بدأت ترتفع
ابتداءً من القصر الجعفري الذي يربض في الشمال، وباتجاه الجنوب
الشرقي حيث يوجد قصر «بركوارا»، قصر الامير المدلل «المعتز» وولي
العهد المرشح للخلافة في الوقت الحاضر... بعد أن وصلت العلاقات بين
المتوكل وابنه «المنتصر» الى أرداد مستوى، وليس هناك ما يمنع وقوع
الانفجار سوى «أم المتوكل» التي لا تخفي تضامنها مع حفيدها، ولكنها
الآن قد شاخت كثيراً، وباتت تخطو خطواتها الأخيرة نحو الحفرة التي
تكمن في طريق البشر، وفي مكان ما من الطريق!

وفي تموز سنة ٨٦٠م ربيع الثاني سنة ٢٤٦هـ توفيت «شجاع» ورتب لها تشيع من القصر الجعفري وحتى المسجد الجامع حيث ستوارى الثرى... ولأسباب غير معروفة لم يحضر الخليفة الصلاة فقام المنتصر بالصلاة على جثمان جدته التي دفنت عند المسجد الجامع..

وفي شعبان توترت الأجواء في بغداد والكوفة وفي كربلاء وحتى في سامراء..

وأصبحت «زيارة الحسين» في هذا الشهر المبارك وقبل حلول الشهر الكريم هاجس الكثيرين..

وكالمعتاد ضاعفت الحكومة قوّاتها العسكرية في الطرق المؤدية الى الأرض المباركة حيث هوى الحسين شهيداً.

فرضت الحكومة هذه المرة غرامات مالية ثقيلة يدفعها الزائر لكي يمكنه التوجه إلى كربلاء، وكان بعض المؤمنين قد وضع علامات تحدد مكان القبر..

وبالرغم من وحشية الإجراءات إلا أن سيل الزائرين لم ينقطع، ووقعت بعض الحوادث المؤلمة واعتقل كثير من الزوار سيقوا الى سجن المطبق الرهيب في بغداد.

334 وبسبب كثرة الزوّار وازدحامهم وارتفاع أصوات الذين يكون

لمظلومية سبط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).. شعر الطاغية بالخطر فأرسل تعزيزات من الجيش.

وهناك قرأ انذار شديد اللهجة يهدد بالموت كل من يقترب من القبر..

كانت الغيوم تتحشد في السماء.. غيوم حزينة كابية تجسد بمرارة حزن الخريف وظل القمر قابلاً خلف السحب.. وفي نهاية الاسبوع الثالث من شعبان تدفقت الغيوم مطراً غزيراً.. لكأن السماء تبكي، وأضحت السماء من شمال بغداد وحتى جنوبها عند كربلاء ملبدة بالسحب الداكنة.. واستمر المطر يهطل بشكل متواصل تخف زخاته وتشتد.. حتى أن أهل بغداد لم يروا هلال رمضان بسبب كثافة الغيوم فصاموا باستهلال المدن القريبة..

ولم تكف السماء عن البكاء إلا في منتصف شهر رمضان المبارك وظهر القمر ندياً تحيطه هالة من النور؛ وظهرت السماء زرقاء صافية بعد واحد وعشرين يوماً من المطر، ولكن الأفق الغربي لم يزل يحتضن بعض نتف السحب الرمادية.. وفي بغداد نبت العشب فوق الأجاجير.. ولكن ما أثار الدهشة ذلك الخريف أن السماء أمطرت دماً عبيطاً في «بلخ»!!

وقبل أن يظهر هلال شوال أحيط أهالي سامراء بأن صلاة «عيد الفطر» سوف تقام في العاصمة الجديدة ولذا يتعين على الجميع الحضور مع طلوع الشمس وكانت رياح كانون الأول تبشر بشتاء قارس طويل.

لم يحضر الخليفة في الوقت المناسب وكانت الجموع الغفيرة التي قطعت اربعة أميال بين سامراء والمتوكلية قد ساورها حزن مكبوت بسبب جبروت لا ينفك الخليفة تجسيده في تصرفاته..

وفيما كانت الجموع تنفض للعودة والابتهاج بالعيد السعيد كان المتوكل في طريقه الى أحياء المتوكلية.. وقد ظهرت بعض القصور والمنازل.. ولفت نظره منزل الامام الذي لم ترتفع أسسه إلا اشباراً معدودة...

وانفجر بركان غيظ وحقد والتفت الى وزيره الذي اصبح مركزه قوياً وراح يتهدد:

- اذا جئت مرة أخرى ورأيت البناء لم يرتفع فسأقتله.. وسأحرقه..

وراح المتوكل يتشظى غيظاً وهو يؤكد تهديداته بالقسم.

قال الوزير محاولاً اشباع رغبته الى التملق:

- يا أمير المؤمنين.. لعله في ضائقة.

- ارسل اليه عشرين ألف درهم!

وفي الضحى من نفس اليوم كان احمد بن عبيدالله يحمل المبلغ في طريقه الى سامراء وقال ابن الوزير:

- ان والدي أرسل اليك هذا المبلغ لانفاقه على البناء، وأمرني أن ابلك

ما حدث.. ان الخليفة يهدد ويتوعد ويقول إذا ركب الى البناء مرة أخرى ولم يره قد ارتفع فسوف يقتلك.

قال الامام بهدوء وقد تألقت عيناه بحزن سماوي.. لكأنه ينظر الى

المدييات البعيدة:

- «إن ركب الى البناء»..

وعلق الوزير وهو يستمع الى تقرير ابنه:

- إذن لن يركب الخليفة الى البناء..

تساءل الابن:

- كيف؟!

- انني يا بني أعرف هذا العلوي أنه يقول أشياء عجيبة... لكأنه ينظر الى

صفحات الغيب ويقراها سطرًا سطرًا.

وفي منتصف شوال بدأت رياح كانون الثاني بالهبوب تبعثر أوراق الاشجار التي استعصى قلعها على الخريف، وتصاعدت وتيرة الحفلات في قصر الجعفري حفلات تسفح فيها القيم الأخلاقية أمام عربدة غرائز مجنونة لا تعرف الشبع، ويمكن القول أن المتوكل الذي أدمن بشراهة الخمر قد اصبح في سكر دائم وبدا القصر الكبير بمساحته الواسعة وغرفه الكثيرة يستحيل الى بيوت عناكب.. وقد استعرت حمى الدسائس.

واحس القائد التركي «وصيف» بأن مؤامرة خطيرة تستهدفه وأن الفتح بن خاقان ومعه أسرته المتنفذة والمسيطرة على شؤون القصر سوف توجه له ضربة قاضية، وأن زوجة الخليفة النهمة التي يسيل لعبها للمال تتطلع مع آل خاقان لنهب ثروته!!

عليه أن يبادر قبل فوات الأمان!!

وفي جنح الليالي المظلمة كانت رقاع مكتوبة بعناية فائقة ترمى في هذه الغرفة أو تلك أو تسقط بطريقة ذكية في طريق بعض موظفي القصر الكبار. وقعت في يد القائد بغا عدة رقاع كلّها تشير وتؤكد نوايا المتوكل بالحدّ من نفوذه ومصادرة بعض ممتلكاته بل وحتى قتله بصورة سرّية_ وتزامن ذلك مع وقوع رقاع أخرى في يد المتوكل ورئيس وزرائه تحذر من حركة عسكرية سيقودها بغا ضد الخليفة الذي زادت هواجسه فأمر بمراقبة «بغا» من بعيد.

كما تكثفت المراقبة لمنزل الامام في سامراء، وكان الجواسيس يضحون من الحوادث الصغيرة بحيث يتحول لقاء صغير بين الناس والامام الى تقرير خطير يحذر من احتمال جمع الإمام للرجال استعداداً للثورة!

أما المنتصر فقد أصبح هاجساً ثقيلاً لدى المتوكل، الذي كان يستغل المناسبة وغير المناسبة للحط من شأنه والتنكيل به وإذلاله. وبات الجميع يدركون أن الحكم قد أصبح بيد آل خاقان ومن ورائهم زوجة الخليفة ذات النفوذ المتفاقم. وبدأت أجهزة البلاط تخطط بشكل جنوني لتعزيز مركز المعتز على حساب أخيه. وقد دفع هذا الوضع «بغا» و«وصيف» الى الالتفاف حول المنتصر ولو من بعيد والتضامن معه بشكل سرّي، والاستفادة منه باعتباره الوريث الشرعي للخلافة بعد أبيه.

الرياح الشتائية تتحب وهي تقطع المسافات بين قصر الجعفري الرهيب وحتى سامراء، على امتداد الطريق العريضة... حيث تنهض منازل حديثة وقصور منيفة..

الرياح تجوس الأزقة الغارقة في الظلام، وقد غاب القمر في المحاق.. ومازاد الظلام رهبة الغيوم الكثيفة وهي تقطع السماء الكحلية بسرعة كسفن هزمت في معركة ضارية.

ومن خلال نوافذ القصر الجعفري المتوهجة بالأضواء يحدث المرء بذخ الليلة الساهرة التي أحيها الطاغية.. وكانت أصوات ناعمة وأخرى مخنثة متقطعة يمكن للمرء أن يسمعها لو أصاخ السمع قليلاً.

الطاغية الذي تمدد مسترخياً متكئاً على ساعده الأيسر يرتشف متلذذاً خمرة معتقة، وكانت الكؤوس تدور على الحاضرين وفي طليعتهم وزير البلاط عبيدالله بن يحيى، وبعض الندماء، ابن الحفصي، سلمك، عثعث، سليمان الطبال، حشيشة، ابن القصار، صالح الدفاف، ومن المطربات، عريب، سراب، عرفان، نجلة، فريدة، فيما انفردت محظيته «محبوبة» بمكان مرموقٍ وقد بد أباغر التركي وهو قائم خلف السرير الملكي عملاقاً اسطورياً.

واتشى المتوكل منفعلاً مع انغام الموسيقى وغناء المطربات... وفي صمت كان موسى بن بغا الكبير المعروف بـ «بغا الشرايبي» يراقب الخليفة إذ

يتعين عليه انهاء السهرة إذا ثمل الخليفة، أو إذا تجاوز في شربه سبعة أرطال من الخمر.

كؤوس الخمرة تدور، وتدور معها رؤوس غادرتها العقول.
الخمرة مياه آسنة تطفئ وهج العقل... ذلك القبس السماوي الذي يمنح الانسان هويته.

ليس هناك ما هو أخطر من طاغية يستحيل الى عبد خانع.. عبد لشهواته وغرائزه المجنونة.. وعبد لمخاوفه وهواجسه.. انه يجد نفسه وحيداً في صحراء قاحلة.. ليس لديه اصدقاء.. لديه فقط أعوان قد يقومون باغتياله لأنهم اناس أوغاد بطبعهم..

انه يشعر بالحاجة اليهم.. مضطراً الى تملقهم.. من أجل هذا كان المتوكل مضطراً لارضاء أسرة خاقان التي تفاقم نفوذها بشكل سرطاني..

إنّ كل ما يجري حوله يشعر به من خلال رئيس وزرائه الفتح بن خاقان أو وزير البلاط عبيدالله بن يحيى بن خاقان.. انه مضطر أيضاً لارضاء زوجته التي لا حدود لاطماعها ومضطرّ إلى أن يفعل كل شيء من أجل عرشه..

انه يخشى غضب الشعب الذي ينوء تحت وطأة ضرائب تقصم الظهر.. انه مضطر لاقفار الناس حتى لا يفكروا بشيء سوى الحصول على رغيف

340 الخبز.. انه مضطر.. مضطر لأن يخضع لقوى عمياء تحيله الى عبد.. نذل..

وغد.. ذئب.. طاغية.. يسعى الى أن يجعل من أمته قطيعاً ذليلاً من النعاج..

يلتهم لحومها.. يرتدي أصوافها ويتلذذ بشرب البانها ثم يرمي عظامها بعيداً!!!

ولكن ما يثير رعبه وجود الأحرار ذوي الكرامة الذين يترفعون عن
الخنوع.. التذلل.. الخنوع..

أنه يجعلهم تحت رقابة خانقة.. فيقتلهم مع أول تقرير تنقله إليه كلابه
المسعورة..

وربما انتابت الطاغية هواجس مرعبة وهو في حالة سكر فتقفز بعض
مخاوفه الرهيبة فإذا به يصدر أمراً الى جلاوزته الأوغاد بمداهمة رجل
كريم في قلب الظلام.. وهذا ما حصل تلك الليلة الشتائية عندما استكمل
المتوكل شرب ثلاثة أرتال من الخمر..

وفي منتصف الليل وفيما كانت الرياح الشتائية تهب من صوب الشمال
شهد درب الحصا هجوم عصابات الليل.. وخليطاً من أشباه الرجال فيهم
أتراك غلاظ وزنوج وأجلاف من قبائل الخزر.. فجاسوا خلال الحجرات..

كان الامام يرتدي ملحفة من الصوف مستقبلاً جهة الجنوب يتلو بحزن
آيات من القرآن في حجرة خالية:

- «تبارك الذي جعل في السماء بروجاً..

وجعل فيها سراجاً..

وقمراً منيراً..

وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر

أو أراد شكوراً..

وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً..

وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً..

والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً.

واقترح الأوغاد الحجرة.. ليقطعوا تراثيل الآيات... ليوقفوا النهر
السماوي الخالد..

لم يكن في الحجرة شيئاً ولا في غيرها سوى بعض الكتب..
رفع الامام رأسه ولم يبد عليه أي ردّ فعل.. كانت السكينة تغمره ويشع
من عينيه نور يعكس انسجام نفسه المتسامية وروحه الطاهرة..
ولقد كان منظر الأوغاد يحيطون به يحكي غربة الانسان المقهور...
وعندما أراد الامام أن يرتدي بدلة الخروج قال أحدهم بغلظة:

- ان أمر الخليفة يقضي بحملك على نفس الهيئة التي وجدناك عليها..
واقتيد الامام مخفوراً من سامراء وحتى القصر الجعفري الرابض في
شمال «المتوكلية».

كانت رياح الشمال تلفح الوجوه.. وتزيد من استعار البرد وقد اختلط
أنين الريح وسنايك الخيول، وعواء ذئاب بعيدة، لتؤلف معاً موسيقى تبعث
الرغبة في القلوب، وقد زاد من رهبة الطريق الأفق المزدهم بغيوم كالحبة،
وقد ظهرت نجيمات تفعل المستحيل من أجل أن تنقل بصيص نور الى
الارض الغارقة في بحر الظلمات... فتحت بوابات القصر المواجهة لدجلة..

ويرسم القدر في تلك الليلة الموحشة لوحته الرهيبة.. إذ الرياح تولول

342 خلال الدروب الغارقة الظلام فيتألق مشهد من مشاهد النبوات الغابرة..

عندما يقف ابراهيم وجهاً لوجه أمام النمرود، أو يواجه موسى فرعون ذا
اللاتاد..

كان الطاغية على وشك أن يعبّ كأساً أخرى مترعة بسائل يطفئ
شموع العقل.. عندما دخل الجلاوزة وهم يحفون برجل اسمر يرتدي ثياباً

منسوجة من الصوف.. فبدا في وقفته المهيبة وإبائه ووجهه الاسمر؛ موسى
الذي دخل على فرعون في قعر قصره.

قال جلواز بصوت فيه خنوع العبيد:

- لم نعثر يا سيدي على أي شيء.. لا سلاح ولا أموال.. لقد فتشنا المنزل
تفتشياً دقيقاً.

تأمل الطاغية الوجه الاسمر فداخله شعور غريب هو مزيج من التهيّب
والحنق مع قدر مدمّر من الحقد.

أشار الطاغية الى غريمه القديم ليجلس معه على السرير جلس الامام
وقد غمره شعور بالحزن لمشهد دنان الخمر... وقد اصطف اسفل السرير
حشد من المهرّجين الذين يعبدون الطاغوت من دون الله..

ناول الطاغية الرجل الاسمر كأسه... فقال الذي ورث أخلاق النبوات:

- اعفني يا أمير المؤمنين.. انه لم يخامر لحمي ولا دمي أبداً.

قال الطاغية:

- إذن انشدني شعراً.

- إنني لقليل الرواية للشعر.

قال الطاغية بإصرار:

- لا بد من ذلك!

وهيمن صمت مهيب.. صمت يشبه السكون قبل هبوب العاصفة..
السكينة قبل هطول المطر.. صمت يجسّد لحظات الحزن الأخيرة قبل
انبجاس الدموع.. وجاء صوت الامام حزيناً معبراً، يكشف حقائق الحياة
والانسان والتاريخ:

«باتوا على قلل الاجبال تحرسهم
 واستنزلوا بعد عز من معاقلهم
 ناداهم صارخ من بعد ما قبروا
 أين الوجوه التي كانت منعمةً
 فافصح القبر عنهم حين ساء لهم
 قد طالما أكلوا دهنًا وما شربوا
 وطالما عمّروا دوراً لتحصنهم
 وطالما كنزوا الأموال وادّخروا
 أضحت منازلهم قفراً معطلةً
 وصاب الامام نظرة تتجلى فيها رحمة الانبياء:

سل الخليفة إذ وافت منيته
 أين الرماة أما تُحمى بأسههم
 أين الكماة أما حاموا أما اغضبوا
 هيهات ما نفعوا شيئاً وما دفعوا
 فكيف يرجو دوام العيش متصلاً
 أين الحماة وأين الخيل والخول؟
 لما أتتك سهام الموت تنتقل؟
 أين الجيوش التي تُحمى بها الدول؟
 عنك المنية إن وافى بها الأجل
 من روحه بحبال الموت تتصل؟!

344 وعندما هدأت صواعق الكلمات توقع الحاضرون أن رأس هذا السيد

الحصور سوف يتدحرج.. وأن باغر التركي سوف يستل سيفه الاسطوري..
 ليهوي به على رأس يحيى بن زكريا، ليستقر عند قدمي «سالومي» الجديدة،
 زوجة الطاغية تلك المرأة الغامضة... ولكن ما حدث كان يشبه أمواجاً
 غاضبة تدمر المجد الزائف الذي بينه الطغاة فوق جماجم الابرياء..

ذلك أن الذين يتربعون فوق عروش المجد الدنيوي سوف ينحدرون
الى هاوية سحيقة.

سيلوي القدرُ سواعدهم المفتولة.. القدر.. المصير الحتم الغامض
الموت.

ويستحيل العرش الى شاهدة قبر بائس، حيث يرقد الإنسان بعد ضجيج
السنين تحت التراب..

ويصبح القبر الى ميدان تتصارع فيه الديدان... ويُسأل الراقد الذي
يمتصه التراب وينهشه الدود، ولكن السؤال يبقى دون جواب لم يعد هناك
من فرق بين النور والظلمة.. أشرقت الشمس أم لم تشرق... لأن عالم
القبور.. عالم صامت مقفر إلا من عظام الموتى.. عالم يلفه ليل طويل كليالي
الأبد..

وبالرغم من السكون المهيب فأن القبر يكاد يهتف بالحقيقة.. حقيقة
الحياة والانسان!!

﴿٢٥٧﴾

آه ان جماجم الملوك عارية من التيجان.. والخدود المتوردة بالدماء هي
الآن جزء من التراب الذي يلف الجماجم النخرة.

345

كل شيء يستحيل الى رماد ورفاة.. حتى الأغاني والزهور، وتستحيل
القبور الى عالم صمت يرهف سمعه الى الخطى التي تجوس الدروب
خلال الحقول... فالعالم فوق التراب يضحج بالحياة.. والأشياء التي كانت في
قبضة الموتى ذات يوم هي الآن في قبضة الآخرين..

القصور يسكنها الآخرون، والأموال في أيدي الآخرين.. انها حركة الاجيال تصاعد من التراب، وتعود اليه ولو بعد حين.

تلك حكاية القرون.. القرون التي مضت.. فالانسان مهما ملأ الدنيا ضجيجاً له موعد يوماً ما مع نومة في التراب.. انه يقترب شيئاً فشيئاً من حفرته التي تكمن له في الطريق.. طريق الحياة.. ولن ينفع الملك جنوده، ولن تجديه جيوشه ولن تحميه سيوف حرسه الخاص..

وحده صوت الموت يبقى هادراً يدمر جدران الاجيال.. وفي كل لحظة من الحياة تنتظم قافلة الموتى فيها ألف حسناء.. آلاف الرجال.. وربما آلاف الاطفال أيضاً..

آه من الموت.. الموت.. نهاية الحياة..

آه من السكون.. السكون خاتمة الضجيج..

آه من الظلام.. الظلام.. الظلام الدائم..

آه من أجل الأنفاس المضخمة بالعطر والشذى والعبير.. انها تستحيل الى تراب.. تراب.. تراب..

... ما أشدّ ضعفك أيها الانسان.. ما أشدّ غفلتك.. الموت هناك.. في مكان ما يتربّص بك.. لا تحاصر النقاء في أعماقك.. لا تقهره.. لا تثقله

346 بالسلاسل والأغلال.. لا تصعّر خدك لأخيك.. لا تحاول خنق أنفاس

اخوتك.. لا تكن ذئباً.. فكّر في النهاية.. انظر الى المدى البعيد.. البعيد انظر!! الى هناك.. نعم هناك ألا ترى شيئاً؟!

ألا ترى قوافل الزمن الراحل؟!

كل شيء يتحرك باتجاه الموت.. الأعوام تذهب.. الحياة.. تنضب..
ويذوب الانسان.. يتعب.. يموت في الخريف كالشجر..
وكأوراق الشجر الصفراء تتبعثر أحلامه آماله والأعوام التي مملأها
صخباً.. كلُّ شيء في مهبِّ العاصفة القادمة.. عاصفة الموت..
كما الزلزال يدمر صرحاً فرعونياً ويحيله الى أنقاض وشظايا فعلت
الكلمات القادمة من عالم الحقيقة المطلقة فعل الزلزال... لقد خمد عواء
الذئاب، واختبأ الخنزير المتوحش في الأعماق في لحظة من لحظات
الاصغاء البشري والخضوع... فوجيء الجميع وفي مشهد عجيب بالطاغية
يبكي.. وقد أشار بكفه أن ارفعوا مائدة الخمر!! وفي لهجة شابهها تودد همس
المتوكل:

- عليك دين يا أبا الحسن؟

قال الرجل الاسمر:

- نعم.. أربعة آلاف دينار.

والفت المتوكل الى وزير البلاط وأمره بصرفها فوراً، كما أمر بمرافقة

الامام الى منزله مكرماً..

ليس هناك ما هو آلم من إنسان حرّ شريف أبي قدر له أن يحيا في زمن طاغية.. زمن يضحّ من عواء الذئاب.. إن إنساناً محاصراً كهذا سوف تتضاعف محتته إذا غمره شعور بالمسؤولية تجاه أمته وشعبه.. وهداية التائهين في دروب الحياة.. سوف يدوي مثل شمعة تحترق في ليل دامس كثيف الظلمات.. لكنه لو مات فسوف يموت واقفاً كما النخيل.

وتمرّ الأيام حزينة.. كل شيء يبدو كايّاً.. فإذا غطت الغيوم السماء فإن دموع الحزن والحنين تنبجس ساخنة فيها حنين الى أيام مضت وحنين الى صفاء مفقود..

لقد مرّت شهور وجاء خريف سنة ٢٤٧هـ ٨٦١م.. دمياط في مصر تتعرض الى غارات الروم، ولم يكن الخليفة الذي أصبح دائم السكر ليكثر، أو يفكر بإرسال إمدادات للمدينة المنكوبة.

لقد أصبح الطاغية في الشهور الأخيرة أكثر جنوناً.. حفلات صاحبة وليالي حمراء، ولم يعد التكهّن بتصرفات المتوكل، ولكن موظفي القصر

الصغار باتوا يدركون أن هناك صراعاً سرياً مستعراً بين جناحين، جناح يقوده عبدالله بن يحيى وزير البلاط ومسؤول ديوان التواقيع.. ويتضامن معه

الفتح بن خاقان ويسانده المتوكل شخصياً، وجناح آخر بقيادة القائد التركي «وصيف» الذي نظّم جبهة قوية خاصة بعد أن كسب الى جانبه القائد

العسكري «بغا الكبير» وابنه بغا الشرابي، وبعض القادة الاثراك بما فيهم

«واجن» و «باغر» ذلك الضابط التركي الطموح وقد أفاد «وصيف» من العلاقات المتوترة بين المتوكل والامير محمد المنتصر والتي راحت تتدهور من سيء الى أسوأ..

مع اطلالة شعبان كان القصر الجعفري ينذر بوقوع انفجار ما فقد باتت الاجواء مشحونة بالخطر..

وكانت نوبات هستيرية ما انفكت تنتاب الطاغية واصبح من المتعذر ادخال البهجة الى روحه المعذبة..

وكان السكر الدائم والهوس الجنسي الذي يخونه العجز في بعض الأحيان يدفع بالمتوكل الى المزيد من الجنون.

وربما خامرت رئيس الوزراء، ووزير البلاط، وآل خاقان فكرة خلع المنتصر من ولاية العهد أو حتى اغتياله لتمهيد الطريق أمام المعتز.. فقد يموت المتوكل أو يتعرض لحادثة ما من يدري؟

وكان نفوذ زوجة المتوكل المتفاقم قد أسهم في تأجيج الصراع السري الرهيب والذي بات دخانه يحرق العيون؛ وكانت تقارير الجواسيس تزيد من استعار الصراع الذي بات ينذر بحريق كبير.

وفي ظروف بالغة القسوة وفي أرض تتحطم على صخورها المعاول ما

يزال اثنا عشر ألف عامل ينهمكون في شق النهر.. يعملون من الصباح الى المساء كالعبيد من أجل اشباع شهوة طاغية مجنون لا يفكر إلا بلذائذه المجنونة.. حتى بات المهندس النصراني دليل بن يعقوب يتمنى في أعماقه سقوط الطاغية قبل أن يكشف فشل المشروع الذي أرهق ميزانية الدولة

وفيما كانت رياح تشرين تكتسح خضرة البساتين وتملأ الحدائق بالأوراق الصفراء والبرتقالية.. وصلت القائد «وصيف» معلومات مؤكدة حول إعداد فرامين رسمية تقضي بمصادرة جميع ممتلكات «وصيف» وأراضيه الزراعية في اصفهان وشمال ايران الى جانب تعليمات بتسجيل هذه الممتلكات باسم رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.

ولم يبدد «وصيف» وقته بل راح يخطط لاغتيال الخليفة وبدأ يكتف من لقاءاته مع «بغا» و«باغر» ومع ولي العهد المغضوب عليه..

وقد فعلت الرسائل السريّة الخالية من أي توقيع فعلها لدى بغا الشرايبي حول وجود نوايا لدى الخليفة بإقصائه عن مركزه في البلاط..

وفي الجانب المقابل كان عبيدالله بن يحيى يخطط هو الآخر للقضاء على نفوذ القادة الأتراك، وكانت مخاوف الخليفة تنعكس داخل القصر في لقاءاته المتوترة بابنه المنتصر فاصبح ديدنه توجيه الاهانات اليه ومحاوله الحطّ من شأنه... وفي الليالي الخريفية، يستحيل القصر الى بؤر للمؤامرات، والمؤامرات المضادة والدسائس..

وباتت لدى البلاط الحاكم بزعامة الوزير قناعات ثابتة بضرورة اغتيال الأمير المنتصر والقضاء على القادة الاتراك..

350 وفي المقابل كان وصيف قد نجح في اقناعه اعضاء جبهته بضرورة

اغتيال المتوكل وأن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم، وكانت الاجواء تزداد توتراً حتى اطلالة رمضان الكريم الذي لم يرَ أحد هلاله بسبب كثافة الغيوم.

ولم تتمكن الرياح تشرين من ايقاف استعار حمى التآمر وفي الليالي حينما يشتد الظلام كان الناس يسمعون عواء ذئاب بعيدة... كما امتلأت السجون خاصة سجن المطبق الرهيب بألاف المعتقلين من شيعة أهل البيت والعلويين..

وكان العلويون يعيشون حالة معاشية يرثى لها، وقد اضطر الامام الهادي نفسه الى العمل في الزراعة والاقتراض للانفاق على الفقراء والمعوزين الذين تتنامى اعدادهم بشكل مؤسف.

واصبح التشيع لأهل البيت وزيارة الامام علي(عليه السلام) والاقتراب من أرض كربلاء بقصد زيارة الامام الحسين جريمة تعاقب عليها الدولة بأشد العقوبات.

واصبحت حياة الطاغية الشخصية موضوعاً مبهماً يحير الشعب، وبات من المستحيل لقاءه، في زمن فيه الظلم والعدوان واغتصاب الحقوق والحريات ووصل القهر حدّاً جعل بعض زعماء البيت الهاشمي يشعرون بالخطر.

ولذا فعندما أعلن عن البلاط أن الخليفة سيصلي آخر جمعة من رمضان بالناس في المسجد الجامع بسامراء. هبّ الكثيرون للسفر الى سامراء لتقديم الشكاوى من حيف وظلم الولاة_، في زمن لم يبق فيه لسلطة القضاء وجود حقيقي.

كانت حياة الطاغية في رمضان سلسلة من الحفلات الماجنة والكوابيس وكان المحيطون به يتفنون في ادخال الرضا الى قلبه المترع بالجحيم..

وذات ليلة وفيما كان المؤمنون يناجون رب السموات المرصعة بالنجوم
وكلمات الحبّ الالهي تدور في فضاء السحر.. كان الطاغية يتعذب تحت
وطأة كابوس مخيف..

« كان يرتقى ظهر موظف أرمني في القصر.. يدور به في أروقة القصر
وهو يقهقه عالياً.. فجأه كبر رأس الأرمني بشكل مخيف، وشعر هو بالرعب
اصبح الراس مربعاً ثم نطق بكلمات مخيفة:

«إلى كم تؤذينا..» _.. وحاول هو الفرار.. ولكن رجلاه كانتا قد تسمرتا..
ثم هبّ من نومه ليحف عرقه».

وفي اليوم التالي.. استدعى الطاغية المنجم علي بن يحيى ليقراً له
صفحات من المستقبل الغامض.. وتعثر المنجم في قراءته وثم سكت قال
الطاغية:

- مالك توقفت؟!

أجاب المنجم مرتبكاً..

- لا شيء.. لا شيء يا سيدي.

- اقرأ إذن..

استأنف المنجم القراءة متوجساً:

- ويقتل ملكك في مجلس شراب.

أشار المتوكل بيده.

- يكفي..

ثم أستطرد مغمماً وقد اجتاحتته موجة من الحزن الغامض:

- ليت شعري من هذا الشقي المقتول؟! _

وفي يوم الجمعة ٢٨ رمضان ٢٤٧هـ كان المتوكل يستعد لإمامة المصلين في سامراء حسب ما أعلن عن البلاط.. ولكن رئيس الوزراء ومعه ابن أخيه وزير البلاط قرّرا استثمار هذه الفرصة لتسليط الاضواء على المعتز.. والايحاء للجميع بأن المنتصر قد انتهى سياسياً قال الوزير بلهجة فيها تملق وخبث:

- يا أمير المؤمنين إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك وبعض متظلم وبعض طالب حاجة.. وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة.. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر ولي عهده بالصلاة ونكون معه جميعاً فليفعل.

استجاب الخليفة فوراً ولكنه تطّلع الى وزيره ساكتاً فقال رئيس الوزراء:

- يا سيدنا انا نتمنى أن تأمر الأمير المعتز بالصلاة لتشرّفه بذلك فقد

اجتمع أهل بيته والناس جميعاً!

هزّ المتوكل رأسه موافقاً وبدأت الاستعدادات لترتيب موكب مهيب يليق بخليفة المستقبل، وطبقاً لأوامر من البلاط يتعيّن على أهالي سامراء استقبال الأمير والاحتفاء به.

وكانت تصرّفات الوزير ورئيس الوزراء اللذين رافقا الأمير في موكبه

رسالة معبرة.. تصرخ بأن المنتصر قد انتهى الى الأبد.

وقد أثارت هذه الخطوة من الطاغية غضب المنتصر الذي سجّل

احتجاجه بانزوائه في الجناح الخاص به في قصر الجعفري.

ان القادة الاتراك وفي طليعتهم وصيف وحدهم يعرفون مخزون الغضب
المكبوت في اعماق الأمير.. ولولا ذلك الصبر المدهش وضبط النفس لقام
المنتصر بحماقة تودي بحياته.

لقد حكم الطاغية بهذه الخطوة على نفسه بالموت.. لم يعد في وسع
المنتصر السكوت بعد الآن.. ان الموت افضل بكثير من حياة الذل
والخنوع.. سوف يثار لكرامته المهدورة ولحقوقه المصادرة..

وخلال يوم الجمعة ويوم السبت عمّت الشائعات حول تدهور صحة
الخليفة.. وقد ساعد على انتشار الشائعات حضور المعتز بدل والده، وتقيل
رئيس الوزراء ووزير البلاط الأول يديه وقدميه _ وما قام به نخبة من
الحرس الخاص من مراسم تخص الخلفاء.

بدأت رياح كانون الأول بالهبوب وتبعثر أوراق تشرين الصفراء هنا
وهناك.. فيما

بدأت الأفاق غارقة في الظلام والمستقبل غامضاً يختبئ وراء ستائر
المجهول!

(٥٦)

من فوق المئذنة الملوية ارتفع آخر أذان في شهر رمضان وكان ذلك
يوم السبت ليلة الأحد.. وكان بعض الصائمين فوق اسطح المنازل يتطلعون
الى الافق الغربي بالرغم من وجود بعض نطف الغيوم..

وظهر هلال شوال بابتسامته الجميلة الخجولة.. وهتف صائم مبتهجاً:
- هناك! انظروا هناك!

وبالكاد رؤي الهلال.. هلال عيد الفطر السعيد..

ومن بعيد بدا القصر الجعفري الرابض فوق ربوة في الشمال نسرأً جاثماً
يتربص بضحية ما!

كان المتوكل متوتر الأعصاب جدأً، تشتعل في عينيه آلاف الحرائق
المجنونة.. لقد تحدد موعد خطير.. سيشهد يوم الخميس القادم تساقط
رؤوس كبيرة.. سوف يسقط رأس «وصيف» و«بغا» ورأس ابنه العنيد أيضاً..
ورؤوس أخرى..

وفيما كان الطاغية يهيم في أروقة القصر وقعت عيناه على الموظف
الأرمني فصرخ بالحاجب زرافة:

- اطرودوا ذلك الارمني من القصر!

فغر زرافه فاه من الدهشة.

- ولكنك يا سيدي كنت تحب خدمته.

وتوقف الطاغية لكأنه يحدث نفسه:

- أجل كنت احبّ خدمته ولكني رأيت في الحلم يتأفف مني!!
كان الرجل ينتظر مكافأة في ليلة العيد ولكنه وجد نفسه في الشارع
المؤدي الى سامراء وحيداً..

مع أول خيوط الشمس كان وزير البلاط يصدر أوامره لتنظيم موكب
الخلافة حيث تقرر أن يصلّي الخليفة في المسجد الجامع بسامراء صلاة
العيد... كان المتوكل قد بدا شاحب اللون_ وكان من الواضح أنه قد امضى
ليلة عصبية لم يغمض له فيها جفن.. ولذا بدا أكثر صفرة باستثناء عينيه اللتين
كانتا ترسلان بريقاً مخيفاً..

كانت رغبة الخليفة المجهد البقاء في القصر.. ولكن الوزير قال محذراً
من تزايد الشائعات:

- يا أمير المؤمنين قد كان الناس تطلعوا الى رؤية أمير المؤمنين في يوم
الجمعة فاجتمعوا واحتشدوا فلم يركب أمير المؤمنين.. ولا نأمن إن هو لم
يركب أن يرجف الناس بعلته ويتكلّموا في أمره.. فإن رأى أمير المؤمنين
أن يسرّ الأصدقاء ويكبت الاعداء بركوبه فعل..

اشتعل حقهه وتأجج في أعماقه الخاوية.. وصادر أمره بالتأهب وأن
يُنظّم استقبال شعبي يمتد من القصر الجعفري الى سامراء..

356 ولذا مع شروق الشمس كانت الجموع التي حشدت بالقوة تترقب
خروج الخليفة من القصر.

وكانت قووات من الحرس والجيش تنتشر على جانبي الطريق العريضة
وهي في حالة استعداد تام.

وخرج المتوكل بصحبة رئيس الوزراء على فرسيهما وخلفهما بعض الوزراء والحجّاب وكبار موظفي القصر.

والقى الطاغية نظرة فيها كبرياء على الجموع، ولمح ابن الرضا على بغلته وقد بدا مهيباً غارقاً في طمأنينة وسكينة.. لم تكن تصدر عنه حركة واحدة تنمّ عن اكتراثه بالضجّة التي ارتفعت احتفاءً برؤية الخليفة... وغاظه موقف ابن الرضا وداهمه شعور رهيب بالحقارة..

ان هذا العلوي الأبيّ ينافسه في الجلال الذي يجب أن يكون له وحده.. التفت الى ابن خاقان وقال بلهجة آمرة:

- قل لابن الرضا أن يترجّل ويمشي قدّامي.

قال الفتح متوجساً:

- يا سيدي إن في ذلك شناعة عليك وسوء قالة!!

- يجب أن يترجّل.. ان ذلك يحطّ من شأنه فيستهين به الناس.

قال ابن خاقان وهو يخشى ردود فعل خطيرة:

- إذن أصدر أمرك لجميع القادة والأشراف وذوي النفوذ بالترجّل.. حتى

لا يظن إنه هو المقصود وحده!

هزّ الطاغية رأسه موافقاً ولكنه قال:

- ليرجّل الجميع باستثناء شخص واحد فقط:

- من هو؟

- أنت.

وترجّل الجميع ليمشوا أمام الخليفة الذي راح ينظر الى شخصيات

الدولة تمشي قدّامه وشعر بالزهو.. إنه السيد الوحيد في هذه الأرض.. منظر

الجنود المدججين بالسلاح المصطفين على جانبي الشارع الطويل الذي يمتد الى اربعة أميال عربية_ يسكر الطاغية الذي يعاني عشرات العقد النفسية..

كان الامام يعاني من وعكة صحية ولم يكن بمقدوره أن يقطع آلاف الخطى مشياً على الاقدام في مثل ذلك الزحام الشديد.

شعر الهاشميون من بني العباس بأن المتوكل قد وجه اليهم طعنة نجلاء.. أنهم يعاملون كالعبيد.. وتجراً بعضهم على ذكر الطاغية وتصرفاته الحمقاء.. كان الامام يتصبّب عرقاً وقد اجهدته المشي بسبب شدة الزحام والغبار، فاتكأ على أحد مواليه الذين كانوا يرافقونه.

وضحك أحدهم بمرارة قائلاً:

- لقد تذكّرت شيئاً رأيته في عيد الاضحى.. رأيت قطعاً من الأغنام

يساق للأضاحي.

ردّ آخر:

- الحمد لله اننا في عيد الفطر وليس في عيد الاضحى!!

وسيطر على المشهد هتافات الغوغاء بحياة خليفة المسلمين السيد المطاع والملك الكبير.

358 الجماهير مفتونة بمنظر الطاغية يشق طريقه فوق فرس وسط آلاف

الجنود الذين اصطفوا على امتداد أربعة أميال.. فيما كان كبار القادة وشخصيات البلاط تمشي أمامه.

ربّما غمغم الامام وهو يتأمل منظر هؤلاء المفتونين بالمظاهر البرّاقه والمجد الزائف قائلاً:

- «الغوغاء قتلة الانبياء».

أن هؤلاء الناس الذين يزدادون خنوعاً وذللاً هم الذين يصنعون بذلهم وخنوعهم الطاغية الذي ينظر اليهم بازدراء، ويستخدمهم دائماً للقضاء على الأحرار.

كان الامام يقطع الطريق مجهداً حزيناً للمصير البائس الذي وصلت اليه الأمة.. تتمم بأسى:

- لقد قطع رحمي قطع الله أجله..-

أن هذا الطاغية هو في الحقيقة ابن عمه.. ولكنه انسان دموي استحال الى ذئب بشري مجنون... يتصور أن الجميع يتآمر عليه ولذا يجب قمعهم والقضاء عليهم.. يجب أن يحولهم الى عيد أو يدسهم في التراب!

ان هذا الطاغية يرعبه وجود إنسان حرّ حتى لو يقيم بأية حركة مسلحة ضده.. إن وجود إنسان شريف هو في نظر الطاغية عدوان على سيادته.

بلغ بالامام الاعياء... وكان ينقل خطاه على هون.. وكان الهاشميون الذين يرافقونه في المشي قد خالجهم شعور بالمرارة من ابن عمهم الذي جعل مقاليد الحكم بأيدي الغرباء بل وبأيدي النساء والمختئين الساقطين!!

قال رجل هاشمي تعدى الخمسين من السنين مبهور الأنفاس مخاطباً السيد العلوي المبارك:

- يا سيدنا ما في هذا العالم أحد يستجاب دعاؤه فينا فيكفينا الله!؟

قال أبو الحسن وقد أضاء وجوده تاريخ النبوات:

- في هذا العالم من قلامه ظفره أكرم على الله من ناقة ثمود... لمّا عقرت
وضجّ الفصيل فقال الله: «تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير
مكذوب»..

وصلت الحشود المتعبة سامراء في حالة يرثى لها وتبدّدت مع الغبار
فرحة العيد.. وظهرت الشمس باهتة وراء السحب الرمادية التي ازدحمت
في الأفق الشرقي.

كانت أبواب المسجد الجامع مشرعة وأذان صلاة العيد ينساب من فوق
المئذنة الملوّية.. ودلف الامام مع الجموع المتدفقة عبر الباب الى المسجد
ووقعت عينا زرافة الحاجب على الامام منهكاً يتصبب عرقاً بالرغم من
برودة كانون فاتجه اليه وقاده الى دهليز هناك، وأخذ منديلاً وراح يجفف
عرق الامام.. وحاول أن يخفف عنه حالة الحزن التي تموج في الوجه
الأسمر فقال:

- ابن عمّك لم يقصدك بهذا دون غيرك.

نظر اليه الامام نظرة أودعها بصيرته النافذة ومعرفته بحقيقة ما يجري
حتى داخل أسوار القصر الكبير.

- إليك عني!!

360 وتلا بخشوع آية إنذار قبل هبوب العاصفة: (تمتعوا في داركم ثلاثة

أيام ذلك وعد غير مكذوب).

ونفض الامام مغادراً المكان.. فيما ظلّ الحاجب ساهماً للحظات يحاول
فك رموز الكلمات الغامضة..

وقبيل الظهر عندما عاد زرافة الى منزله؛ دار حوار بينه وبين معلّم لديه
ميول شيعية وكان زرافة يحب في بعض المناسبات مزامحته قال زرافة:

- أتدري من رأيت في المسجد صباحاً؟

-!!؟

- رأيت إمامك.. لقد اجهدته المشي فساعدته وحاولت أن أحفّف عنه ما
حصل.. فقال لي ما لم أفهم منه شيئاً!

- ما الذي قال؟!

- تلا هذه الآية: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير
مكذوب).

مثلما يشتعل البرق في السماء المثقلة بالغيوم.. توهج مشهد من مشاهد
التاريخ المندثر.. انه «صالح النبي» يخاطب قبيلة ثمود الوثنية.. يوم هاجم
الشقي «قيدار» ناقة الله فذبحها وراح يلهث وراء فصيلها المدعور فوق
صخور الجبل.. فلم يرحم نظراته البريئة فذبحه من الوريد الى الوريد..
- آه ان الامام ينذر بوقوع كارثة ما.. ربما يموت المتوكل أو يقتل..
صرخ زرافة مذعوراً:

- ماذا؟!

361

- أنني أنصحك بالاحتراز.. حاول أن تخزن أشياءك... الأيام القادمة
حبلى بحادث رهيب..

ان مجرد الحديث عن شؤون خطيرة في زمن يخنق الأنفاس يثير الهلع،
ولذا صرخ زرافة بالرغم من مركزه في البلاط:

- اخرج من البيت حالاً.. لا أريد رؤية وجهك مرّة أخرى.

فوجيء المعلم بموقف زرافة، وأسف لما قال، ولكنه غادر البيت بهدوء
وحزن، وكان هاجس الذي سيحدث في الايام القادمة ما يزال يصنع التوتر
في أعماقه.

(٥٧)

كان «زرافة الحاجب» في طريقه الى القصر الجعفري مساء يوم العيد..
ما يزال ينتابه هاجس الحادثة الرهيبة التي تحدّث عنها
المعلم..

في البوابة الجنوبية ادّى الحرس التحيّة للقائد الذي ما يزال يسيطر عليه
الوجوم..

وتبادل كلمات مقتضبة مع نائبه زرقان حول سير العمل قال زرقان:
- كل شيء على ما يرام.. ولكن الخليفة لن يعقد مجلسه هذا المساء.
- لماذا.. هل هناك سبب؟!

- لا شيء.. ربّما ان حالته الصحية لا تساعد!

- ربّما!

ومضى زرافة مع نائبه في الرواق الذي يؤدي الى البلاط.

قال زرقان:

- هذا يوم عيد.. ولكنني لا أشعر بالفرحة لماذا؟

- ربّما بسبب برودة الجوّ.. الخريف فصل حزين.. نحن في منتصف

كانون.

قال زرقان:

- أراك واجماً.. هذا اليوم.. أنت معروف بمزاحك.

- لا شيء.. اشعر بالتعب قليلاً.. دعني استريح..

وتركه زرقان وحيداً ومضى.

استعاد زرافة كلمات المعلم وهو ينصحه بالاحتراز... قال في نفسه: «ما يضرني أن أحزم أمري.. الحذر في هذه الايام مطلوب على كل حال.. ربّما يحدث شيء من يدري_؟»

كان أول شيء فعله زرافة أن أخذ أمواله ليودعها عند بعض معارفه، ويتصرّف بحكمة وحذر.

الله وحده الذي يراقب الأعماق.. ولا أحد يدري ماالذي جرى ويجري وراء الأبواب المغلقة.. اليوم هو ٣ شوال، وقد أصبح المتوكل نشطاً على غير عادته تملأ البهجة نفسه حتى فوجيء طبيبه الطيفوري بحالته الجديدة.. لقد فارقتة حالة الكآبة التي لازمتة خلال الأسابيع الأخيرة. قال المتوكل متسائلاً:
- كأني أجد مسّ الدم..

قال الطيفوري:

- يا أمير المؤمنين عزم الله لك على الخير.. افعل!
وأيد ابن الأبرش طبيب المتوكل الآخر ذلك.
وأجريت على الفور عملية فصاد للدم..

وعلى مائدة الطعام عندما انتصف النهار اشتهى المتوكل خروفاً فجاءوا

364 اليه بخروف سمين محشّى.. وراح يتخطف اللحم المشويّ بيده متلذذاً.. لم

يكن هناك على المائدة الحافلة بكل ما لذ وطاب سوى رئيس الوزراء الفتح بن خاقان.. وعلى مقربة منها مائدة أخرى لبعض المغنين والمهرّجين، وفيهم المغني ابن الحفصي وعثعث وزنام.. ثم التحق بهم بنان الذي جاء برفقة

الأمير المنتصر الذي ظلّ واقفاً ينظر الى والده.. يراقبه بصمت وغضب مكبوت.. يستطيع أن يراه المرء متوهجاً في عينيه.

التفت المتوكل الى ابن الحفصي ودعاه مع عثعث الى مائدته قائلاً:
- كل أنت وعتعث هنا..

وكان المتوكل الذي شبع تماماً مبتهجاً جداً.. ولا أحد يعرف مصدر سعادته.. وعندما رأى مطربه لا يأكل قال:

- لماذا توقفت عن الأكل!؟

- لقد نفذ ما بيننا من الطعام

ورمى المتوكل اليهما لحمًا ينضح سمنًا، وقام المطرب بحركة مضحكة وهو يتخطف اللحم، فضحك الطاغية سعيداً.

- كلوا بحياتي!

وحضرت بعد انتهاء تناول الطعام أربع فتيات جميلات يحملن على طبق بلوري هدية زوجة الخليفة.. كانت الهدية عبارة عن مطرف خز اخضر يبهر العقولَ جماله!!

شق المتوكل المطرف نصفين ونظر الى ابنه المنتصر واقفاً فصاح:

- ردّوه.. لا أظنّ إنني سألبسه.. ولا أريد أن يلبسه أحد بعدي..

وتقدّم من ابنه الذي ظلّ واقفاً:

- لا بد وأنك تنتظر أن تصيح خليفة!؟

...

وتفجّر حقد رهيب في أعماق الطاغية واجتمع في يده فهوى بها على

وجه ابنه الذي تلقى الضربة بصبر عجيب!!

صرخ المتوكل بعصبية:

- لقد سميتك المنتصر.. فسماك الناس لحمقك المنتظر.. ثم صرت الآن المستعجل..

قال المنتصر وهو يعض على نواجذه:

- يا أمير المؤمنين! لو أمرت بضرب عنقي كان أسهل علي مما تفعله بي!

- من قال أنني لا أقتلك.. سوف اقتلك..

ونهض الفتح لإقناع الخليفة بضبط نفسه قبل أن تنكشف الخطة الجهنمية التي سوف تنفذ غداً أو بعد غد..

وقبل رئيس الوزراء يد الطاغية إرضاءً لعقده ولكن المتوكل صاح:

- اشهدوا جميعاً اني قد خلعت المستعجل.

هتف المنتصر:

- يا أمير المؤمنين!!

وصعد المتوكل الموقف المتوتر عندما طلب من ابن خاقان قائلاً:

- برئت من الله ومن قرابتي من رسول الله إن لم تظمه!

تقدم الفتح من المنتصر وقد برقت عيناه بالندالة وصفعه بوحشية على وجهه ثم على قفاه وندت صيحات بعض الجواري اللاتي كن يراقبن ما

366 حصل من وراء الستائر الشفافة.

كان ما حدث في الواقع قد دمّر الى الأبد هواجس التردد التي كانت

تنتاب المنتصر في الإقدام على قتل أبيه.. لقد استحال هذا الأب الى ذئب لا يتورّع حتى عن أكل بني عمّه وأولادو.

لم يسمح للمنتصر من مغادرة القصر حتى بعد أن بدأت الحفلة المسائية، وبالرغم مما حدث فإن المتوكل بدا مسروراً يستجيب لأبسط حركات اللهو التي يقوم بها مهرّجيه، وكان يتعمد الاستغراق في الطرب.

واستدعي جميع الندماء الذين كانوا في غرفهم، وأفتقد أبو نوح_ ولم يعثر له على أثر.. وكان هذا الغلام قد عثر على رسالة بدون توقيع كتبها امرأة تركية تحذّر من محاولة لاغتيال الخليفة.. فقام بتسليمها الى عبيدالله بن يحيى الذي اجتمع فوراً مع عمه رئيس الوزراء؛ ولكنهما اتفقا على اخفاء الأمر عن المتوكل لما رأوه من سروره وانشراحه.. ثم من يجسر على قتل المتوكل واسمه وحده يبعث الرعب؟!!!

وكيف يمكن وجود أسرار خطيرة في وجود شبكة معقدة من الجواسيس... جواسيس لا يعرفهم أحد... باستطاعتهم التسلل حتى الى غرف النوم؟!!!

ولذا اكتفى رئيس الوزراء بابتسامة ساخرة هازئاً من قلق ابن أخيه وزير البلاط والعقل المدبّر لما سيحدث يوم الخميس القادم!

(٥٨)

استحال البلاط في ساعات المساء الأولى الى ماخورة_ وكانت رائحة
الخمور المعتقدّة تزكم الأنوف.

واستدعي المنتصر لحضور الاحتفال رغماً عنه، ووضعت أمامه مائدة
الخمير ولكنه امتنع عن الشرب.. فأشار الخليفة الى بعض جلاوزته بأن يسقوه
الخمير بالقوّة وفُرّغت كؤوس عديدة في جوفه.. وكان والده الثمل يشرب
ويقهقه بهستيرية مخيفة إنّ أية إشارة تصدر الآن تكفي لتمزيق أي شخص
إرباً إرباً..

حان موعد العشاء ووضعت المائدة بين يدي المتوكل.. الذي راح يلقم
طعامه وهو سكران..

ونهض المنتصر ليغادر المكان ولكنه ألقى نظرة ذات معنى على «بغا
الشرابي» الذي كان يقف قريباً من الستائر.. وكانت النظرة التي غفل عنها
الجميع باستثناء «بغا الصغير» تكاد تصرخ: «الليلة».. الليلة يسقط الوثن
البشري.

خارج البلاط التقى المنتصر الحاجب زرافة فأمسك بيده قائلاً:

- تعال معي!

قال زرافة متردداً:

- يا سيدي ان أمير المؤمنين لم يقم بعد!!

قال المنتصر:

- لقد عصفت برأسه كؤوس الخمر.. وسيخرج بغا والندماء..

وسكت لحظات وهما يمشيان في رواق طويل في القصر الكبير ثم قال
بود:

- أحبيت أن تجعل أمر ولدك الي.. إن القائد «أوتامش» سألني أن أزوج
ابنه من ابنتك وابنك من ابنته.. ما رأيك؟
أجاب زرافة متسلماً:

- نحن عبيدك يا سيدي.. تأمرنا فنطيع!!

وراحا يمشيان إلى أن انعطفا في إحدى الغرف..

كان المتوكل ثملاً تماماً عندما جاء زرافة وأشار من بعيد الى «بنان»
والى «ابن الحفصي» قال لبنان أن المنتصر يدعوك وقال لابن الحفصي:
- ان أمير المؤمنين سكران.. وقد رأيت القائد «تمرت» فسألني عنك
وطلب مني أن أدعوك الى حجرته.. سوف أمضي الى المنتصر أولاً ثم
التحق بك في حجرة «تمرت» فيما بعد.

وفي حجرة المنتصر وبحضور «أوتامش» وزرافة وبنان قال المنتصر:
- قد أملك ابن زرافة من ابنة أوتامش، وابن أوتامش من ابنة زرافة قال
بنان:

- والنثار يا سيدي.. أين النثار فهو يحسن الإملاك؟!

قال المنتصر:

- غداً إن شاء الله.. نحن في الهزيع الأخير من الليل!!

وأمر «أوتامش» بعض الخدم باحضار مائدة الطعام. وفي الأثناء وفيما
كان زرافة وأوتامش وبنان يتناولون الطعام، كانت أبواب القصر تغلق

جميعاً.. وحركة غير طبيعية تسود الاجواء.. كانت البوابة الكبرى المطلّة على نهر دجلة قد ظلّت مواربة فقط دون اقفال، وثلاثة أبواب داخلية ظلت مفتوحة..

وفي جناح الظلام تسلل جنود أتراك ملثمون يتقدمهم الضابط التركي «باغر» و يليه «بغلون» وثلاثة جنود آخرون..

وفي البلاط كان المتوكل قد ثمل تماماً.. نهض بغا الشرايبي، وأمر الندماء بالانصراف الى غرفهم..

قال الفتح متوجساً:

- ليس هذا وقت انصرافهم.. ان أمير المؤمنين ما يزال جالساً!!

قال بغا بلهجة واثقة:

- ان أمير المؤمنين أمرني إذا جاوز في الشرب سبعة أرطال أن لا أترك

أحداً في المجلس.. وقد شرب أربعة عشر رطلاً!!

أشار الفتح الى الندماء بالجلوس، ولكن بغا قال بفضافة:

- إن حرم أمير المؤمنين خلف الستارة، وقد سكر... فقوموا وأخرجوا!!

ونهض الجميع لمغادرة المكان.. ولم يبق سوى الفتح وعثعث وأربعة

من الخدم..

370 شفيح، فرج الصغير، مؤنس، ومارد، وجاء الطباخ بمائدة الطعام.. وراح

المتوكل يأكل وهو سكران ويقول لمارد:

- كل معي!

وراح يشرب..

وكان أحد أبناء المتوكل_ قد نهض الى المرحاض، فصادف المسلحين قادمين وقد شهروا سيوفهم في الظلام فصاح:

- ما هذا يا سفلة.

قال الطاغية وقد سمع الضجة:

- يا بغا! ما هذا؟!

قال بغا مطمئناً آياه:

- هؤلاء رجال النوبة للحراسة الليلية.

سمع باغر الحوار.. وانتابه شعور بأن الخطة قد فشلت ولذا لم يدخل

البلاط واتجه مع مجموعته للقاء القائد وصيف قال باغر:

- يجب أن تكون معنا.. ربما نفشل في مهمتنا.

قال بحزم:

- سأرسل معكم أولادي..

- وفيهم صالح؟!

- نعم.. صالح وأخوته.

وفي الأثناء حضر «بغا» وعيناه تقدحان شرراً:

- يا سفلة أنتم مقتولون لا محال فموتوا كراماً.

وقال لوصيف:

- أين «واجن» ومجموعته؟!

- سيحضرون حالاً.. ستدخلون في الوقت المناسب.. لا تنسوا أن الوزير

عبيدالله ما يزال في حجرته.. فحراسة الأبواب ومراقبة الوزير جزء من

الخطة.

ارتدت المجموعة بقيادة باغر والتي أصبح عدد أفرادها ثمانية مسلحين الى مجلس الخليفة..

كانت الضربة الأولى لبلغون حيث أهوى على كتف الخليفة فقطع إذنه واستل باغر سيفه - فسد له ضربة قاضية.. صاح الفتح:
- أيها الكلاب.

صرخ بغا وهو يبعجه بالسيف:

- ايها الجلفي.. اسكت:

والقى الفتح نفسه فوق الطاغية وراحت السيوف تقطعهما إربا إربا.. واستحال الطاغية مع صاحبه جثتين هامدتين وسط بركة من الدماء.. وكان نصيب عثث ضربة في رأسه.. وهرب الخدم أما الخادم الصغير فقد اختبأ تحت الستائر.

كما فرّ ابن المتوكل تاركاً أباه تتخطفه السيوف كنسور مجنونة..

استحال القصر الى جحيم تستعر بالانتقام والقسوة وشهوة البطش من أجل السيطرة.

وانبعثت ضجة وصراخ، فخرج المنتصر وزرافة وتمرت لاستطلاع ما يجري ومن اقصى الرواق الطويل ظهر بغا الشرايبي هتف المنتصر:

- ما هذه الضجة؟

372

أجاب «الشرايبي» وهو يبشر بنجاح المؤامرة:

- خير.. يا أمير المؤمنين.

- ويلك ما تقول؟!

قال «بغا» وهو يتظاهر بالحزن:

- أعظم الله أجرك في سيدنا أمير المؤمنين.. كان عبدالله فأجابه..
لم يعد هناك من مبرر لتستّر.. اصدر المنتصر أوامر بغلق أبواب القصر
وغلق أبواب المجلس..

وشهرت السيوف بوجه زرافة:

- بايع أمير المؤمنين المنتصر!

فانحنى أجلاً للخليفة الجديد:

- السلام عليك يا أمير المؤمنين!

واستعاد زرافة النبوءة العجيبة التي كشف عنها المعلم من كلمات ابن
الرضا صباح العيد!!

السماء ما تزال تنث المطر بصمت.. واشتعلت في الأفق البعيد بروق..
وكانت ترجيعة الرعود تصل مكبوتة.

أحد الخدم الذين فرّوا من المجلس يتجه الى حجرة عبيدالله الذي بدأ
يتثاءب بعد ساعات طويلة قضاها في قراءة رسائل وتقارير الجواسيس!

هتف الخادم مبهوراً:

- يا سيدي ما يجلسك؟!

ذعر عبيدالله:

- ماذا حصل؟

- السيوف تملأ القصر.

طلب الوزير من مساعده أن يذهب على عجل لاستطلاع الحادث...
وسرعان ما عاد ليقول مرعوباً:

- قتل المتوكل مع الفتح!!

ونَهض على عجل ومعه أحد مساعديه، فانطلق الثلاثة حذرين للخروج
من القصر..

اتجهوا صوب البوابة الجنوبية ولكنها كانت مقفلة.. فاتجهوا نحو بوابة
دجلة واستطاعوا كسر ثلاثة أقفال وانحدروا الى المرسى حيث يوجد زورق
فاستقلّوه تحت المطر باتجاه قصر «بلكوارا» شمال سامراء..

(٥٩)

كان المنتصر ما يزال يرسل صيحاته كربان سفينة تشق عباب الأمواج العاتية بعد نجاح أخطر محاولة انقلابية في ذلك العصر... فأمامه مشوار طويل وعسير للسيطرة على الموقف..

وكانت الخطوات القادمة لا تقل خطورة عن تنفيذ عملية الاغتيال.. لقد أفلت وزير البلاط وفي هذا يكمن خطر كبير.. ولذا كانت فكرة المنتصر توجيه دعوات سرّية وفورية على لسان المتوكل الى بعض الشخصيات والقادة..

كُلف «وصيف» بالقاء القبض على كل من المعتز والمؤيد قبل أن يجتمع بأحدهما الوزير أو يطلعهما أحد على الحادث.. وقد ساعد على ذلك وجود خطة سرّية تقضي باغتيال المنتصر والقضاء على بعض مسانديه من القادة الأتراك.. ولذا كان كثير من كبار موظفي القصر على علم تام بعملية إغتيال المنتصر ومن بينهم سعيد الصغير الذي كُلف بتصفية الامام لدى أول اشارة..

375

كان سعيد الصغير في منزله يفكر بمهمته العسيرة.. بعد أن كُلف باعتقال الامام الهادي.. واغتياله ربما في نفس الليلة التي يتقرر فيها اغتيال المنتصر.. خطرت في باله فكرة أن يذهب الى القبو.. لقد سمع الكثير عن هذا السيد العلوي!

عندما ولج السرداب.. كان الامام يصلي « وراح ينظر الى الرجل الذي يرتدي حلة بيضاء هي نفسها التي رآه فيها يوم العيد.. تفوح منه رائحة عطر ربيعي.

وراح سعيد يصغي الى كلمات الانسان المقهور تجسد محنته عذابات امة ترزح تحت نير الطغيان:

«اللهم: اني وهذا الطاغية عبدان من عبيدك، نواصينا بيدك..

تعلم مستقرنا ومستودعنا، وتعلم منقلبنا ومثوانا.. سرنا وعلانيتنا، وتطلع على نياتنا، وتحيط بضمائرنا..

علمك بما نبيده كعلمك بما نخفيه، ومعرفتك بما نبطنه كمعرفتكم بما نظهره، ولا ينطوى عنك شيء من أمورنا، ولا يستتر دونك حال من أحوالنا، ولا لنا منك معقل يحصننا، ولا حرز يحرزنا، ولا هارب يفوتك منا، ولا يمتنع الظالم منك بسطانه، ولا يجاهدك عنه جنوده، ولا يغالبك مغالب بمنعته، ولا يعازك متعزز بكثرة..

أنت مدركه أينما سلك، وقادر عليه، أين لجأ..

فعاذ المظلوم ببابك، وتوكل المقهور منا عليك، ورجوعه إليك، ويستغيث بك إذا خذله المغيث، ويستصرخك إذا قعد عنه النصير، ويلوذ بك

376 إذا أئته الأفنية، ويطرق بابك إذا غلقت دونه الأبواب يشكوه إليك، وتعرف

ما يصلحه قبل أن يدعوك له، فلك الحمد سميعاً بصيراً لطيفاً قديراً...».

«اللهم: انه قد كان في سابق علمك ومحكم قضائك، وجاري قدرك

وماضي حكمك ونافذ مشيئتك في خلقك أجمعين سعيدهم وشقيهم وبرهم

وفاجرهم إن جعلت لفلان عليّ قدرة فظلمني بها وبغى عليّ لمكانها، وتعزز

علىَّ بسلطانه الذي خولته إياه، وتجبرَّ علىَّ بعلوِّ حاله، الذي جعلته له، وغرَّه
املاؤك له، وأطغاه حلمك عنه فقصدني بمكروه عجزت عن الصبر عليه،
وتعمدني بشر ضعفت عن احتماله ولم أقدر على الانتصار منه لضعفي
والإنتصاف منه لذلي، فوكلته إليك، وتوكلت في أمره عليك، وتوعدته
بعقوبتك، وحذرت سوطتك، وخوفته نقمتك، فظنَّ أن حلمك عنه من ضعف
وحسب ان امهالك له من عجز ولم تنهه واحدة عن أخرى، ولا انزجر عن
ثانية بأولى، ولكنّه تمادى في غيّه وتتابع في ظلمه ولجَّ في عدوانه،
واستشرى في طغيانه جرأة عليك يا سيدي، وتعرضاً لسخطك الذي لا تردّه
عن الظالمين، وقلة اكرثات ببأسك الذي لا تحبسه عن الباغين..

فها أنا يا سيدي مستضعف في يديه مستضام تحت سلطانه، مستذلٌّ
بعنانه، مغلوبٌ.. مبغىٌّ عليّ، مغضوبٌ وجل، خائف، مروّع، مقهور...

قد قلَّ صبري، وضاقَّ حيلتي وانغلقت عليَّ المذاهب إلاَّ إليك،
وانسدَّت عليَّ الجهات إلاَّ جهتك، والتسبت عليَّ المذاهب إلاَّ إليك،
وانسدَّت عليَّ الجهات إلاَّ جهتك، والتبست عليَّ أموري في دفع مكروهه
عني، واثبت عليَّ الآراء في إزالة ظلمه، وخذلني من استنصرته من عبادك،
وأسلمني من تعلّقت به من خلقك.. واستشرت نصيحتي فأشارت اليَّ بالرغبة
إليك، واسترشدت دليلي فلم يدلني إلاَّ عليك..

فرجعت إليك يامولاي صاغراً راغماً مسكيناً عالماً أنّه لا فرج لي إلاَّ
عندك، ولا خلاص لي إلاَّ بك..

أنجز وعدك في نصرتي، وإجابة دعائي فإنك قلت: وقولك الحقّ: الذي
لا يردّ ولا يبدل (ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمُّ بُغي عليه لينصرته

الله) _ وقلت: جلّ جلالك وتقدّست أسماؤك (إِدْعُونِي أُسْتَجِبْ لَكُمْ)
_وأنا فاعل ما أمرتني به لا مناً عليك، وكيف أمنّ به وأنت عليه دللتني،
فصلّ على محمد وآل محمد.. واستجب لي كما وعدتني يا من لا يخلف
الميعاد.

وإني لأعلم يا سيّدي إنّ لك يوماً تنتقم فيه من الظالم للمظلوم، وأتيقن
أن لك وقتاً تأخذ فيه من الغاصب للمغصوب لأنك لا يسبقك معاند، ولا
يخرج عن قبضتك منابذ ولا تخاف فوت فائت، ولكن جزعي وهلعي لا
يبلغان بي الصبر على أُناتك، وانتظار حلمك..

فقدرتك علىّ يا سيّدي ومولاي فوق كل قدرة، وسلطانك غالب على
كلّ سلطان، ومعادُ كلّ أحد إليك وإنّ أمهلته، ورجوع كل ظالم إليك وان
أنظرته، وقد ضرّتي حلمك من فلان وطول أُناتك له، وإمهالك إياه، وكاد
القنوط يستولي عليّ لولا الثقة بك، واليقين بوعدك فان كان في قضائك
النافذ، وقدرتك الماضية ان ينيب أو يتوب عن ظلمي أو يكفّ مكروهه
عني، وينتقل عن عظيم ما ركب مني... اللهمّ فصلّ على محمد وآل محمد
وأوقع ذلك في قلبه الساعة، الساعة قبل إزالة نعمتك التي أنعمت بها عليّ
وتكديره معروفك الذي صنّعه عندي..

378 وإن كان في علمك به غير ذلك من مقامه على ظلمي فأسألك ياناصر
المظلوم المبغي عليه إجابة دعوتي.. فصلّ على محمد وآل محمد، وخذه
من مأمّنه أخذ عزيز مقتدر وافجأه في غفلة مفاجأة مليك منتصر، واسلبه
نعمته وسلطانه، وافضض عنه جموعه وأعوّانه..

ومزق ملكه كل ممزق، وفرق أنصاره كل مفرق، وأعره من نعمتك التي لا يقابلها بالشكر، وانزع عنه سربال عزك الذي لم يجزه بالاحسان..

واقصمه يا قاصم الجبابرة، وأهلكه يا مهلك القرون الخالية، وأبره يا مبيرة الأمم الظالمة، واخذله يا خاذل الفئات الباغية، وأبر عمره، ابتر ملكه، وعف أثره، واقطع خبره، واطف ناره، واظلم نهاره، وكور شمسه وازهق نفسه، واشم شدته وجب سنامه، وارغم انفه، وعجل حتفه، ولا تدع له جنبه إلا هتكته، ولا دعامة إلا فصمتها، ولا كلمة مجتمعة إلا فرقته، ولا قائمة علو إلا وضعتها، ولا ركناً إلا وهنته ولا سيباً إلا قطعته، وأرنا أنصاره وجنده وأحباءه وأرحامه أبايد بعد الإلفة، وشتى بعد اجتماع الكلمة، ومقنعي الرؤوس بعد الظهور على الأمة..

وأشف بزوال أمره القلوب المنقلبة الوجلة، والأفئدة اللهفة، والأمة المتحيرة، والبرية الضائعة، وأزل بيواره الحدود المعطلة، والأحكام المهملة، والسنن الدائرة، والمعالم المغبرة، والآيات المحرقة، والمدارس المهجورة، والمحاريب المجفوة، والمساجد المهدومة، وأرح به الأقدام المغيبة، واشبع به الخماص الساغبة، واردد به اللهوات اللاعبة، والأكباد الظامئة، واطرقه بليلة لا اخت لها، وساعة لا شفاء منها، ونكبة لا انتعاش معها، وبعثرة لا إقالة منها، وأبح حريمه، ونغص نعيمه..

﴿٢٨٢﴾

وأره بطشتك الكبرى، ونقمتك المثلى، وقدرتك التي هي فوق كل قدرة، وسلطانك الذي هو أعز من سلطانه، واغلبه لي بقوتك القوية، ومحالك الشديد، وامنعي بمنعتك التي كل خلق فيها ذليل، وابتله بفقر لا

تجبره، وبسوء لا تستره، وكله إلى نفسه فيما يريد إنك فعّال لما تريد، وابرأه من حولك وقوتك، واحوجه إلى حوله وقوته، وأدل مكره بمكرك، وأدفع مشيئته بمشيئتك، وأسقم جسده، وأيتم ولده، وانقص أجله، وخيب أمله، وأزل دولته، وأطل عولته، واجعل شغله في بدنه، ولا تفكّه من حزنه، وصير كيده في ضلال وأمره إلى زوال، ونعمته إلى انتقال، وجدّه في سفال، وسلطانه في اضمحلال وعاقبته إلى شرّ مآل، وأمته بغيظه إذا أمته، وأبقه لحزنه ان أبقيته، وقني شرّه وهمزه ولمزه وسطوته وعداوته، والمحه لمححة تدمر بها عليه فإنك أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً، والحمد لله ربّ العالمين» _ .
واستجابت السماء.. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.. وبدأت الاقدار تنسج خيوط حادثة مدويّة سوف تحدث في الساعات القادمة... انها مشيئة الله.

سوف يسقط الوثن البشري ويتهشم الى الأبد...

(٦٠)

السرداب الموحش الذي لم يبدّد ظلمته القنديل، يستحيل الى عش
مفعم بالسكينة..

ان لروح الانسان الطاهر قدرة الاشعاع على ما حولها من الاشياء
والنفوس.. هكذا وجد سعيد نفسه في حضرة الرجل المبارك.

التفت الامام اليه بعد أن شعر بوجوده قال له دون مقدّمة:

- لا يكفّ عني جعفر حتى يُقَطَّع إرباً إرباً..

فوجيء سعيد بكلمات الامام.. لكأنها تأتيه من عالم الغيب.. كسهام
مخيفة..

أنه يذكر الخليفة باسمه.. ويتنبأ له بمصير رهيب.. تسمّر في مكانه..
ولكن الامام أشار اليه بكفّ سمراء:

- اذهب وأعزب.

وفيما هو يخرج مرعوباً من القبو تناهت اليه طرقات متوالية حطّمت
سكينة الليل وإذا فارس ملثم يقوله له:

- احضر فقد جاءت رسل أمير المؤمنين إلى الأمير المنتصر وهو على

الركوب.

وغاب الفارس في الظلام.

لم يبق مجال للشكّ في نفس سعيد وأدرك إن ساعة اغتيال المنتصر قد
حانت..

قفز سعيد على صهوة جواده بعد أن تجهز بالسلاح، وانطلق الى قصر «الحير»، القريب من «الجعفري» وكان المتوكل قد أجبر ابنه على السكن في هذا القصر تمهيداً لأغتياله!

كان «واجن» القائد التركي قد غادر «الحير» الذي استحال في وسط الظلام والمطر الى خلية ملتهبة بالعمليات... ولمحه سعيد بعد أن رأى حركة غير طبيعية فلحقه وهو في طريقه الى القصر الجعفري.. كان قلبه يدق رعباً كطبل افريقي مجنون! قال واجن مُطمئناً:

- لا تخف يا سعيد! ان أمير المؤمنين قد شرق بقدر شربه بعد انصرفنا فمات.. رحمه الله..

كان سعيد في قلبه يميل الى المنتصر ولذا لم يكن راضياً عن فكرة اغتياله.. ولكنه كان لا يجسر على الافصاح عن ميوله في زمن يُعاقب بالموت كل من لا يصفق للطاغية في كل ما يقول ويفعل!

عاد سعيد الى قصر «الحير» فوجد كثيراً من القادة العسكريين وبعض الشخصيات وفي طليعتهم احمد بن الخصيب وكاتبه سعيد بن حميد وكان منهمكاً في إعداد «ميثاق البيعة» للمنتصر.

وبدا واضحاً أن أحمد بن الخصيب كان يمارس مهامه كرئيس للوزراء

382 فما أن وصل سعيد الكبير الذي بايع المنتصر على الفور حتى أرسله ابن

الخصيب الى المؤيد لاحضاره.. والتفت الى سعيد الصغير قائلاً:

- اذهب انت الى المعتز ولا ترجع إلا به..

قال سعيد وهو يحاول التخلص من هذه المهمة العسيرة:

- ان الوضع هنا جدّ خطير.. وأمير المؤمنين يحتاج الى حراسة.

قال الخصيب بالحاح ممجوج:

- ها هنا من الرجال ما يكفي!

قال سعيد بعناد!!

- لن أذهب حتى يجتمع من يكفي.

تدخل المنتصر لحسم الاختلاف:

- اتركه يا أحمد انه يعرف متى يذهب!

وانطلق سعيد يسابق الريح الى قصر بلكوار في طريق ممهدة مرشوشة

بالمطر ووجد بعض الجنود يتحدثون عن شائعات حول وفاة الخليفة.. قال

أحد الحراس بغلظة وهو يخاطب سعيداً.

- من أنت؟!

قال سعيد:

- رسول الفتح بن خاقان.. ان معي رسالة هامة..

قال الحارس:

- يمكنك المرور.. ولكن لا أظن أن احداً سيفتح لك الباب في هذا

الوقت!

راح سعيد يطرق الباب بعنف ولكن دون جدوى كانت لحظات

مصيرية فقد يصل عبيدالله بن يحيى في أية لحظة وينكشف كل شيء... 383

وعندها سوف يسحق كذباة.

وجاء صوت:

- من أنت؟

- سعيد الصغير رسول أمير المؤمنين المنتصر!

ومرّت اللحظات ثقيلة مرعبة!! انه الآن على حافة قبر مفتوح لا يدري
من الذي سيدخرجه فيه!!

فجأة فُتحت الباب وظهر «بيدون» الخادم:

- ادخل!

وأغلق الباب باحكام.. وشعر سعيد بدنو النهاية ولكنه قرر ألا يخسر نفسه

على الأقل؟ هتف في أعماقه: «سيطير رأسي»!

تساءل «بيدون» وهو يقود سعيداً الى بهو الاستقبال:

- ما الخير؟

- شرق أمير المؤمنين وهو على مجلس الشراب بكأس شربه ومات من

ساعته.. اجتمع القادة وبايعوا المنتصر بالله.. وقد أرسلني الى الامير أبي

عبدالله المعتز ليحضر البيعة..

ترك الخادم سعيد في البهو وصعد الى مخدع الأمير وما لبث أن عاد

ليقول له:

- ادخل؟

وفي حالة منكسرة تظاهر بها سعيد دخل على الأمير المعتز الذي فاجأه

بالسؤال قلقاً:

- ويملك يا سعيد ما الخير؟!

- رحمه الله مات.. مات بكأس شرق بها..

وتباكي سعيد:

- أعظم الله لك الأجر يا سيدي.. انهض يا سيدي لتكون في أوائل من

بايع لتعطف قلب أخيك عليك.

- الآن؟!.. كلاً لن أذهب الآن.. في الصباح..

تدخل بيدون قائلاً:

- ان الأمر لا يستدعي النوم.. الذهاب الآن افضل.. وإلا لم يرسل وراءك

أخوك.

قال المعتر بحيرة:

- أين عبيدالله بن يحيى؟!

وكاد قلب سعيد يقفز من بين ضلوعه ولكنه اجاب على الفور:

- أنه مشغول بأخذ البيعة من الناس!

وأضاف ليطيح بأخر خيوط الشك التي قد تساور المعتر.

- والفتح قد بايع أيضاً!

نهض المعتر على عجل ليرتدي ثيابه.. فيما وقف سعيد مع بيدون خارج

القصر بانتظاره..

سلك سعيد بالأمير طريقاً بعيداً عن الشارع الرئيسي.. وألهب حصانه

بالسوط قائلاً:

- المسافة الى «الحير» من هنا أقصر..

كانت السماء قد كفت عن المطر منذ ساعة، وقد بدأت نسائم السحر

بالهبوب..

في منتصف المسافة ظهر فارس يصيح ب الخادم «بيدون» فتوقف له

ويبدو أنه كان يحدثه بشيء خطير... ولكن بيدون الخادم نهره وهمز حصانه

ليلحق بالأمير وسعيد وعلى بوابة قصر الحير عندما طرق سعيد الباب:

- من أنت؟

- سعيد الصغير والأمير المعتر.

وفتحت الباب لتغلق مرة أخرى بإحكام.

و شاء القدر أن يصل الوزير قصر «بكلوارا» مقر الأمير المعتر فيجده قد غادر القصر قبل لحظات فقط.. هتف الوزير بيأس:

- لقد قتلني، وقتل نفسه!!

والتفت الى أحد الحرس.. هل يمكن اللحاق به؟

الهب الحارس ظهر حصانه بالسوط، فابتسم الوزير لهذه الحركة الجريئة وشعر بالأمل..

وفي قصر الحير تم توقيف الأميرين المعتر والمؤيد، في إحدى غرف القصر، ريثما يتم السيطرة على الموقف.

وقد كان لهذه الخطوة الذكية الأثر الأكبر في شلّ قدرة الوزير الذي تمكن من حشد أكثر من عشرة آلاف فارس مسلح، وكانوا خليطاً من الأرمن والأعراب والصعاليك والغوغاء الذين جمعتهم الاطماع اضافة الى بضعة آلاف من تشكيلات الجيش.

وعمّت موجة من الحماس وارتفعت صيحات تطالب بالزحف نحو الشمال، والقضاء على المنتصر والقادة الأتراك الذين التفوا حوله، ولكن

386 الوزير فند هذه الفكرة بقوله:

- لا يمكن فعل شيء ما دام المعتر في قبضتهم!

ومع أولى خيوط الشمس غادر المنتصر مع كوكبة من كبار القادة قصر الحير الى قصر الجعفري، بعد أن تمت السيطرة على دواوين الدولة وقيادة الحرس الخاص، وأصدر المنتصر أوامره بدفن الطاغية مع رئيس الوزراء،

فدفنا في قبر واحد بسبب استحالة الفصل بين الجسدين المقطّعين واختلاط أحدهما مع الآخر!!

وصيغ بيان مختصر يفيد بأن الفتح بن خاقان قد قتل الخليفة وأن المنتصر قد نفذ بالقاتل حكم القصاص..

وفيما كان الخدم يقومون بتنظيف البلاط من آثار الليلة العاصفة حدثت حركة مضادة إذ تدفق الآلاف من الغوغاء الذين تحشدوا في الفجر الى قصر الجعفري وراحوا يطلقون هتافات معادية..

وخرج اليهم الحاجب زرافة يبشرهم بعهد جديد.. لقد اشرفت شمس الحرّية وستهب نسائم العدالة.. وستفتح أبواب السجون. ولكن الغوغاء لهم آذان لا يسمعون بها.. أنهم نتاج تربية طاغية لقتهم الخنوع والانسحاق والطمع والاعتياش على فئات الموائد..

وجاء سيل من الشتائم ما جعله يتراجع ويحيط الخليفة المنتصر علماً بما يجري داخل أسوار القصر!

وهبّ المنتصر لمعالجة الموقف بنفسه وهو يعرف كيف يواجه مثل هؤلاء الناس.. انهم مثل الكلاب المسعورة لن يفيدها سوى الرجم.. وظهر المنتصر يحفّه حرس من المغاربة بوجوههم السوداء المخيفة..

أطل المنتصر على الجموع بنظرات ملتهبة وصاح بحرسه:

- خذوهم!!

واندفع عشرات الحرس من الزوج العمالقة من فوق المدرجات وحدثت الفوضى بين الجموع وداس بعضهم بعضاً حتى اخرجوا من

الابواب الثلاثة ولم يبق داخل السور سوى أجساد الذين دهسوا واستحالوا
في لحظات الفوضى الى جثث هامدة_ تبحلق عيونها في الفراغ.

(٦١)

خائفاً يترقب ذلك الرجل_ القادم من الحجاز ها هو يحوم حول القبة البيضاء في النجف حيث يرقد بطل الاسلام والسيف المقاتل.. اليوم هو يوم الثلاثاء ٣ شوال ٢٤٧هـ. ١٠ كانون الأول ٨٦١م كان الرجل الذي تعدى الاربعين من عمره يتلفت في البيداء متحاشياً الاقتراب من المفارز المسلحة التي اتخذت من الروابي مقرات للمراقبة واعتقال من تسول له نفسه زيارة المرقد الطاهر!

الرياح الباردة في ذلك الأصيل دفعت بالجنود الذين ملؤوا هذه المهام القذرة الى التماس الدفء داخل خيام تعبت بها رياح كانون..

وتمكن الرجل من زيارة ولي الله وابن عم رسول الله، وعلى الرغم منه انبجست من عينيه دموع تختصر تاريخ طويل من القهر والظلم والاضطهاد.. تاريخ مضمخ بالدماء منقوع بالدموع. مفعم بالحزن مخزون بالغضب المقدس.

وتساءل في نفسه ما الذي دهى الامة فلا تستطيع أن تقول للظالم لا؟! ما الذي دهى الناس فلا يستطيعون البوح عما في انفسهم من الألم والعذاب؟! ما الذي دهى هذه الامة.. أحرارها في ظلمات السجون.. وعبيدها خائفون.. والمهرجون فيها اثرياء مترفون؟!

بدت الشمس في الأفق باهتة منطفئة وراء الغيوم.. وكان الرجل يقطع المسافات في طريقه الى كربلاء.

الرياح تلمح المسافر الوحيد الذي اقترب من «الغاضرية»، وقد غاصت الشمس في المغيب فارتسم في الأفق الغربي لون ملتهب بحمرة متوقدة كجراح الانبياء.

ولمح رجلين يختبان بين حشائش نبتت في غابة من النخيل وأدرك على الفور أنهما جاء للزيارة أيضاً..

وحتى يبدد مشاعر الخوف بادرهما بالتحية:

- سلام على زوار الحسين.

واشرقت ابتسامة من رجل تفوح منه رائحة العطر..

قال «الاشناني» بأسى:

- الثيران ما تزال تحرث أرض كربلاء منذ الصباح.

تساءل الرجل:

- وكيف يمكن التعرف على موضع القبر؟!

قال الذي تفوح منه روائح العطر:

- أنا ادلك عليه.. استطيع ذلك من شم الأرض أن رائحة زكية تنبعث من

المكان.

- أي رائحة هذه؟!

قال العطار خاشعاً:

390

- انني أعمل في صنع العطور منذ عشرين سنة... والله ما شممت مثلها

أبداً..

- رائحة الفردوس!!

- أنا لم أشم رائحة الجنة.. ولكنني أجزم أنها ليست من روائح أزهار الأرض!

- أريد أن أنظر الى المكان من بعيد..

قال العطار:

- كن حذراً.. يوجد مسلحتين عن اليمين وعن الشمال.. فسر في الوسط.
وأنظر من بعيد.. وإلا كان مصيرك في ظلمات «المطبق».. ولولا بعد العهد بالزيارة لم أخاطر.. ومن بعيد راح «ابن رابية الطوري» ينظر الى الثيران وهي تحرث الأرض.. وشاهد شيئاً عجيباً أن الثيران كانت تحيد عن بقعة محددة يميناً أو شمالاً فينهال عليها رجال غلاظ بالعصي ضرباً شديداً فلا ينفع ذلك فيها.

كان يرنو الى تلك البقعة والتي غرقت في لجة من الدموع.. دموع صافية كاللآلىء.. طاهرة كقطرات الندى.. مخزونة بالغضب كالبراكين.. انها دمعة شيعي مقهور مطارد منذ أن جاء الى هذه الدنيا، وخائفاً يتربح حتى لحظة الرحيل.. الرحيل من هذا العالم المليء بالشور.

وعندما عاد الى صاحبيه قال:

- انصحكما بالعودة.. لقد رأيت رجالاً كالذئاب أو أشد قسوة.

قال الأشناني:

- اننا ننتظر حلول الظلام.. سوف ينامون عند منتصف الليل.. لقد عاهدت ربّي على أن أضع علامات حول القبر.

قال الرجل:

- لقد زرت من بعيد.. ويتوجب علي العودة الى بغداد قبل منتصف الليل.

ودّع الرجل صاحبيه وراح يسير بين النخيل الى مرسى توجد فيه زوارق
تنقل المسافرين الى الضفة الأخرى من الفرات.. وخلال الطريق راح يشدو
بحزن:

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثلها هذا لعمر ك قبره مهودوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله ففتبعوه رميما
عندما وصل بغداد كانت النجوم تسطع في سماء صافية ماخلا بعض
نتف الغيوم في الأفق الغربي ووجد نفسه يناجي ربه:
- الهي.. أما آن لهذا الليل البهيم أن ينجلي؟!
الهي ادخل الطمأنينة على القلوب الخائفة.
وأتر الطريق للحائرين.. واهد يا الهي الضائعين.
آمين..

فضل ابن رابية التوجه الى خان «عاصم»_ وقضاء ليلة في خان
المسافرين قبل أن يذهب الى منزله في شرق بغداد في هذا الوقت المتأخر
من الليل.

تناول عشاءه بصمت وفضل الأ يتبادل الحديث مع أي كان توجساً من

392 آذان الجواسيس الذين يصعب التعرف عليهم!

إن ذكر آل الرسول بخير قد يؤدي بالانسان الى التهلكة!
ما ان وضع الرجل المسافر رأسه على الوسادة حتى راح في اغفاءة
عميقة... وفي النوم يغمض الانسان المقهور عينيه لفيتهما على عالم
غامض زاخر بالرموز..

« كان يقطع الصحراء المليئة بكثبان الرمال.. ظامئاً ينشد قطرة ماء ولم يكن في الأفق سوى السراب.. كان يركض بين الكثبان كما لو كان يسعى بين الصفا والمروة.. وعندما شعر باليأس نظر الى السماء..».

وانتبه على صوت أذان الفجر ينبعث من منارة مسجد قريب وارتشف من ماء كوز فوق رفّ جرعة ماء.

بغداد ما تزال غارقة في غبش الفجر وبدت الفوانيس في الأزقة محاطة بهالة من النور صنعها الضباب الشفيف..

وفي ضوء القنديل ظلّ ابن رابية جالساً فوق سجاده يتلو القرآن بصوت رخيم..

ومع شروق الشمس عندما نزل الى بهو الخان لتناول طعام الافطار.. شاهد همساً وحركة غير طبيعية وانتابته الهواجس..

وتذكر بأسى مصير صاحب الخان الذي لقي مصرعه تحت سياط لا ترحم ورمي بجثمانه في مياه دجلة.

ولذا تناول أفطاره المؤلف من رغيف خبز وقدرًا من الزبدة وسدد ثمن المبيت وطعام العشاء والافطار، وأسرع بلملمة أشيائه ومغادرة الخان..

كان الشارع الذي سلكه يؤدي إلى جسر الرصافة ماراً بسوق الرياحين ثم سوق الورّاقين.. والصاغة..

بغداد تستيقظ في كانون قبيل الضحى ولذا كانت الأسواق مقفرة ماعدا بعض الباعة الذين يبكّرون عادة.

ومن فوق جسر الرصافة بدت النخيل على امتداد جبهة النهر، وظهرت بعض القصور الفخمة التي كان يقطنها ذات يوم خلفاء سادوا ثم بادوا.. انها

سنة الحياة.. كمياه النهر لا تعرف التوقف.. لابقاء إلا لله.. كل من عليها فان
ويبقى وجه ربك...

ووقع بصره على زحام الناس في ميدان رحب عند رقبة الجسر في
جانب الرصافة..

لقد كان المشهد عجبياً خاصةً في مثل هذا الصباح البارد الندي... إن
شيئاً خطيراً قد وقع ولا شك!! شيء دفع بهذا العدد من الناس الى التجمهر
في هذا المكان لسماح المزيد من التفاصيل المثيرة!!
وسأل الرجل أول من صادفه..

- ما الخبر؟!

- يقولون سقط الطائر بقتل المتوكل!

- ماذا؟!

- لا أحد يدري ما الذي حصل؟!

تدخل آخر قائلاً:

- يقولون ان الرسالة التي حملها الحمام الزاجل خالية من التوقيع!!

- ولكن حمام الزاجل لا يطير إلا من قصور الخلفاء!!

وقبل أذان الظهر كان كل شيء قد بدا واضحاً كشمس ذلك اليوم.. لقد

394 سقط المتوكل الى الأبد!!

وكان مشهد الافراج عن السجناء في «المطبق» وغيره من السجون

مؤثراً..

عشرات الابرياء ممن قضوا أياماً طويلة في الظلمات ينظرون الى

الشمس بفرح ويملاًون صدورهم بنسيم الحرّية!!

وعمّت الفرحة بغداد.

وفي سامراء.. أفرج عن الامام المعتقل ليعود الى منزله والابتسامة تشرق
في وجهه واستقبلته أسرته بفرح وأمل..
فيما كانت نواقيس الكنائس تصّاعد في الفضاء فتتعانق مع أذان حالم
ينساب من فوق المنائر.

خاصّة المنارة الملوّية التي بدت مغمورة في النور.

وفي كربلاء تدفق المئات من المؤمنين وفي طليعتهم جماعة من
الطالبين وكانت المناحة الكربلائية ذلك اليوم مزيجاً من دموع الحزن
والفرح والشوق للقاء سيد الشهداء وأبي الأحرار في يوم الخلاص الحرّية..

٥ شعبان ١٤٢٠ هـ

ما وراء السطور

١. بنى هارون الرشيد منتجعه الصيفي عند نهر القاطول الذي يتفرع عن دجلة وعلى مسافة ١٢٠ كم شمال بغداد.
٢. ابن الاثير ٦ / ٤٥٢.
٣. موسوعة العتبات المقدسة سامراء ١٢ / ٧٨.
٤. الامام الجواد من المهد الى اللحد / ٤٠٢.
٥. الكافي / ٣٢٤.
٦. قرية في ضواحي المدينة المنورة.
٧. اثبات الوصية ط انصاريان / ٢٢٩.
٨. إثبات الوصية / ٢٣٠.
٩. أمالي الشيخ الطوسي.
١٠. المصدر السابق.
١١. موسوعة العتبات المقدسة / ٨٣.
١٢. «تألف غرفة العرش في قصر الجوسق الخاقاني من بهو وسطي كان من المؤكد على ما يبدو مغطى بقبة خاصة مع أربعة أبهاء فرعية، بني كل منها على شاكلة «الباسليك» الروماني ثلاثي الأجنحة.. وكانت هناك بين
396 اذرع الصليب المتكون من شكل البناء ابهاء اصغر مؤزرة بقطع من المرمر»
موسوعة العتبات المقدسة / ٢١٤ - ٢١٥.
١٣. المصدر السابق / ٢١٦.
١٤. ابن الاثير: ٦ / ٤٥٣.

١٥. «دخل يوماً (الفضل)، اليه وبين يديه (المعتصم) حزمة نرجس غص، فأخذها المعتصم فهزّها ثم قال: حيّاك الله أبا العباس، فأخذها الفضل بيمينه وسلّ المعتصم خاتمه (خاتم الوزارة) من أصبعه بيساره وقال له بكلام خفي: أعطني خاتمي، فانتزعه من يده ووضعها في يد ابن عبد الملك». الطبري: ٢٣٥ / ٧.

١٦. موسوعة العتبات المقدسة / ٨١

١٧. ابن الاثير: ٤٨٠ / ٦.

١٨. جرت في صفوف الضباط حركة مضادة لخلافة المعتصم، كانت تهدف الى تنصيب العباس بن المأمون بدلاً عنه.. أجهضها المعتصم باقناع ابن اخيه بالبيعة وأعلان ذلك أمام الجيش. الأخبار الطوال.

١٩. الطبري: ٣٠١ / ٧.

٢٠. أمالي المفيد.

٢١. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٥٧.

٢٢. ابن الاثير: ٤٧٦ / ٦.

٢٣. روضات الجنات: ٣ / ١٣٤.

٢٤. الاسلام يقود الحياة - الامام الشهيد محمد باقر الصدر.

٢٥. تاريخ اليعقوبي / ٢٥٩.

٢٦. ٣٠١ / ٧.

٢٧. الطبري ٣٠٧ / ٧، ابن الاثير ٥١٥ / ٦.

٢٨. أحد روافد دجلة قرب الموصل.

٢٩. تاريخ الطبري: ٣٠٥ / ٧.

٣٠. المصدر السابق.
٣١. اسند المعتمد قيادة الحرس الى اسحاق بن يحيى بن معاذ. ابن الاثير: ٥١٦ / ٦.
٣٢. الطبري: ٣٠٩ / ٧.
٣٣. الدين الاسلامي.
٣٤. نوع من الاسلحة.
٣٥. الطبري: ٣٠٨ / ٧: «فقال: كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم».
٣٦. الطبري: ٣٠٩ / ٧.
٣٧. اعتقل حمدون بن اسماعيل في زمن المتوكل والقي في «سجن اللؤلؤة» / الطبري ٣٠٩ / ٧.
٣٨. كان اعتداء أحد الجنود على أمراءه الشرارة التي اشعلت حريق الثورة، وقد دارت معارك ضارية بين الثوار وجيوش الخلافة انتهت بأسره حيث سيق مخفوراً، ليلقى في سجن المطبق الرهيب في بغداد. الطبري: ٧ / ٣١٢ - ٣١٤.
٣٩. اسم الزورق. الطبري: ٣١٤ / ٧.
٤٠. الطبري: ٣١٤ / ٧.
٤١. 398 قنينة تتسع لرطل من الخمر.
٤٢. مطرب الخليفة الواثق. الطبري: ٣٤٠ / ٧.
٤٣. المصدر السابق.
٤٤. شاعر عرف بعدائه الشديد لأهل البيت (عليهم السلام).
٤٥. العقد الفريد: ٦٠ / ٧.

٤٦. يعدّ من أبلغ الكتاب في العصر العباسي له فيما يبدو ميول شيعة مدح الامام الرضا(عليه السلام) لدى تسنّم الأخير ولاية العهد في زمن المأمون سنة ٢٠١هـ.. وله قصائد كثيرة في مدح أهل البيت قام بإحراقها فيما بعد خوفاً من بطش المتوكل. حياة الامام الرضا(عليه السلام) دراسة وتحليل.

٤٧. البحار: ١٢٤ / ٥٠.

٤٨. وقد جرت عملية تبادل الاسرى على نهر اللامس وفي المناطق الضحلة منه فكان الاسرى يعبرون النهر كل الى بلاده، ابن الاثير: ٧ / ٢٤.

٤٩. الطبري: ٧ / ٣٢٧.

٥٠. كتاب الحيوان للدميري.

٥١. التوحيد / ٢٢٤.

٥٢. تاريخ بغداد: ٤ / ١٥١، الامام الهادي من المهدي الى اللحد / ٣٣٧.

٥٣. ابن الاثير: ٧ / ٢٨.

٥٤. تاريخ بغداد: ٤ / ١٥٣.

٥٥. سيف عمرو بن معدي كرب الزبيدي الذي اكتسب ابان حروب الفتح الاسلامي في ايران شهرة واسعة وعدّ من نفائس الخزانة العباسية.

٥٦. الطبري: ٧ / ٣٢٩، ابن الاثير: ٧ / ٢٣.

٥٧. تاريخ بغداد: ٤ / ١٥١.

٥٨. مروج الذهب.

٥٩. تاريخ بغداد: ٤ / ١٥١.

٦٠. ابن الاثير: ٧ / ٢٦.

٦١. النبوة: منطقة في الجنوب اشتهر اهلها بطيبتهم ووفائهم.
٦٢. زوجة الامام - بحار الأنوار: ٣٧ / ٥٠.
٦٣. مآثر الكبراء في تاريخ سامراء: ٢٤٣ / ٣.
٦٤. فتى كان يعمل في بيت الامام علي (عليه السلام) في خلافته وكان في طليعة اصحابه المخلصين.
٦٥. الانعام: الآية (٤٤).
٦٦. حياة الامام الهادي / ١٥٠.
٦٧. المصدر السابق / ٢٠.
٦٨. المصدر السابق / ١٥٥.
٦٩. المصدر السابق / ١٥٤.
٧٠. المصدر السابق / ١٥٥.
٧١. تاريخ الطبري: ٣٣٨ / ٧.
٧٢. المصدر السابق: ٣٣١ / ٧.
٧٣. الجماع وممارسة الجنس.
٧٤. جارية حسناء اشتراها الواثق بـ «١٠/٠٠٠» دينار! الطبري: ٣٤٠ / ٧.
٧٥. ابو الوزير أحمد بن خالد. الطبري: ٣٤٣ / ٧.
٧٦. 400 الزمام: من يقوم بمراقبة الشؤون المالية إدارياً.
٧٧. تاريخ الطبري: ٣٤٣ / ٧.
٧٨. شقيق رئيس الوزراء الفضل بن سهل في خلافة المأمون وقد اسندت الى الحسن بن سهل حكومة العراق بعد انتصار قوات المأمون.
٧٩. الطبري: ٣٣٩ / ٧.

٨٠ «فعزموا على البيعة لمحمد بن الواثق وهو غلام أمرد». الطبري: ٧ / ٣٤١

٨١ المصدر السابق.

٨٢ المصدر السابق: ٧ / ٣٤٢.

٨٣ المصدر السابق: ٧ / ٣٤٢.

٨٤ المصدر السابق: ٧ / ٣٣٨.

٨٥ تاريخ الخلفاء للسيوطي / ٣٤٦.

٨٦ محبوبة: جارية من مولدات البصرة.. كانت لرجل من أهل الطائف أدبها وعلمها.. أهديت للمتوكل العباسي لما ولي الخلافة، فحلّت من قلبه محلاً جميلاً.

كانت مغنية، شاعرة وموسيقية، اشتهرت بأخبارها في مجلس المتوكل، وعندما قتل ظلّت حزينة عليه هاجرة لكل لذة. دعاها القائد التركي وصيف الى الغناء، فأخذت العود وغنت وهي تبكي:

أي عيش يطيب لي.. لا أرى فيه جعفرًا

ملكاً قد رأته عيني قتيلاً معفراً

فهم وصيف بقتلها، ولكن بغا منعه من ذلك عندما استوهبها منه فأعتقها..

أمرت بمغادرة سامراء فاخترت بغداد وفيها توفيت بصورة غامضة. الأعلام:

٦ / ١٧٠، الأغاني: ٢٢ / ٢٠٠.

٨٧ طلب من زوجته ريطة بنت أبي العنبر أن تسفر وأن تضفر شعرها

مثل الغلمان، فرفضت فطلقها. مرآة الزمان: ٦ / ١٦٩.

٨٨ مروج الذهب: ٤ / ١١٣.

- ٨٩ اثبات الوصية / ٢٣٢.
- ٩٠ الكافي: ١ / ٤٩٨.
- ٩١ التهذيب: ١ / ح ٨١٩.
- ٩٢ أمالي المرتضى: ١ / ٤٨٥، حياة الامام الرضا: ٢ / ٨٧.
- ٩٣ اعيان الشيعة: ٦ / ١٦.
- ٩٤ مناقب ابن شهر آشوب: ٢ / ٢٧٦.
- ٩٥ الطبري: ٧ / ٣٤٤ - ٣٤٥.
- ٩٦ «كان المتوكل اذا جلس على السرير يكشف عن ساقه فكانا أصفرين كأنما صبغا بزعفران» الطبري: ٧ / ٣٩٩.
- ٩٧ الطبري: ٧ / ٢٤٦ وقد قال ابراهيم الصولي فيه:
 وكنت أخي بإخاء الزمان فلما أبي عدت حرباً عوانا
 وكنت أذمّ اليك الزمان فأصبحت منك أذمّ الزمانا
 وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا
- ٩٨ كان الزيات يشرف شخصياً على تعذيب ضحاياه في سرداب بقصره، وكان يتلذذ وهو يشاهد المعذبين يتضرعون اليه ويتنازلون عن كل ما يملكون من أجل ايقاف مسلسل العذاب. راجع الطبري: ٧ / ٣٤٥، ابن

402 الاثير: ٧ / ٣٧.

- ٩٩ الطبري: ٧ / ٣٤٦: «وذكر عن مبارك المغربي أنه قال: ما أظنّه أكل في طول حبسه إلا رغيماً واحداً، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال، وكنت اسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول: لنفسه يا محمد بن عبد الملك لم يقنعك النعمة والدواب الفرّه والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت في

عافية حتى طلبت الوزارة؟ ذق ما عملت بنفسك، فكان يكرّر ذلك على نفسه».

١٠٠. زهر الآداب ٣١/٤ - بين الخفاء والخلعاء في العصر العباسي: ١٠٨.

١٠١. اثبات الوصية للمسعودي / ٢٣٣: «وكتب بريحة العباسي صاحب الصلاة بالحرمين الى المتوكل: «إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرج علي بن محمد منها، فانه قد دعا الى نفسه واتبعه خلق كثير!»

«وكتب اليه بهذا المعنى زوجة المتوكل» - الكافي: ٥٠١/١، الارشاد: ٣٣٣.

١٠٢. الطبري: ٣٤٨ / ٧.

١٠٣. رسالة المتوكل العباسي الى الامام الهادي سنة ٢٣٤هـ:

«أما بعد: فان أمير المؤمنين عارف بقدرك، راع لقرابتك، موجب لحقك، مقدر من الأمور فيك وفي أهل بيتك ما يصلح الله به حالك، ويثبت به عزك وعزهم، ويدخل الأمن عليك وعليهم يبتغي رضى ربّه، وأداء ما افترض عليه فيك وفيهم.

وقد رأى أمير المؤمنين صرف عبدالله بن محمد عمّا كان يتولاه من الحرب والصلاة بمدينة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا كان على ما ذكرت من جهالته بحقك، واستخفافه بقدرك، وعندما قرفك به نسبك إليه من الأمر

الذي قد علم أمير المؤمنين براءتك منه، وصدق نيتك في برك وقولك، وأنك لم تؤهل نفسك لما قرفت بطلبه، وقد ولى أمير المؤمنين ما كان يلي من ذلك محمد بن الفضل، وأمره بإكرامك وتبجيلك، والانتهاء الى أمرك، ورأيك والتقرب الى الله والى أمير المؤمنين بذلك، وأمير المؤمنين مشتاق إليك يحب إحداث العهد بك، والنظر إليك، فان نشطت لزيارته والمقام قبله

ما أحببت شخصت ومن اخترت من أهل بيتك ومواليك وحشمك على مهلة وطمانينة ترحل إذا شئت وتنزل إذا شئت، وتسير كيف شئت، وان أحببت أن يكون يحيى بن هرثمة مولى أمير المؤمنين، ومن معه من الجند، يرحلون برحلك، ويسرون بسيرك، فالأمر في ذلك إليك، وقد تقدمنا إليه بطاعتك فاستخر الله حتى توفي أمير المؤمنين، فما أحد من اخوانه، وولده وأهل بيته وخاصة أطف منه منزلة، ولا أحمد لهم أثره، ولا هو لهم أنظر، ولا عليهم أشفق وبهم أبر، وإليهم أسكن منه إليك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

وكتب هذه الرسالة إبراهيم بن العباس في شهر جمادي الآخرة سنة ٢٣٤هـ الارشاد / ٢٧٥ - ٢٧٦.

١٠٤. اثبات الوصية / ٢٢٨.

١٠٥. الامام علي الهادي من المهدي الى اللحد / ٤٤٠ بالاستناد الى كشف الغمة.

١٠٦. وفي هذه السنة (٢٢٨هـ) غلا السعر بطريق مكة فبلغ رطل الخبز بدرهم وراوية الماء بأربعين درهماً، واصاب الناس في الموقف (عرفات) حرّ شديد ثم مطر شديد وبرّد، فأضرّ بهم شدة الحرّ ثم شدة البرد في ساعة واحدة ومطروا بمنى في يوم النحر مطراً شديداً لم يروا مثله، وسقطت قطعة

404

من الجبل عند جمرة العقبة، قتلت عدّة من الحجاج». الطبري: ٧ / ٣١٨.

١٠٧. إثبات الوصية / ٢٣٤.

١٠٨. مروج الذهب، إثبات الوصية / ٢٣٤.

١٠٩. بات علي بن أبي طالب (عليه السلام) على فراش النبي عندما حيكّت ضد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أخطر محاولة لاغتياله.

١١٠. إثبات الوصية / ٢٣٦.

١١١. ولد الامام وكان محمد في الثالثة من عمره ويكبر أخاه الحسن بسنة.

١١٢. تيار فكري، جمد على ظاهر آيات القرآن الكريم فرسم صورة لله تبارك وتعالى تشبه الانسان، وقد شجّع المتوكل هذه الافكار لضرب المعتزلة.

١١٣. تاريخ اليعقوبي: ٣ / ٢٠٩.

١١٤. إثبات الوصية / ٢٣٧.

١١٥. حياة الامام الهادي / ١٣٧.

١١٦. المصدر السابق / ١٣٦.

١١٧. تذكرة الخواص / ٣٥٩.

١١٨. المصدر السابق.

١١٩. وروي عن يحيى بن هرثمة قال: «رأيت من دلائل أبي الحسن (عليه السلام) الأعاجيب في طريقنا؛ منها: انا نزلنا منزلاً لا ماء فيه فاشفينا ودوابنا

وجمالنا من العطش على التلف، وكان معنا جماعة وقوم قد تبعونا من أهل المدينة، فقال أبو الحسن (عليه السلام): كأنني أعرف على أميال موضع ماء.

فقلنا له: ان نشطت وتفضلت عدلت بنا اليه وكنا معك.

فعدل بنا عن الطريق فسرنا نحو ستة أميال فأشرفنا على واد كأنه زهر الرياض فيه عيون وأشجار وزروع وليس فيها زارع ولا فلاح ولا أحد من

الناس، فنزلنا وشربنا وسقينا دوابنا وأقمنا الى بعد العصر ثم تزودنا وارتوتينا وما معنا من القرب ورحنا راحلين. فلم نبعد أن عطشت وكان لي مع بعض غلماني كوز فضة يشده في منطقتة وقد استسقيته فلجلج لسانه بالكلام.. ونظرت فاذا هو قد أنسي الكوز في المنزل الذي كنا فيه فرجعت أضرب بالسوط على فرس لي جواد سريع وأخذ السير حتى أشرفت على الوادي فرأيته جدياً يابساً قاحلاً مَحْلاً لا ماء فيه ولا زرع ولا خضرة ورأيت موضع رحالنا وروث دوابنا وبعر الجمال ومناخاتهم والكوز موضوع في موضعه الذي تركه الغلام، فأخذته وانصرفت، ولم أعرفه شيئاً من الخبر.

فلما قربت من القطر والعسكر وجدته (عليه السلام) واقفاً ينتظر فتبسم (صلى الله عليه) ولم يقل لي شيئاً ولا قلت له سوى ما سأل من وجود الكوز فأعلمته اني وجدته. اثبات الوصية / ٢٣٤.

١٢٠. الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣١٣.

١٢١. نور الابصار / ١٦٤ - بحار الانوار: ١٣ / ١٢٧.

١٢٢. تاريخ الطبري: ٧ / ٣٩٩.

١٢٣. الارشاد / ٣٧٦.

١٢٤. وهذه القناة مكنت من تموين المسجد الجامع بالمياه الدائمة فجعل

فيه على قول اليعقوبي «فواره ماء، لا ينقطع ماؤها». موسوعة العتبات

المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٠٩.

١٢٥. تاريخ بغداد: ١٢ / ٥٧.

١٢٦. «ولكن المتوكل، وهو الذي كان له ولع خاص بمثل هذه المشاريع

العامة، لم يقنع بهذا فبذل قصارى جهده لتحقيق مشاريع الري على الجانب

الذي تقع فيه عاصمته.. فكان أول مشروع قام به بعد توليه الخلافة المشروع المعروف بـ «قناة المتوكل» أو «قناة سامراء» الذي يؤمن إيصال المياه إلى عاصمته سامراء بطريقة الري الجوفي المعروف بري «الكهاريز». ويشتمل هذا المشروع على كهريزين ضخمين يستعمل أحدهما في الشتاء والآخر في الصيف، وهما يستمدان المياه من نهر دجلة شمالي الدور فيسيران حوالي أربعين كيلو متراً حتى يصل إلى قلب العاصمة. وقد مد المتوكل هذين الكهريزين إلى الجنوب ليخترقا المطيرة ثم يسيران إلى ما يجاور القادسية. وبفضل هذا المشروع تمكن المتوكل من إنشاء مشاريعه الجبارة في قلب العاصمة والتوسع شرقي سامراء باتجاه منطقة الحير، ومن أهم هذه المشاريع إنشاء حوض للسباحة خلف «دار الخليفة» وهو الحوض المعروف اليوم باسم «بركة السباع»، ثم البركة الواسعة الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من هذه البركة، وأخيراً حلبة السباق وتلها الذي يشرف عليها المعروف باسم «تل العليق» وهي الحلبة التي أنشأها المتوكل في جهة الحير.. وهذه القناة هي التي مكنت المتوكل من تموين المسجد الجامع الذي أنشأه في أول الحير بالمياه الدائمة فجعل فيه على قول يعقوبي «فواره ماء لا ينقطع ماؤها». موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٠٩.

١٢٧. الطبري: ٧ / ٣٩٨ والشاعر هو علي بن الجهم.

١٢٨. المصدر السابق / ٣٩٧.

١٢٩. وقد سجل الطبري صورة مفصلة عن وحشية السلطات في قمع الثورات:

«ذكر أن السبب في ذلك كان أن المتوكل كان اعتلّ في هذه السنة وكان مع ابن البعيث رجل يخدمه يسمى خليفة فأخبره بأن المتوكل قد توفي وأعد له دواب فهرب هو وخليفة الذي أخبره الخبر إلى موضعه من آذربيجان وموضعه منها مرند وقيل كانت له قلعتان تدعى إحداهما شاهي والأخرى يكدر ويكدر خارج البحيرة وشاهي في وسط البحيرة والبحيرة قدر خمسين فرسخاً من حد أرمية إلى رستاق داخرقان بلاد محمد بن الرواد وشاهي قلعة ابن البعيث حصينة يحيط بها ماء قائم ثم يركب الناس من أطراف المراغة إلى أرمية وهي بحيرة لاسمك فيها ولا خير . وذكر أن ابن البعيث كان في حبس إسحاق بن إبراهيم ابن مصعب فتكلم فيه بغا الشرايبي وأخذ منه الكفلاء نحواً من ثلاثين كفيلاً منهم محمد بن خالد بن يزيد ابن مزيد الشيباني فكان يتردد بسامراً فهرب إلى مرند فجمع بمرند الطعام وفيها عيون ماء فرم ما كان وهَي من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار في نحو من ألفين ومائتي رجل.. وكان الوالي بآذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر في طلبه فولى المتوكل حمدويه ابن علي بن الفضل السعدي آذربيجان ووجهه من سامراً على البريد فلما صار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار في عشرة آلاف فزحف إلى ابن البعيث فألجأه إلى مدينة مرند وهي مدينة استدارتها فرسخان وفي داخلها بساتين كثيرة ومن خارجها كما تدور شجر الا في موضع أبوابها وقد جمع فيها ابن البعيث آلة الحصار وفيها عيون ماء فلما طالت مدته وجه المتوكل زيرك التركي في مائتي ألف فارس من الأتراك فلم يصنع شيئاً فوجه إليه المتوكل عمرو بن سيسل بن كال في

تسعمائة من الشاكرية فلم يُغن شيئاً فوجه إليه بغا الشرايبيّ في أربعة آلاف ما بين تركي وشاكري ومغربي وكان حمدويه بن علي وعمر بن سيسل وزيرك زحفوا إلى مدينة مرند وقطعوا ما حولها من الشجر فقطعوا نحواً من مائة ألف شجرة وغير ذلك من شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون فيه ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وكان من معه من علوج رساتيقه يرمون بالمقاليع فكان الرجل لا يقدر على الدنو من سور المدينة فقتل من أولياء السلطان في حربه في ثمانية أشهر نحو مئة رجل وجرح نحو من أربعمئة وقتل وجرح من أصحابه مثل ذلك وكان حمدويه وعمرو وزيرك يغادونه القتال ويراهونه وكان السور من قبل المدينة ذليلاً ومن القرار نحواً من مئة عشرين ذراعاً وكانت الجماعة من أصحاب ابن البعيث يتدلون بالحبال معهم الرماح فيقاتلون فإذا حمل عليهم من أصحاب السلطان لجؤوا إلى الحائط وكانوا ربما فتحوا باباً يقال له باب الماء فيخرج منه العدة يقاتلون ثم يرجعون ولما قرب بغا الشرايبي من مرند بعث فيما ذكر عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين وإلا قاتلهم فان ظفر بهم لم يستبق منه أحداً ومن نزل فله الأمان وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة من قوم عيسى بن الشيخ فنزل منهم قوم كثير بالحبال ونزل ختن ابن البعيث على أخته أبو الأغر . وذكر عن أبي الأغر هذا أنه قال ثم فتحوا باب المدينة فدخل أصحاب حمدويه وزيرك وخرج ابن البعيث من منزله هاربا يريد أن يخرج من وجه آخر فلحقه قوم من الجند معهم منصور قهرمانه وهو راكب دابة

يريد أن يصير إلى نهر عليه رحي ليستخفي في الرحي وفي عنقه السيف فأخذه أسيراً وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وبعض منازل أهل المدينة ثم نودي بعدما انتهب الناس برئت الذمة ممن انتهب وأخذوا له أختين وثلاث بنات وخالته والبواقي سراري فحصل في يد السلطان من حرمه ثلاث عشرة امرأة وأخذ من وجوه أصحابه المذكورين نحو من مائتي رجل وهرب الباقيون فوافاهم بغا الشرايبي من غد فنأدى مناديه بالمنع من النهب فكتب بغا الشرايبي بالفتح لنفسه. الطبري: ٧ / ٣٤٩ - ٣٥٠.

١٣٠. تاريخ العباسين لابن وادان / ٦٢٣.
 ١٣١. كان ايتاخ طباحاً في قصر الخليفة - المصدر السابق / ٥٨٢.
 ١٣٢. المصدر السابق.
 ١٣٣. «ثم دس المتوكل الى ايتاخ من يشير عليه بالحجج فاستأذن المتوكل في الحج ولم يعلم انه دسيصة» المصدر السابق.

١٣٤. سير اعلام النبلاء: ٨ / ١٥٣.

١٣٥. حياة الامام الهادي / ٥٣.

١٣٦. المصدر السابق / ٥١.

١٣٧. بحار الانوار: ٩٤ / ١٧٩.

410 ١٣٨. الطبري: ٧ / ٣٤٧.

١٣٩. الكافي: ٧ / ٤٩٦.

١٤٠. عيون أخبار الرضا باب ٢٨ حديث ٩١.

١٤١. بحار الانوار: ٥٠ / ١٢٥.

١٤٢. عرف عن علي بن الجهم حقه وعداؤه الشديد للامام علي لأن قبيلته كانت قد طلبت الانتساب الى قريش في زمن أبي بكر وعمر فرفضاً ذلك ثم جاء عثمان فأدخلها في قريش، وعندما تصدّى الامام علي للخلافة، ألغى اجراء عثمان، فأعلنوا ارتدادهم عن الاسلام، وقد سأله المتوكل عن صحة ذلك فانكر وقال هذه دعوى الرافضة، وشم القوم. تاريخ العباسيين / ٦٢٠.

١٤٣. الحماني الأفوه أبو الحسين علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد الشهيد.

حِمان - بكسر المهملة وتشديد الميم - محلّة بالكوفة، والنسبة إلى حِمان قبيلة من تميم، وهم بنو حِمان بن عبدالعزيز بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. في الرعيّل الأوّل من فقهاء العترة ومدرسيّهم في عاصمة التشيع بالعراق في القرون الأولى - الكوفة - وفي السنام الأعلى من خطباء بني هاشم وشعرائهم المفلّحين، وقد سار بذكره وبشعره الركبان، وعرفه القريب والبعيد بحسن الصياغة وجودة السرد، أضف إلى ذلك علمه الغزير، ومجده الأثيل، وسؤدده الباهر، ونسبه العلويّ الميمون، وحسبه الوضّاح، إلى فضائل جمّة تسنّمت به إلى ذروة المجد.

411 أثنى عليه المسعودي في مروج الذهب في كلام يأتي له، وقال: كان عليّ بن محمد الحِماني مفتيهم بالكوفة، وشاعرهم ومدرسهم ولسانهم، ولم يكن أحدًا بالكوفة من آل عليّ بن أبي طالب يتقدّمه في ذلك الوقت. وذكره النسابة العمري في المجدي وأطراه بما ملخصه: كان مشهوراً بالشعر، رثى يحيى بن بن عمر، وكان أشعر ولد أبيه يكنى أبا الحسين. وقال

في ترجمة الشريف الرضي: هو أشعر قريش إلى وقتنا، وحسبك أن يكون قريش في أولها الحارث بن هاشم والعبلي، وعمر بن أبي ربيعة، وفي آخرها بالنسبة إلى زمانه محمد بن صالح الموسوي، وعليّ بن محمد الجمّاني. المحاسن والاضداد للجاحظ / ٩٠.

١٤٤. بحار الانوار: ١٣ / ١٣١. اعيان الشيعة: ٤ / ٢٧٤.

١٤٥. وتم تعيينه حاجبا بتاريخ ١٨ ذى القعدة سنة ٢٣٤. الطبري: ٧ / ٣٥١.

١٤٦. حياة الامام الهادي / ٤٣.

١٤٧. الطبري: ٧ / ٣٥١ - ٣٥٢.

١٤٨. الطبري: ٧ / ٣٥٣.

١٤٩. اخبار العباسيين / ٥٨٦.

١٥٠. الطبري: ٧ / ٣٥٣.

١٥١. احداث التاريخ الاسلامي بترتيب السنين: ١ / ١٣١٨.

١٥٢. كان الجاحظ قد زُجّ في السجن بسبب علاقاته مع الوزير محمد بن عبد الملك الزيّات الذي توفي تحت التعذيب مطلع سنة ٢٣٢هـ.

١٥٣. قال الجاحظ: «ذُكرت للمتوكل لتعليم ولده فلما مثلت بين يديه استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم، وصوفني» تاريخ العباسيين /

412 ٥٩٣

١٥٤. وحدثني بعض شيوخنا إن ايتاخ كان موته بالعطش، وانه أطمع فاستقى فمنع الماء حتى مات عطشاً. الطبري: ٧ / ٣٥٣.

١٥٥. راجع الملحق رقم «١» النص الكامل لرسالة الامام علي الهادي في الجبر والتفويض.

١٥٦. موسوعة العتبات المقدسة. سامراء: ١٢ / ٣٠٦.
١٥٧. المصدر السابق: ١٢ / ٢٠٣ بالاستناد الى ثمار القلوب للشعالبي أبو منصور.
١٥٨. المصدر السابق: ١٢ / ٣٠٦.
١٥٩. العقد الفريد: ٦ / ٤٣٠.
١٦٠. فوات الوفيات: ٢ / ٣٥٦.
١٦١. «قطربل» في ضواحي بغداد مشهورة بمعاصر الكروم.
١٦٢. التحف والهدايا / ٢٨ تحقيق سامي الدهان.
١٦٣. الزبير الذي لقب بالمعتر.
١٦٤. الامام الهادي من المهدي الى اللحد / ٤٤٣.
١٦٥. الطبري / ٧ / ٣٦٣.
١٦٦. دائر المعارف للبستاني: ٧ / ٤٥.
١٦٧. بحار الانوار: ٥٠ / ١٤١.
١٦٨. الامالي: ١ / ٢٩٣.
١٦٩. الامام علي الهادي من المهدي الى اللحد / ٢٤٤.
١٧٠. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٢٢.
١٧١. المصدر السابق: ١ / ١٣٢٨.

ديك الجنّ: هو عبدالسلام بن رغبان بن حبيب الكلبي. اشتهر بلقب ديك الجنّ، لأنّ عينيه كانتا خضراوين. شاعر مجيد من شعراء العصر العباسي، يذهب مذهب أبي تمام والشّامين في شعره. كان يتشيع تشيعاً حسناً، ومعظم مراثيه في آل البيت. كان يحبّ جارية نصرانية تدعى (ورداً) من

أهل حمص، هواها وتمادى به الأمر حتى غلبت عليه وذهبت به، فلما اشتهر بها دعاها إلى الإسلام ليتزوج بها، فأجابته لعلمها برغبته فيها، فأسلمت على يده فتزوجها وفيها يقول:

أَنْظُرُ إِلَى شَمْسِ الْقُصُورِ وَبَدْرِهَا وَإِلَى خُزَامَاهَا وَبَهْجَةِ زَهْرَهَا
لَمْ تَبْلُ عَيْنُكَ أَيْضاً فِي أَسْوَد جَمَعَ الْجَمَالَ كَوَجْهَهَا فِي شَعْرَهَا
وَرَدِيَّةُ الْوَجَنَاتِ يَخْتِيرُ اسْمَهَا مِنْ رَيْقِهَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِخُبْرَهَا
وَتَمَايَلَتْ فَضَحِكْتُ مِنْ أَرْدَافِهَا عَجَباً وَلَكِنِّي بَكَيْتُ لِخَصْرَهَا
تُسْفِيكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا وَرَدِيَّةَ وَمُدَامَةَ مِنْ ثَغْرَهَا

ثم دس حسادها عليه إنها كانت تخونه وهو غائب، فقتلها، ثم علم الحقيقة فندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعم من الطعام إلا ما يقيم رمقه، وقال في ندمه على قتلها:

يَا طَلْعَةَ طَلَعَ الْجَمَامُ عَلَيْهَا وَجَنَى لَهَا ثَمَرَ الرَّدَى بِيَدَيْهَا
رَوَيْتُ مِنْ دَمِهَا الثَّرَى وَلَطَّأَمَا رَوَى الْهُوَى شَفْتِي مِنْ شَفْتَيْهَا
قَدَّ بَاتَ سَيْفِي فِي مَجَالِ وَشَاحِهَا وَمَدَامِعِي تَجْرِي عَلَى خَدَيْهَا
فَوَحَقَّ نَعْلَيْهَا وَمَا وَطِئَ الْحَصَى شَيْءٌ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ نَعْلَيْهَا
مَا كَانَ قَتْلِيهَا لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَبْكِي إِذَا سَقَطَ الذُّبَابُ عَلَيْهَا
لَكِنْ ضَنْتُ عَلَى الْعَيُونِ بِحُسْنِهَا وَأَنْفَتُ مِنْ نَظَرِ الْحَسُودِ إِلَيْهَا

له أقوال في الحكمة منها قوله:

يُرْقَدُ النَّاسُ آمَنِينَ وَرَيْبُ الدَّهْرِ يَرَعَاهُمْ بِمُقْلِهِ لِيَصَّ

أصله من مدينة (سلمية)، قرب مدينة (حماه) ومولده ووفاته في مدينة (حمص). لم يفارق الشام، ولم ينتجع بشعره. توفي عن ٧٤ عاماً. الأعلام: ٤ / ١٢٨، وفيات الأعيان: ٣ / ١٨٤، الأغاني: ١٤ / ٥١ وما بعدها.

١٧٢. الطبري: ٧ / ٣٦٣.

١٧٣. المصدر السابق.

١٧٤. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٢٢.

١٧٥. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٢٣.

١٧٦. زوجة المتوكل كانت في الاصل جارية يونانية «موسوعة العتبات المقدسة» سامراء: ١٢ / ٢٦١.

ثم ما لبثت ان استولت على قلب سيدها واصبحت زوجته الوحيدة حيث طلق الخليفة زوجته العربية «ريطة» التي رفضت السفر والتشبه بالغلما.

١٧٧. الهة الجمال والحب لدى اليونان، ولدت من زيد البحر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب / ٣٨٢، سلسلة عالم المعرفة / ١٧٣ الكويت.

١٧٨. تاريخ العباسيين لابن وادان / ٦٢٨.

١٧٩. نجحت أمه في اقناع زوجها فيما بعد ذلك بعد عشرات الدسائس حيث وقفت أسرة آل خاقان الى جانب اطماعها وكونوا معاً اخطبوطاً رهيباً في الدولة.

١٨٠. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٢٢.

١٨١. الطبري: ٧ / ٣٦٤.

١٨٢. الشاعر هو يعقوب بن يزيد التمار - الامام الهادي دراسة وتحليل /

٣٢٥ بالاستناد الى «سامراء في القرن الثالث الهجري» / ١٧٢.

١٨٣. خطط المقرئزي: ١٥٣ / ٤.
١٨٤. الطبري: ٣٦٥ / ٧.
١٨٥. توفي زنام الزامر أواخر سنة ٢٣٥هـ كان من مطربي خلفاء بني العباس منذ عهد الرشيد اشتهر بعزفه على الناي / الاعلام: ٨٣ / ٣
١٨٦. انثى الحمار.
١٨٧. مروج الذهب: ٤٣ / ٤.
١٨٨. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢.
١٨٩. ابن الاثير: ٥٥ / ٧.
١٩٠. الطبري: ٣٦٦ / ٧.
١٩١. الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢.
١٩٢. الطبري: ٣٦٩ / ٧.
١٩٣. نادل الخليفة والمسؤول عن اعداد مائدة الشراب والسكر.
١٩٤. كرخ سامراء المعروف بكرخ فيروز.
١٩٥. الطبري: ٣٦٦ / ٧، بحار الانوار: ١٨٦ / ٥٠.
١٩٦. الطبري: ٣٦٦ / ٧.
١٩٧. المصدر السابق: ٣٦٥ / ٧.
- 416 ١٩٨. الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٤٩ بالاستناد الى أمالي الشيخ الطوسي.
١٩٩. المصدر السابق / ٤٣ بالاستناد الى تاريخ بغداد.
٢٠٠. الطبري: ٣٦٥ / ٧.
٢٠١. المصدر السابق: ٣٦٧ / ٧.

٢٠٢. راجع تفاصيل هروب زوجة المتوكل سنة ٢٥٥. الطبري: ٧ / ٥٢٩.
٢٠٣. الامام الهادي من المهدي الى اللحد / ٥٦ بالاستناد الى مروج الذهب. يقول البحري الشاعر: فوالله ما انتضي ذلك السيف، ولا خرج من غمده إلا في الليلة التي ضربه فيها باغر بذلك السيف». مروج الذهب للمسعودي.
٢٠٤. «احلف بالله لو لم يقتل المتوكل لما عاش من كثرة جماعه». أحد عبيد القصر - مرآة الزمان: ٦ / ٦٩.
٢٠٥. تفرع نهري من دجلة ١٢٠ كم شمال بغداد.
٢٠٦. من قصور المتوكل وقد كلف بناؤه ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار.
٢٠٧. سُمع الخليفة يشتم السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام). الأمالي للشيخ الطوسي.
- ويقول الطبري: «وذكر أن المنتصر كان قد شاور في قتل أبيه جماعة من الفقهاء وأعلمهم بمذاهبه وحكى عنه أموراً قبيحة كرهت ذكرها في الكتاب فأشاروا عليه بقتله». الطبري: ٧ / ٤١٥.
٢٠٨. قال البحري: يصف ذلك:
- غينا على قصر يسير بفتيه قعود على ارجائه وقيام
تظل البزاة البيض تخطف حولنا جآجىء طير في السماء سوام
فلم أر كالقطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالسماحة طام
ولا جبلا كالزوّ يوقف تارة وينقاد إمّا قدته بزمام
- ديوان البحري: ٣ / ٢٠٢.
٢٠٩. حياة الحسن العسكري دراسة وتحليل / ٢٣٦.

٢١٠. الامام الهادي من المهدي الى اللحد / ٤٧ بالاستناد الى امالي الشيخ الطوسي.

٢١١. المصدر السابق / ٥١ بالاستناد الى أمالي الشيخ الطوسي.

٢١٢. حياة الامام الحسن العسكري دراسة وتحليل / ٢٣٦.

٢١٣. نسبت هذه الابيات الى عالم العربية ابن السكيت، مرآة الزمان: ٦ /

١٣٦، والى الشاعر البسامي أيضاً، فوات الوفيات: ١ / ٢٠٣.

٢١٤. اثبات الوصية للمسعودي / ٢٤.

٢١٥. بحار الانوار: ١٣ / ١٤٢.

٢١٦. اثبات الوصية / ٢٤٠.

٢١٧. المصدر السابق / ٢٤١.

٢١٨. يقول أبو حماد الرازي: دخلت على علي بن محمد (عليه السلام)

بسر من رأى فسألته عن اشياء من الحلال والحرام فأجابني عنها، فلما ودّعته

قال لي: يا حماد اذا أشكل عليك شيء من أمر دينك فسل عنه «عبدالعظيم

الحسني» وأقرأه مني السلام». معجم رجال الحديث: ١٠ / ٥٢.

من ذرية الامام الحسن السبط (عليه السلام)، كان عالماً وفقياً، وبلغ من

شدة تحرّجه وتديّنه أنه عرض على الامام عقائده قائلاً:

418 «اني اقول ان الله تبارك وتعالى ليس كمثلته شيء، خارج عن الحدّين: حدّ

الابطال وحدّ التشبيه، وانه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل

هو مُجسّم الاجسام، ومصوّر الصور وخالق الأعراض والجواهر، ورب كل

شيء ومالكه، وجاعله ومحدثه.

وان محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين فلا نبي بعده الى يوم القيامة، وان شريعته خاتمة الشرائع، فلا شريعة بعدها الى يوم القيامة. وأقول: ان الامام والخليفة، وولي الأمر بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب».

فقال الامام علي الهادي (عليه السلام) «يا أبا القاسم هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده فاثبت عليه، ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة»... ولقد لوحق هذا السيد الكريم فاضطر الى الاختفاء عن الانظار فهرب الى الري.. وهناك اخفى هويته الى أن توفي ومرقده الآن جنوب العاصمة الايرانية طهران حيث يؤمّه مئات الآلاف من المؤمنين لزيارته سنوياً. وسائل الشيعة: ١ / ١٣.

٢١٩. اثبات الوصية / ٢٤١.

٢٢٠. بحار الانوار: ١٣ / ١٤٢.

٢٢١. تاريخ يعقوبي: ٣ / ٢٢٢.

٢٢٢. موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٣٨.

٢٢٣. الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٢٤٥.

٢٢٤. الكافي: ٣ / ٤٤٢.

٢٢٥. عالج: كئبان رملية تمتد من «الدهناء» وحتى «نجد» في شبه جزيرة العرب.

٢٢٦. الكافي: ٦ / ٥٣٢.

٢٢٧. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٤ بالاستناد الى كتاب الخرايج للراوندي.

٢٢٨. بحار الانوار: ١٣ / ١٢٩.

٢٢٩. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٥.

٢٣٠. وفيات الأعيان: ١ / ٢٩: وقد علق على الرسالة ابن خلكان: «وهذا

الكلام مع وجازته في غاية الابداع».

٢٣١. أمالي المرتضى: ١ / ٤٨٥.

٢٣٢. ومن روائع شعره في مدح الامام الرضا (عليه السلام):

كفى بفعال امرىء عالم على أهله عادلاً شاهداً

أرى لهم طارفاً مونقاً ولا يشبهه الطارف التالداً

يمنّ عليكم بأموالكم وتعطون من مئة واحداً

أمالي المرتضى: ١ / ٤٨٥، أعيان الشيعة: ٦ / ١٦.

وله شعر ينضح حكمة ووعياً للحياة:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرُجت وكنت أظنها لا تفرج

وفيات الأعيان: ١ / ٢٩.

٢٣٣. تاريخ العباسيين / ٥٩٢.

٢٣٤. وهذه قائمة ببعض القصور التي بناها المتوكل:

١ - الجعفري وكلفة بنائه ٢/٠٠٠/٠٠٠ دينار غير نفقات التدشين التي

منحت كهدايا للمغنين ٢/٠٠٠/٠٠٠ درهم، معجم البلدان: ٢ / ١٤٣،

تاريخ الطبري: ٩ / ٢١٢.

٢- البرج ١/٧٠٠/٠٠٠ دينار وقد صُمِّم وفق الروايات التي وصفت قصر

سليمان النبي، تاريخ يعقوبي: ٢ / ٢٢٢، الديارات / ١٠٣.

٣- المليح ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم، ديوان البحري: ٢ / ٣٩٧، معجم البلدان:

١٧٥ / ٣.

٤- الشبنداز ١٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٣ / ٣١٩.

٥- المليح ٥/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٥ / ٧٠.

٦- المختار ١/٠٠٠/٠٠٠ درهم معجم البلدان: ٤ / ١٩٢.

٧- بلكوارا ٢٠/٠٠٠/٠٠٠ درهم، كما كلفت نفقات وليمة تدشينه

٨٦/٠٠٠/٠٠٠ درهم وقد ضربت مثلاً في الاسراف، معجم البلدان: ٣ /

١٧٥.

٨- الحير ٤/٠٠٠/٠٠٠ درهم، معجم البلدان: ٢ / ٣٢٨.

٩- اضافة الى برك المياه والمسباح، وحلبة كبرى لسباق الخيل.

٢٣٥. استقبله الشاعر ابو العتاهية بقوله:

لو كنت في الرأي منسوباً الى رشد وكان عزمك عزمأ فيه توفيق

لكان في الفقه شغلٌ لو قنعت به عن أن تقول كلام الله مخلوق

ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم ماكان في الفرع لولا الجهل والموق

الطبري: ٧ / ٢٦٨، تاريخ العباسيين / ٥٩٢.

٢٣٦. تقول الاسطورة اليونانية: «ان الانسان اذا ما ذاق قطعة من لحم أخيه

الانسان، فإنه يتحول حتماً الى ذئب». الجمهورية لافلاطون - ترجمة فؤاد

زكريا / ٥٦٦.

٢٣٧. الطبري: ٧ / ٣٧١.
٢٣٨. ضواحي بغداد وتقابل الشماسية في الرصافة في خارطة بغداد العباسية.
٢٣٩. الطبري: ٧ / ٣٧٢.
٢٤٠. اصدر المتوكل أوامر مشددة بهدم جميع الكنائس التي تم انشائها في عهد الاسلام، واتخذت اجراءات مذلة للنصارى مما جعلهم يشاركون في القلاقل التي ثارت ضد الحكم العباسي. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٤٣.
٢٤١. الفهرست لابن النديم / ١٦٢.
٢٤٢. لقب بابن السكيت لكثرة سكوته.
٢٤٣. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٢، الكافي: ١ / ٢٤.
٢٤٤. الأمالي: ٢ / ١٩٣.
٢٤٥. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٣٩ بالاستناد الى بحار الانوار الجزء الرابع.
٢٤٦. يصف المتوكل الامام الهادي بالأسود لسمرته / الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٦٣ بالاستناد الى ثاقب المناقب / مخطوط.
- 422 ٢٤٧. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٤ - راجع الملحق رقم (٢).
٢٤٨. غافر: الآيتان: ٨٣ - ٨٤.
٢٤٩. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٤٠.
٢٥٠. اشتهر عن القاضي ابن اكنم اللواط بل وتجويزه ذلك مستدلاً بالآية الواردة في سؤاله.

٢٥١. مناقب ابن شهر آشوب: ٤ / ٤٠٦، تحف العقول / ٤٨١.
٢٥٢. تاريخ العباسيين / ٦١٩ - ٦٢٠.
٢٥٣. الطبري: ٧ / ٣٧٢.
٢٥٤. «وكانت الحكومة اذا إرادت أن تعاقب شيعياً لمذهبه لم تذكر إسم علي بل يُجعل سبب العقوبة انه شتم أبا بكر وعمر. الامام الصادق والمذاهب الاربعة: ١ / ٢٢٧.
٢٥٥. الطبري: ٧ / ٣٧٥.
٢٥٦. الطبري: ٧ / ٣٧٤.
٢٥٧. المصدر السابق: ٧ / ٣٧٦.
٢٥٨. المصدر نفسه.
٢٥٩. المصدر نفسه: ٧ / ٣٧٨.
٢٦٠. بحار الانوار: ٥٠ / ١٩٤.
٢٦١. عيون الاخبار: ٢ / باب ٦٦ ح ٣٢.
٢٦٢. بحار الانوار: ٥٠ / ١٩٤.
٢٦٣. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٦٥.
٢٦٤. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٥٧.
٢٦٥. تاريخ العباسيين / ٥٩١.
٢٦٦. موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٨١.
٢٦٧. وفيات الاعيان: ٦ / ١٤٧.
٢٦٨. كانت سامراء تدعى أيضاً بـ «العسكر» لأنها انشئت في الأصل لتكون قاعدة للجيش التركي.

٢٦٩. بحار الانوار: ١٣ / ١٣٣.
٢٧٠. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٦.
٢٧١. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٥١.
٢٧٢. الحائر: تعبير عن كربلاء وقد عرفت بهذا الاسم بعد اقدام المتوكل على اغراق المنطقة بالمياه فلم تغمر المياه البقعة الطاهرة حيث هوى الحسين شهيداً.
٢٧٣. الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٢٥٤.
٢٧٤. المصدر السابق / ٢٥٠.
٢٧٥. الكافي: ٤ / ٥١٧.
٢٧٦. المصدر السابق: ٦ / ٥٣٢.
٢٧٧. «فوجّه المتوكل رجلاً من الشيعة يقال له نصر بن الازهر ليعرف صحة من في أيدي الروم من أسرى المسلمين، وذلك في شعبان من هذه السنة». الطبري: ٧ / ٣٧٦.
٢٧٨. وكانت «تيودورا» امبراطورة الروم قد ارتكبت بحق الأسرى المسلمين مذبحه كبرى راح ضحيتها ١٢/٠٠٠ مسلم. الطبري: ٧ / ٣٧٦.
٢٧٩. معجم البلدان: ٣ / ٧٥.
- 424 ٢٨٠. ديوان البحري: ٢ / ٣٩٧.
٢٨١. مشارق أنوار اليقين للحافظ رجب البرسي / ٩٩.
٢٨٢. سميت «قبيحة» لجمالها الفائق.. اما اسمها الحقيقي فمجهول في التاريخ - سامراء في المراجع الغربية / موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٦٠.
٢٨٣. معجم البلدان: ٣ / ١٧٥.

٢٨٤. الطبري: ٢٥٨ / ٧.
٢٨٥. تاريخ العباسيين لابن وادران / ٥٩٥، ابن شهر آشوب: ٧ / ٩١،
موسوعة العتبات المقدسة سامراء: ١٢ / ٢٥١.
٢٨٦. وفيات الاعيان: ٦ / ٣٩٥، تاريخ بغداد: ١٤ / ٢٧٣.
٢٨٧. حياة لامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٢٦ بالاستناد الى رجال
الطوسي.
٢٨٨. الطبري: ٧ / ٣٨٠.
٢٨٩. المصدر السابق: ٧ / ٣٨١.
٢٩٠. المصدر نفسه.
٢٩١. احداث التاريخ الاسلامي: ١ / ١٣٦٢.
٢٩٢. الكوميديا الارضية / ٧٧، نجيب محمود - دار الشروق.
٢٩٣. الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٣١١.
٢٩٤. أم المتوكل وهي جارية تركية.
٢٩٥. مآثر الكبراء: ٣ / ٢٢٧.
٢٩٦. تحف العقول / ٤٨٢.
٢٩٧. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٥٥ بالاستناد الى معاني
الاخبار.
٢٩٨. المصدر السابق / ١٥٣ بالاستناد الى أمالي المفيد.
٢٩٩. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٣.
- «وفد جماعة من أعلام الشيعة على الامام الهادي (عليه السلام) وهم أبو عمر
و عثمان بن سعيد، وأحمد بن اسحاق الأشعري، وعلي بن جعفر الحمداني،

فشكا إليه أحمد بن اسحاق ديناً عليه، فالتفت (عليه السلام) الى وكيله عمرو، وقال له: ادفع له ثلاثين ألف دينار، والى علي بن جعفر ثلاثين ألف دينار، كما أعطى وكيله مثل هذا المبلغ، وعلق ابن شهر آشوب على هذه المكرمة العلوية بقوله: «فهذه معجزة لا يقدر عليها إلا الملوك، وما سمعنا بمثل هذا العطاء» لقد وفر (عليه السلام) لهؤلاء الاعلام عيشاً رغيداً ينعمون به، ودفعت عنهم ضائقة الفقر، ومن الطبيعي ان خير العطاء ما أبقي نعمة. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٤٣ بالاستناد الى المناقب.

٣٠٠. آل عمران: الآية ٢٢.

٣٠١. الزمر: الآية ٨.

٣٠٢. الامام الهادي دراسة وتحليل / ٥١ بالاستناد الى الاحتجاج للطبري.

٣٠٣. كُسب الشاة: البعر الملتصق بصوف الشاة.

٣٠٤. الكافي: ١ / ٤٩٩.

٣٠٥. موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٦٤.

٣٠٦. نساء الخلفاء لابن الساعي / ٩٤.

٣٠٧. المصدر السابق.

٣٠٨. عشرة آلاف درهم.

٣٠٩. 426 حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٢٦٢ بالاستناد الى اصول

الكافي.

٣١٠. سيرة الائمة الاثني عشر: ٢ / ٥٥ هاشم معروف الحسيني - بالاستناد

الى رواية المفيد في الارشاد.

٣١١. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٣٧ بالاستناد الى الدر النظيم.

٣١٢. المصدر السابق.
٣١٣. المصدر نفسه.
٣١٤. سيرة الأئمة الاثني عشر: ٢ / ٤٥٥.
٣١٥. اثبات الوصية / ٢٢٨.
٣١٦. الطبري: ٧ / ٣٨٧.
٣١٧. يساوي الميل العربي : ٢ كم تقريباً.
٣١٨. موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٨٨
٣١٩. معجم البلدان: ٢ / ٨٦
٣٢٠. الطبري: ٧ / ٣٨٢ - ٣٨٣.
٣٢١. المصدر السابق: ٧ / ٣٩٢.
٣٢٢. باع الوزير الخاقاني ولاية الكوفة في يوم واحد على ١٩ والياً أخذ كل واحد منهم رشوة فهجاه أحد اشعراء المعاصرين له بقوله:
وزير لا يملّ من الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشا هادوا اليه فأحظى القوم أوفرهم بضاعة
حياة الامام دراسة وتحليل / ٢٨٧، عن الفخري / ١٩٨.
٣٢٣. الطبري: ٧ / ٣٨٥.
٣٢٤. المصدر السابق.
٣٢٥. كان للمتوكل ٤/١٠٠٠ جارية وقد قاربهن جميعاً. أخبار الدول / ١١٦، تاريخ الخلفاء / ٣٤٩.
٣٢٦. وقعت الحوادث في أواخر سنة ٢٤٥هـ شباط سنة ٨٦٠م.
٣٢٧. الجمهورية لافلاطون / ترجمة فؤاد زكريا / ٤٩٧.

٣٢٨. كان عمر بن فرج مسؤولاً عن صرف الصكوك التي تصدر عن البلاط كمرتبات لموظفي الدولة، ويبدو أن الحادثة وقعت سنة ٢٣١ بعد استياء الواثق من أخيه جعفر المتوكل.

٣٢٩. الطبري: ٧ / ٣٨٦.

٣٣٠. المصدر السابق.

٣٣١. تاريخ الخلفاء العباسيين.

٣٣٢. المصدر السابق.

٣٣٣. الطبري ٧ / ٣٨٦.

٣٣٤. يصادف محرّم الحرام من سنة ٢٤٦ هـ شهر نيسان سنة ٨٦٠ م.

٣٣٥. الامام الهادي من المهدي الى اللحد / ٥١.

٣٣٦. المصدر السابق.

٣٣٧. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ٣٠٢ بالاستناد الى شرح «شافية»

أبي فراس الحمداني: ٢ / ١٤٤.

٣٣٨. الطبري: ٧ / ٣٨٨.

٣٣٩. اثبات الوصية / ٢٤٠.

٣٤٠. موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٧٩.

428 ٣٤١. «وفي هذه السنة (٢٤٥هـ) أمر المتوكل ببناء الماخورة». ابن الاثير: ٧

٨٧ /

٣٤٢. معجم البلدان: ٢ / ١٤٣.

٣٤٣. ديوان البحري: ١ / ٤٠.

٣٤٤. الطبري: ٩ / ٢١٢.

٣٤٥. «وهو المنتصّر أول خليفة من بني العباس عرف قبره»
الطبري: ٤١٥ / ٧.

٣٤٦. سورة الفرقان: الآية ٢٨.

٣٤٧. تاريخ العباسيين / ٥٩٢.

٣٤٨. تزوج القائد بغا من خالة المتوكل. الطبري: ٣٩٢ / ٧.

٣٤٩. الطبري: ٣٨٨ / ٧.

٣٥٠. الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٤٩.

٣٥١. المصدر السابق / ٥٠.

٣٥٢. اصول الكافي: ١ / ٩٧.

٣٥٣. سورة الاعراف: الآية ٤٢.

٣٥٤. التوحيد / ١٠٤.

٣٥٥. من تلامذة الامام الصادق، وكان يقول بالتجسيم قبل تتلمذه على يد
الامام.

٣٥٦. التوحيد / ٩٧.

٣٥٧. كشف الغمة: ٣ / ١٧٦.

٣٥٨. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٠٣ بالاستناد الى الاحتجاج
للطبري.

٣٥٩. اثبات الوصية / ٢٤٠.

٣٦٠. المصدر السابق.

٣٦١. كان ابراهيم بن المهدي مغنياً، وكان المتوكل مؤثماً، وكان المعتر

مختثاً، عن رسالة الخوارزمي الى أهل نيسابور - حياة الامام الرضا: ٢ / ٢١٣.

٣٦٢. اعتقل دعبل الخزاعي في مدينة البصرة وتعرض للتعذيب الوحشي بسبب بعض قصائده الثورية، ثم أخلي سبيله ففر الى الاهواز ومنها الى «سوسة» حيث يوجد مرقد النبي دانيال (عليه السلام) وهناك اغتيل بعد صلاة العشاء بعكاز له زجّ مسموم وتوفي في الصباح، الاغاني: ١٨ / ٦٠، وفيات الاعيان: ١ / ١٨٠، تاريخ بغداد: ٨ / ٣٨٢، تاريخ الأدب العربي - عمر فروخ: ٢ / ٢٨٤.

٣٦٣. «لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي الله أدور على من يصليني عليها فما أجد من يفعل ذلك»، دعبل الخزاعي / الديوان.

٣٦٤. الطبري: ٧ / ٤٠٠.

٣٦٥. مقاتل الطالبين / ٣٩٦.

٣٦٦. الامام الهادي من المهدي الى اللحد / ٥٠ بالاستناد الى أمالي الشيخ

الطوسي.

٣٦٧. الطبري: ٧ / ٣٤٩.

٣٦٨. المصدر السابق والأجاجير: ما شوي من الطين.

٣٦٩. المصدر السابق.

٣٧٠. اثبات الوصية / ٢٤٠.

٣٧١. المصدر السابق. 430

٣٧٢. موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٦٠.

٣٧٣. المصدر السابق: ١٢ / ٢٦١.

٣٧٤. الطبري: ٧ / ٣٩٠ - ٣٩١.

٣٧٥. موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٦٤.

٣٧٦. الأغاني: ٢٢ / ٢٠٠.
٣٧٧. سورة الفرقان: الآيات ٦١ - ٦٤.
٣٧٨. مروج الذهب: ٤ / ١١.
٣٧٩. نزهة الجليس: ٢ / ١٣٧، تذكرة الخواص / ٣٦١، موسوعة العتبات المقدسة: ١٢ / ٢٧٠.
٣٨٠. الطبري: ٧ / ٣٩٠.
٣٨١. المصدر السابق: ٧ / ٣٩٦.
٣٨٢. المصدر نفسه.
٣٨٣. المصدر نفسه: ٧ / ٣٩٠.
٣٨٤. المصدر نفسه: ٧ / ٣٩١.
٣٨٥. «ركب يوم الفطر وقد ضرب له المصافّ أربعة أميال وترجّل له الناس». الطبري: ٧ / ٣٩٠. والميل العربي يساوي ٢ كم تقريباً.
٣٨٦. حياة الامام الهادي دراسة وتحليل / ١٥٦.
٣٨٧. إثبات الوصية / ٢٤٠.
٣٨٨. المصدر السابق.
٣٨٩. البحار: ١٢ / ١٣٤.
٣٩٠. الطبري: ٧ / ٣٩١.
٣٩١. المصدر السابق / ٣٩٢.
٣٩٢. غلام المتوكل (عيسى بن ابراهيم) النصراني، وقد تمكّن من الفرار في تلك الليلة من القصر بعد أن شعر بوجود خطة لاغتيال الخليفة.

٣٩٣. «وفي هذه السنة ٢٤٥هـ أمر المتوكل ببناء الماخورة» ابن الاثير: ٧ /

٨٧

٣٩٤. «أبو أحمد شقيق المؤيد».

٣٩٥. وهو نفس السيف الذي اشتراه الخليفة وكلفه مبالغ طائلة وسلّمه الى «باغر التركي» لحراسته شخصياً.

٣٩٦. الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٢٧٠ بالاستناد الى ثاقب المناقب.

٣٩٧. المصدر السابق.

٣٩٨. الطبري: ٧ / ٤٠٤.

٣٩٩. حياة الإمام الهادي دراسة وتحليل.

٤٠٠. سورة الحج / ٦٠.

٤٠١. سورة غافر / ٤٠.

٤٠٢. اسمه عبدالله بن رابية الطوري / الامام الهادي من المهد الى اللحد / ٥٠ بالاستناد الى أمالي الطوسي.

٤٠٣. رواية محمد بن الحسين الاشناني، مقاتل الطالبين / ٣٩٦.

٤٠٤. خان في بغداد. الطبري: ٧ / ٣٧٥.

432. ٤٠٥. تم اعدام عيسى بن جعفر صاحب الخانات في بغداد بأوامر شخصية

من المتوكل ورمي بجسده في دجلة. الطبري: ٧ / ٣٧٥.

٤٠٦. قام المنتصر فور تسنّمه الخلافة بعدة اجراءات اصلاحية في طليعتها

التخفيف من محنة العلويين اذا قام بما يلي:

أولاً: ممتلكات العلويين المجمدة.

ثانياً: فدك الى بني فاطمة.

ثالثاً: أمره ببناء مرقد الامام لحسين ودعوته الناس لزيارته وزيارة مرقد «الامام علي (عليه السلام)».

رابعاً: اقالة حاكم المدينة وتعيين حاكم جديد مع توصيات مؤكدة بمعاملة العلويين معاملة لائقة، راجع الطبري: ٧ / ٤٠٠ - ٤١٧.

ولكن مجرى الأحداث الذي يشير الى اغتياله بعد ستة اشهر من خلافته يؤكد أنه كان يواجه ضغوطاً شديدة من القادة الاتراك الذين كانوا يعملون لمصالحهم الخاصة، ولكنه كان يخطط فيما يبدو لانقاذ الخلافة من النفوذ التركي المتفاقم ولذا فكروا باغتياله.

وسوف نتناول الكثير من تفاصيل هذه الحقبة العاصفة من تاريخ الاسلام في الرواية القادمة: «الشمس وراء السحب».

ملحقات الرواية

تراثيل في زمن الذئاب



434



ملحق رقم (١)

رسالة الامام الهادي في: "الجبر والتفويض"

«من علي بن محمد..»

سلام عليكم، وعلى من اتبع الهدى، ورحمة الله وبركاته.
فإنه وَرَدَ عليّ كتابكم، وفهمتُ ما ذكرتم من اختلافكم في دينكم،
وخوضكم في القدر، ومقالة من يقول منكم بالجبر، ومن يقول التفويض،
وتفرّقكم في ذلك، وتقاطعكم، وما ظهر من العداوة بينكم، ثم سألتموني
عنه، وبيانه لكم، وفهمت ذلك كله!

إعلموا - رحمكم الله - أنا نظرنا في الآثار، وكثرة ما جاءت به الأخبار،
فوجدناها - عند جميع من ينتحل الإسلام ممن يعقل عن الله (عزّ وجلّ) - لا
تخلو من معنيين:

إمّا حقّ فيتبع.

وإمّا باطل فيجتنب.

وقد اجتمعت الأمة قاطبة، لا اختلاف بينهم: أن القرآن حق لا ريب فيه
عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مقرون بتصديق الكتاب
وتحقيقه، مصيبون، مهتدون، وذلك بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله
وسلم): «لا تجتمع أمتي على ضلالة».

فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلها حقّ.

وهذا إذا لم يخالف بعضها [الأمة] بعضاً.

والقرآن حق، لا اختلاف بينهم في تنزيهه وتصديقه، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه، وأنكر الخبر طائفة من الأمة الكتاب، فإن [هي] جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملة [الإسلام].

فأول خبر - يُعرف تحقيقه من الكتاب وتصديقه، والتماس شهادته - خبر ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووجد بموافقة الكتاب وتصديقه، بحيث لا تخالفه أقاويلهم؛ حيث قال: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي - أهل بيتي - لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما، وإنهما لن يفترقا حتى يرده عليّ الحوض».

فلما وجدنا شواهد هذا الحديث في كتاب الله نصاً مثل قوله (جل وعز): (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)^(١) وروى العامة في ذلك أخباراً لأمر المؤمنين (عليه السلام) أنه تصدق بخاتمه وهو راعع، فشكر الله ذلك له، وأنزل الآية فيه.

فوجدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أتى بقوله: «من كنت مولاه فعليُّ مولاه» وبقوله: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيُّ بعدي» ووجدناه يقول: «عليُّ يقضي ديني، وينجز موعدي، وهو خليفتي عليكم من بعدي».

فالخبر الأول الذي استنبطت منه هذه الأخبار خبر صحيح، مجمع عليه، لا اختلاف فيه عندهم، وهو أيضاً موافق للكتاب.

(١) سورة المائدة؛ الآيات: ٥٥ - ٥٦.

فلما شهد الكتاب بتصديق الخبر، وهذه الشواهد الأخر لزم على الأمة الإقرار بها، ضرورة إذ كانت هذه الأخبار شواهدا من القرآن ناطقة، ووافقت القرآن، والقرآن وافقها.

ثم وردت حقائق الأخبار من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الصادقين (عليهم السلام) ونقلها قوم ثقات معروفون، فصار الإقتداء بهذه الأخبار فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة، لا يتعداه إلا أهل العناد. وذلك: إن أقوال آل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) متصلة بقول الله، وذلك مثل قوله - في محكم كتابه - : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ له عذاباً مهيناً)^(١).

ووجدنا نظير هذه الآية قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من آذى عليّاً فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن ينتقم منه».

وكذلك قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من أحبّ عليّاً فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله» ومثل قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) - في بني وليعة - «لأبعثنّ إليهم رجلاً كنفسي، يحب الله ورسوله، ويحبّ الله ورسوله، قم يا علي، فسر إليهم».

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) - يوم خيبر - : «لأبعثنّ إليهم غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتى يفتح الله عليه».

(١) سورة الأحزاب؛ الآية: ٥٧.

فقضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالفتح قبل التوجيه، فاستشرف لكلامه أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما كان من الغد دعا علياً (عليه السلام) فبعثه إليهم، فاصطفاه بهذه المنقبة، وسمّاه كرّاراً غير فرّار، فسمّاه الله محباً لله ولرسوله، فأخبر أن الله ورسوله يحبّانه.

وإنما قدّمنا هذا الشرح والبيان دليلاً على ما أردنا، وقوّة لما نحن ميّنونه من أمر الجبر والتفويض، والمنزلة بين المنزلتين، وبالله العون والقوة، وعليه نتوكل في جميع أمورنا.

فإننا نبدأ من ذلك بقول الصادق (عليه السلام): «لا جبر ولا تفويض، ولكن منزلة بين المنزلتين، وهي صحة الخلقة، وتخلية السّرّب^(١) والمهلة في الوقت، والزاد مثل الراحلة، والسبب المهيج للفاعل على فعله».

فهذه خمسة أشياء جمع بها الصادق (عليه السلام) جوامع الفضل، فإذا نقص العبد منها خلّة كان العمل عنه مطروحاً بحسبه.

فأخبر الصادق (عليه السلام) بأصل ما يجب على الناس من طلب معرفته، ونطق الكتاب بتصديقه، فشهد بذلك محكمات آيات رسوله - لأن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - لا يعدو شيء من قوله وأقاولهم

438 حدود القرآن، فإذا وردت حقائق الأخبار والتّمست شواهدا من التنزيل،

فوجد لها موافقاً، وعليها دليلاً كان الإقتداء بها فرضاً، لا يتعداه إلا أهل العناد كما ذكرنا في أول الكتاب.

(١) السرب - بفتح السين - الطريق.

ولما التمسنا تحقيق ما قاله الصادق (عليه السلام) من المنزلة بين المنزلتين وإنكاره الجبر والتفويض، وجدنا الكتاب قد شهد وصدق مقالته في هذا.

وخبرٌ عنه أيضاً موافق لهذا: إن الصادق (عليه السلام) سُئِلَ: هل أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال الصادق (عليه السلام): «هو أعدل من ذلك». فقيل له: فهل فوّض إليهم؟ فقال (عليه السلام): «هو أعزّ وأقهر لهم من ذلك».

وروي عنه أنه قال: «الناس في القدر على ثلاثة أوجه:

رجل يزعم أن الأمر مفوّض إليه فقد وهن الله في سلطانه، فهو هالك. ورجلٌ يزعم أن الله (جلّ وعزّ) أجبر العباد على المعاصي، وكلفهم ما لا يطيقون، فقد ظلم الله في حكمه، فهو هالك.

ورجل يزعم إن الله كلف العباد ما يطيقون، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله، فهذا مسلم بالغ».

فأخبر (عليه السلام) أن من تقلد الجبر والتفويض، ودان بهما فهو على خلاف الحق، فقد شرحتُ الجبر الذي من دان به يلزمه الخطأ، وأن يتقلد التفويض يلزمه الباطل، فصارت المنزلة بين المنزلتين بينهما.

439

ثم قال (عليه السلام): وأضرب لكل باب من هذه الأبواب مثلاً يقرب المعنى للطالب، ويُسهّل له البحث عن شرحه، تشهد به محكمات آيات الكتاب، وتحقق تصديقه عند ذوي الألباب، وبالله التوفيق والعصمة. فأما الجبر الذي يُلزم من دان به الخطأ فهو قول من زعم أن الله (جلّ وعزّ) أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها.

وَمَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ فَقَدْ ظَلَمَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَكَذَّبَهُ وَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وَقَوْلَهُ: (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) وَقَوْلَهُ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) مَعَ آيٍ كَثِيرَةٍ فِي ذِكْرِ هَذَا.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُجْبِرٌ عَلَى الْمَعَاصِي فَقَدْ أَحَالَ بِذَنْبِهِ عَلَى اللَّهِ، وَقَدْ ظَلَمَهُ فِي عُقُوبَتِهِ وَمَنْ ظَلَمَ اللَّهَ فَقَدْ كَذَّبَ كِتَابَهُ، وَمَنْ كَذَّبَ كِتَابَهُ فَقَدْ لَزِمَهُ الْكُفْرَ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ.

وَمِثْلُ ذَلِكَ: مِثْلُ رَجُلٍ مَلَكَ عَبْدًا مَمْلُوكًا بِمِلْكِ نَفْسِهِ، وَلَا يَمْلِكُ عَرْضًا مِنْ عَرْضِ الدُّنْيَا، وَيَعْلَمُ مَوْلَاهُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَأَمَرَهُ - عَلَى عِلْمِ مَنْهُ - بِالْمَصِيرِ إِلَى السُّوقِ لِحَاجَةِ يَأْتِيهِ بِهَا، وَلَمْ يُمَلِّكْهُ ثَمَنَ مَا يَأْتِيهِ بِهِ مِنْ حَاجَتِهِ، وَعَلَّمَ الْمَالِكَ أَنَّ عَلَى الْحَاجَةِ رَقِيبًا لَا يَطْمَعُ أَحَدًا أَخْذَهَا مِنْهُ إِلَّا بِمَا يَرْضَى بِهِ مِنَ الثَّمَنِ، وَقَدْ وَصَفَ مَالِكٌ هَذَا الْعَبْدَ نَفْسَهُ بِالْعَدْلِ وَالنِّصْفَةِ، وَإِظْهَارِ الْحِكْمَةِ، وَنَفْيِ الْجَوْرِ، وَأَوْعَدَ عَبْدَهُ إِنْ لَمْ يَأْتِهِ بِحَاجَتِهِ أَنْ يِعَاقِبَهُ (عَلَى عِلْمِ مَنْهُ بِالرَّقِيبِ الَّذِي عَلَى حَاجَتِهِ أَنَّهُ سَيَمْنَعُهُ) وَعَلَّمَ أَنَّ الْمَمْلُوكَ لَا يَمْلِكُ ثَمَنَهَا، وَلَمْ يُمَلِّكْهُ ذَلِكَ.

فَلَمَّا صَارَ الْعَبْدُ إِلَى السُّوقِ، وَجَاءَ لِيَأْخُذَ حَاجَتَهُ الَّتِي بَعَثَهُ الْمَوْلَى لَهَا، وَجَدَ عَلَيْهَا مَانِعًا يَمْنَعُ مِنْهُ إِلَّا بِشَرَاءٍ وَلَيْسَ يَمْلِكُ الْعَبْدُ ثَمَنَهَا فَأَنْصَرَفَ إِلَى مَوْلَاهُ خَائِبًا بِغَيْرِ قِضَاءِ حَاجَتِهِ، فَاعْتَاطَ مَوْلَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَعَاقِبَهُ عَلَيْهِ.

أَلَيْسَ يَجِبُ - فِي عَدْلِهِ وَحُكْمِهِ - أَنْ لَا يِعَاقِبَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَبْدَهُ لَا يَمْلِكُ عَرْضًا مِنْ عُرُوضِ الدُّنْيَا، وَلَمْ يُمَلِّكْهُ ثَمَنَ حَاجَتِهِ؟

فإن عاقبه، عاقبه ظالماً متعدياً عليه، مُبطلاً لما وَصَفَ من عدله وحكمته، ونصفته، وإن لم يعاقبه كذَّب نفسه - في وعيده إيّاه، حين وعده - بالكذب والظلم والذين ينفيان العدل والحكمة، تعالى عما يقولون علواً كبيراً. فَمَنْ دَانَ بالجبر، أو بما يدعو إلى الجبر فقد ظلم الله ونَسَبَهُ إلى الجور والعدوان إذ أوجب على من أجبره العقوبة، ومن زعم أن الله أجبر العباد فقد أوجب - على قياس قوله - ان الله يدفع عنهم العقوبة، ومن زعم أن الله يدفع. عن أهل المعاصي - العذاب فقد كذَّب الله في وعيده حيث يقول: (بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

وقوله: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) وقوله: (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلَّما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً). مع آي كثير في هذا الفن مَمَّنْ كَذَّبَ وعيد الله، ويلزمه - في تكذيبه آية من كتاب الله - الكفر.

وهو مَمَّنْ قال الله: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشدَّ العذاب، وما الله بغافل عما يعملون).

بل نقول: إن الله (جلَّ وعزَّ) يجازي العباد على أعمالهم، ويعاقبهم على أفعالهم بالإستطاعة التي ملَّكهم إيَّاه، فأمرهم ونهاهم بذلك، ونَطَقَ كتابه: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا

مثلها وهم لا يُظلمون) وقال (جلّ ذكره): (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه) وقال: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم).

فهذه آيات محكمات تنفي الجبر ومنّ دانّ به، ومثلها في القرآن كثير اختصرنا ذلك لثلاث بطول الكتاب، وبالله التوفيق.

وإلى هذا ذهب الأئمة المهتدية من عترة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنهم قالوا:

لو فوّض [الله] إليهم على جهة الإهمال لكان لازماً له رضى ما اختاروه، واستوجبوا منه الثواب، ولم يكن عليهم فيما جنّوه العقاب، إذا كان الإهمال واقعاً.

وتنصرف هذه المقالة على معنيين:

١ - إمّا أن يكون العباد تظاهروا عليه، فألزموه قبول اختيارهم بأرائهم ضرورة كرهة ذلك أم أحبّ، فقد لزمه الوهن.

٢ - أو يكون - جلّ وعزّ - عجز عن تعبّدهم بالأمر والنهي على إرادته، كرهوا أو أحبّوا، ففوّض أمره ونهيه إليهم، وأجراهما على محبّتهم، إذ عجز عن تعبّدهم بإرادته، فجعل الإختيار إليهم في الكفر والإيمان.

ومثل ذلك: مثل رجل ملك عبداً ابتاعه ليخدمه، ويعرف له فضل ولايته، ويقف عنده أمره ونهيه، وادّعى مالك العبد أنه قاهر عزيز حكيم، فأمر عبده

ونهاه، وَوَعَدَهُ عَلَى اتِّبَاعِ أَمْرِهِ عَظِيمِ الثَّوَابِ، وَأَوْعَدَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ أَلِيمِ الْعِقَابِ.

فَخَالَفَ الْعَبْدَ إِرَادَةَ مَالِكِهِ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَأَيُّ أَمْرٍ أَمْرَهُ أَوْ أَيُّ نَهْيٍ نَهْيَهُ لَمْ يَأْتِهِ عَلَى إِرَادَةِ الْمَوْلَى، بَلْ كَانَ الْعَبْدُ يَتَّبِعُ إِرَادَةَ نَفْسِهِ، وَاتِّبَاعَ هَوَاهُ، وَلَا يُطِيقُ الْمَوْلَى أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى اتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَالْوَقُوفَ عَلَى إِرَادَتِهِ.

فَفَوْضَ اخْتِيَارَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ إِلَيْهِ، وَرَضِيَ مِنْهُ بِكُلِّ مَا فَعَلَهُ عَلَى إِرَادَةِ الْعَبْدِ لَا عَلَى إِرَادَةِ الْمَالِكِ.

وَبَعَثَهُ فِي بَعْضِ حَوَائِجِهِ، وَسَمَّى لَهُ الْحَاجَةَ، فَخَالَفَ عَلَى مَوْلَاهُ، وَقَصِدَ لِإِرَادَةِ نَفْسِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَلَمَّا رَجَعَ [الْعَبْدُ] إِلَى مَوْلَاهُ نَظَرَ إِلَى مَا أَتَاهُ بِهِ فَإِذَا هُوَ عَلَى خِلَافِ مَا أَمَرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ أَتَيْتَنِي بِخِلَافِ مَا أَمَرْتُكَ؟

فَقَالَ الْعَبْدُ: أَتَكَلَّمْتُ عَلَى تَفْوِضِكَ الْأَمْرِ إِلَيَّ، فَاتَّبَعْتُ هَوَايَ وَإِرَادَتِي لِأَنَّ الْمَفُوضَ إِلَيْهِ غَيْرُ مَحْظُورٍ عَلَيْهِ فَاسْتَحَالَ التَّفْوِيزُ.

أَوْ لَيْسَ يَجِبُ عَلَى هَذَا السَّبَبِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَالِكُ لِلْعَبْدِ قَادِرًا، يَأْمُرُ عَبْدَهُ بِاتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَى إِرَادَتِهِ، لَا عَلَى إِرَادَةِ الْعَبْدِ، وَيُمَلِّكُهُ مِنَ الطَّاقَةِ بِقَدْرِ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ؟

443 فَإِذَا أَمَرَهُ بِأَمْرٍ، وَنَهَاهُ عَنِ نَهْيٍ عَرَفَهُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ عَلَيْهِمَا، وَحَذَّرَهُ، وَرَعَّبَهُ، بِصِفَةِ ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، لِيَعْرِفَ الْعَبْدُ قُدْرَةَ مَوْلَاهُ بِمَا مَلَكَهُ مِنَ الطَّاقَةِ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَتَرْغِيْبِهِ وَتَرْهِيْبِهِ، فَيَكُونُ عَدْلُهُ وَإِنْصَافُهُ شَامِلًا لَهُ، وَحُجَّةٌ وَاضِحَةٌ عَلَيْهِ لِلإِعْذَارِ وَالإِنذَارِ.

فَإِذَا اتَّبَعَ الْعَبْدُ أَمْرَ مَوْلَاهُ جَازَاهُ، وَإِنْ لَمْ يَزِدْجِرْ عَنِ نَهْيِهِ عَاقَبَهُ.

أو يكون عاجزاً، غير قادر، ففوّض أمره إليه، أحسنَ أم أساءَ، أطاع أم عصى، عاجز عن عقوبته وردّه إلى اتباع أمره.

وفي إثبات العجز نفى القدرة والتأله، وإبطال الأمر والنهي، والثواب والعقاب ومخالفة الكتاب، إذ يقول: (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم) وقوله عزّ وجلّ: (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون) وقوله: (وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون) وقوله: (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) وقوله: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون).

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوَضَّ أَمْرَهُ وَنَهَيْهِ إِلَى عِبَادِهِ فَقَدْ أَثْبَتَ عَلَيْهِ الْعِجْزَ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِ قَبُولَ كُلِّ مَا عَمَلُوا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَأَبْطَلَ أَمْرَ اللَّهِ وَنَهْيَهُ، وَوَعَدَهُ وَوَعِيدَهُ، لَعَلَّةَ مَا زَعَمَ أَنْ، اللَّهُ فَوَضَّهَا إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْمَفُوضَّ إِلَيْهِ يَعْمَلُ بِمَشِيئَتِهِ، فَإِنْ شَاءَ الْكُفْرَ أَوْ الْإِيمَانَ كَانَ غَيْرَ مُرَدُّودٍ عَلَيْهِ وَلَا مُحْظُورٍ.

فَمَنْ دَانَ بِالتَّفْوِيزِ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فَقَدْ أَبْطَلَ جَمِيعَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ: (أَفْتَوَمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

تعالى عما يدين به أهل التفويض عُلوّاً كبيراً.

لكن نقول: إن الله خَلَقَ الخلق بقدرته، ومَلَكهم استطاعة تعبدهم بها فأمرهم ونهاهم بما أراد، فَقبلَ منهم اتِّباع أمره، ورضي بذلك لهم، ونهاهم عن معصيته، وذمَّ من عصاه، وعاقبه عليها، والله الخيرة في الأمر والنهي، يختار ما يريد ويأمر به، وينهى عما يكره ويُعاقب عليه، بالإستطاعة التي مَلَكها عباده لاتباع أمره، واجتناب معاصيه، لأنَّه ظاهر العدل والنصفة والحكمة البالغة، بالغ الحجة بالإعذار والإنذار، وإليه الصفوة، يصطفي من عباده من يشاء لتبليغ رسالته، واحتجاجه على عباده.

اصطفى محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعثه برسالاته إلى خلقه، فقال - مَنْ قال من كُفار قومه حسداً واستكباراً - (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعني بذلك أمية بن أبي الصلت، وأبا مسعود الثقفي.

فأبطل الله اختيارهم، ولم يُجز لهم آراءهم حيث يقول: (أهم يقسمون رحمة ربك، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ورحمة ربك خير مما يجمعون).

ولذلك اختار من الأمور ما أحبَّ، ونهى عما كره، فمن اطاعه اثابه، ومن عصاه عاقبه، ولو فوّض اختيار امره إلى عباده لأجاز لقريش اختيار أمية بن أبي الصلت وأبي مسعود الثقفي، إذ كانا عندهم أفضل من محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

فلما أَدَّبَ اللهُ المؤمنين بقوله: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللهُ ورسوله أمراً أن يكون لهما خيرة من أمرهم) فلم يُجَزَّ لهم الإختيار بأهوائهم، ولم يقبل منهم إلاّ اتباع أمره، واجتناب نهيه على يَدَي مَن اصطفاه، فَمَن أطاعه رَشَدَ، ومن عصاه ضلَّ وغوى، وكَرَمَتَه الحِجَّة بما مَلَكَه من الاستطاعة لِإِتِّباع أمره، واجتناب نهيه فمن أجل ذلك حَرَمَه ثوابه، وأنزل به عقابه.

وهذا (القول بين القولين) ليس بجبر ولا تفويض، وبذلك أخبر أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) «عباية بن ربعي الأسدي»، حين سأله عن الإستطاعة التي بها يقوم ويقعد، ويفعل، فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): سألت عن الإستطاعة، تملكها من دون الله أو مع الله؟ فسكت عباية فقال له أمير المؤمنين:

قل يا عباية. قال: وما أقول؟ قال (عليه السلام) إن قلت أنك تملكها من الله قتلتك، وإن قلت: تملكها دون الله قتلتك!!

قال عباية: فما أقول يا أمير المؤمنين؟

قال: تقول: إنك تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن يملكها إياك كان ذلك من عطائه، وإن يسلبكها كان ذلك من بلائه، هو المالك، لما مَلَكَ، والقادر على ما عليه أقدرك، أما سمعت الناس يسألون الحول والقوّة حين يقولون: لا حول ولا قوة إلاّ بالله؟

قال عباية: وما تأويلها يا أمير المؤمنين؟

قال (عليه السلام): لا حول عن معاصي الله إلاّ بعصمة الله، ولا قوّة لنا على طاعة الله إلاّ بَعون الله.

قال: فَوَتَّبَ عباية، فَقَبَّلَ يديه ورجليه.

وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حين أتاه «نجدة» يسأله عن معرفة الله؟ قال: يا أمير المؤمنين بماذا عرفت ربك؟ قال (عليه السلام): بالتمييز الذي خَوَّكُنِي، والعقل الذي دَلَّنِي. قال: أَفَمَجْبُولٌ أَنْتَ عليه؟ قال: لو كنت مجبولاً ما كنت محموداً على إحسان، ولا مذموماً على إساءة، وكان المحسن أولى باللائمة من المسيء، فعلمت أن الله قائم، باق، وما دونه حدث حائل زائل، وليس القديم الباقي كالحدث الزائل.

قال (نجدة) أجدك أصبحت حكيماً يا أمير المؤمنين.

قال: أصبحت مُخَيَّرًا، فإن أتيت السيئة [ب]مكان الحسنه فأنا المعاقب عليها.

وروي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال - لرجل بعد أنصرافه من الشام فقال [الرجل]: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام بقضاء وقدر؟

قال (عليه السلام): نعم، يا شيخ؛ ما عَلَوْتُمْ تلعَةً، ولا هبطتم وادياً إلاً بقضاء وقدر من الله.

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين.

447

فقال (عليه السلام): مه يا شيخ، فإن الله قد عَظَّمَ أجركم في مسيركم وأنتم سائرون وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي انصرافكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من أموركم مكرهين ولا إليه مضطرين، لعلك ظننت أنه قضاء حتم، وَقَدَرٌ لازم؟

لو كان ذلك لَبَطَلَ الثواب والعقاب، وَلَسَقَطَ الوعدُ والوعيد، ولما أَلزَمَتِ الأشياءُ أهلها على الحقائق، ذلك مقالة عِبْدَةِ الأوثان، وأولياء الشيطان.
 إِنَّ اللهَ أَمَرَ تَخْيِيرًا، ونهى تَحْذِيرًا، ولم يُطْعَ مُكْرَهًا، ولم يُعْصَ مَغْلُوبًا ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظنُّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار.

فقام الشيخ فقيل رأس أمير المؤمنين (عليه السلام) وأنشأ يقول:

| | |
|----------------------------------|-------------------------------|
| أنت الإمام الذي نرجوا بطاعته | يوم النجاة من الرحمن عُفْرانا |
| أوضحت من ديننا ما كان مُلتَبَسًا | جزاك ربُّك عَنَّا فيه رضوانا |
| فليس معذرة في فعل فاحشة | قد كنت راكبها ظلماً وعدواناً |

فقد دلَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) على موافقة الكتاب، ونفي الجبر والتفويض اللذين يُلزمان - مَنْ دانَ بهما وتقلدَهما - الباطل والكفر، وتكذيب الكتاب، ونعوذ بالله من الضلالة والكفر.

ولسنا ندين بِجِبْرِ ولا تَفْوِيضٍ، ولكنَّا نقول بمنزلة بين المنزلتين، وهو الإمتحان والاختبار بالاستطاعة التي ملَّكنا الله، وتعبدنا بها، على ما شهد به الكتاب، ودان به الأئمة الأبرار من آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).
 ومثُلُ الإختبار بالاستطاعة مثُلُ رجلٍ مَلَّكَ عبداً، ومملك مالاً كثيراً، أحبُّ أن يختبره عبده على علم منه بما يؤول إليه.

فَمَلَّكَه من ماله بعض ما أحبَّ، ووقفه على أمور عرَّفها العبد، فأمره أن يصرف ذلك المال فيها، ونهاه عن أسباب لم يحبَّها، وتقدَّم إليه أن يجتنبها، ولا ينفق من ماله فيها والمال يتصرف في أيِّ الوجهين.

فَصَرَفَ المال: أحدهما في اتِّبَاعِ أمر المولى ورضاه، والآخر صرفه في اتِّبَاعِ نهيهِ وسخطه؛ وأسكنه دار اختبار، أَعَلَّمَهُ أنها غير دائم له السُّكْنَى في الدار، وإنَّ له داراً غيرها، وهو مُخْرِجُهُ إليها، فيها ثواب وعقاب دائمان. فإن أنفذ العبد المال الذي ملكه مولاه في الوجه الذي أَمَرَهُ بها جعل له ذلك الثواب الدائم في تلك الدار التي أَعَلَّمَهُ أنه مُخْرِجُهُ إليها. وإن أنفق المال في الوجه الذي نهاه عن إنفاقه فيه جعل له ذلك العقاب الدائم في دار الخلود.

وقد حَدَّ المولى في ذلك حَدًّا معروفاً، وهو المسكن الذي اسكنه في الدار الأولى فإذا بلغ الحدَّ استبدل بالمال وبالعبد، على أنه لم يزل مالِكاً للمال والعبد في الأوقات كلها، إلاَّ أنه [المولى] وَعَدَ أن لا يسلبه ذلك المال ما كان في تلك الدار الأولى، إلى أن يستتم سكناه فيها! فوفى له، لأنَّ من صفات المولى: العدل والوفاء والنصفة والحكمة.

أو ليس يجب إن كان ذلك العبد صَرَفَ من ذلك المال في الوجه المأمور به أن يفي له بما وَعَدَهُ من الثواب؟ وتفضَّلَ عليه بأن استعمله في دار فانية، وأثابه على طاعته فيها نعيماً دائماً في دار باقية دائمة؟

وإن صَرَفَ العبد المال - الذي ملكه مولاه أيام سَكَنَاهُ تلك الدار الأولى - في الوجه المنهي عنه، وخالف أمر مولاه، كذلك تجب عليه العقوبة الدائمة التي حدَّره إياها غير ظالم له، لما تقدَّم إليه، وأَعَلَّمَهُ وَعَرَّفَهُ، وأوجب له الوفاء بوَعْدِهِ ووَعِيدِهِ.

بذلك يوصَفُ القادر القاهر.

وأما المولى: هو الله.

وأما العبد: فهو ابن آدم المخلوق.

والمال: قدرة الله الواسعة.

ومحتته: إظهاره الحكمة والقدرة.

والدار الفانية: هي الدنيا.

وبعض المال الذي ملكه مولاه: هو الاستطاعة التي ملك ابن آدم.

والأمور التي أمر الله بصرف المال إليها: هو الاستطاعة لاتباع

الأنبياء، والإقرار بما أوردوه عن الله واجتناب الأسباب التي نهى عنها: هي

طُرق إبليس. وأما وعده: فالنعيم الدائم، وهي الجنة.

وأما الدار الفانية: فهي الدنيا.

وأما الدار الأخرى: فهي الدار الباقية، وهي الآخرة.

والقول: بين الجبر والتفويض هي الإختيار والامتحان، والبلوى

بالإستطاعة التي ملك العبد.

وشرحها في الخمسة الأمثال التي ذكرها الصادق (عليه السلام) أنها

جمعت جوامع الفضل، وأنا مُفسِّرها بشواهد من القرآن والبيان إن شاء الله.

تفسير صحة الخلق

أما قول الصادق (عليه السلام) فإن معناه كمال الخلق للإنسان، وكمال الحواس، وثبات العقل والتمييز، وإطلاق اللسان بالنطق، وذلك قول الله: (ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر. ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً).

فقد أخبر (عزّ وجل) عن تفضيله بني آدم على سائر خلقه - من البهائم والسباع ودوابّ البحر، والطير، وكل ذي حركة تدركه حواسّ بني آدم - بتميز العقل والنطق.

وذلك قوله: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقوله: (يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدّلك، في أي صورة ما شاء ركبك) في آيات كثيرة.

فأولّ نعمة الله على الإنسان صحّة عقله، وتفضيله - على كثير من خلقه - بكمال العقل وتمييز البيان، وذلك أن كل ذي حركة على بسيط الأرض هو قائم بنفسه، بحواسّه، مستكمل في ذاته، ففضّل بني آدم بالنطق الذي ليس في غيره من الخلق المدرك بالحواس.

فمن أجل النطق ملّك الله ابن آدم غيره من الخلق، حتى صار أمراً ناهياً، وغيره مسخّر له، كما قال الله: (كذلك سخّرنا لكم لتكبروا الله على ما هداكم) وقال: (وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) وقال: (والأنعام خلقها لكم فيها دفاءً

ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس). فمن أجل ذلك دعا الله الإنسان إلى إتباع أمره، وإلى طاعته بتفضيله إياه باستواء الخلق، وكمال النطق، والمعرفة بعد أن ملَّكهم استطاعة ما كان تعبدهم به، بقوله: (فاتَّقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا) وقوله: (لا يكلف الله نفساً إلاَّ وُسْعها) وقوله: (لا يكلف الله نفساً إلاَّ ما آتاها) وفي آيات كثيرة.

فإذا سلب من العبد حاسَّة من حواسِّه رُفِع العمل عنه بحاسِّته، كقوله: (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج) الآية، فقد رُفِع عن كلِّ من كان بهذه الصفة: الجهاد، وجميع الأعمال التي لا يقوم بها. وكذلك أوجب على ذي اليسار [المستطيع] الحج، والزكاة لما ملَّكه من استطاعة ذلك، ولم يوجب على الفقير الزكاة والحج؛ قوله: (ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً) وقوله - في الظهار - (والذين يُظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة - إلى قوله - فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً).

كل ذلك دليل على أن الله - تبارك وتعالى - لم يكلف عباده إلاَّ ما ملَّكهم استطاعته بقوة العمل به، ونهاهم عن مثل ذلك، فهذه صحة الخلقة. وأما قوله: (تخلية السرب) فهو الذي ليس عليه رقيب يحظر عليه، ويمنعه العمل بما أمره الله به، وذلك قوله - فيمن استضعف، وحُظِر عليه العمل، فلم يجد حيلة، ولا يهتدي سبيلاً - كمال قال الله تعالى: (إلاَّ المستضعفين من

الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً) فأخبر أن المستضعف لم يُخَلَّ سربه، وليس عليه من القول شيء، إذا كان مطمئن القلب بالإيمان.

وأما (المهلة في الوقت) فهو العمل الذي يمتنع الإنسان من حدّ ما تجب عليه المعرفة إلى أجل الوقت، وذلك من وقت تمييزه وبلوغ الحُلم، إلى أن يأتيه أجله.

فمن مات على طلب الحق ولم يدرك كماله فهو على خير، وذلك قوله: (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وإن كان لم يعمل بكمال شرائعه لعلّة ما لم يمهل في الوقت إلى استتمام أمره.

وقد حظر على البالغ ما لم يحظر على الطفل إذا لم يبلغ الحُلم في قوله: (قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهرَ منها وليضربن بخمرهنّ على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن - إلى قوله - أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) الآية.. فلم يجعل عليهن حرجاً في إبداء الزينة للطفل وكذلك لا تجري عليه الاحكام.

وأما قوله: (الزاد) فمعناه الجدة: والبلغة التي يستعين بها العبد على ما أمره الله به، وذلك قوله: (ما على المحسنين من سبيل) ألا ترى أنه قبل عذر من لم يجد ما ينفق، وألزم الحجة كل من أمكنته البلغة والراحة للحجة والجهاد، وأشبه ذلك؟

وكذلك قَبَلَ عذر الفقراء، وأوجب لهم حقاً في مال الأغنياء بقوله:
 (للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض،
 يحسبهم الجاهل أغنياء من التعقّف، تعرفهم بسيماهم، لا يسألون
 الناس إحفاً، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليهم) فأمر بإعفائهم، ولم
 يكلفهم الإعداد لما لا يستطيعون ولا يملكون.

وأما قوله: «في السبب المهيّج» فهو النيّة التي هي داعية الإنسان إلى
 جميع الأفعال وحاسّتها: القلب، فمن فَعَلَ فعلاً، وكان بدين لم يعقد قلبه
 على ذلك لم يقبل الله منه عملاً إلاّ بصدق النيّة، ولذلك أخبر عن المنافقين
 بقوله: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون).

ثم أنزل [الله] على نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم) توبيخاً للمؤمنين: (يا
 أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا
 ما لا تفعلون).

فإذا قال الرجل قولاً: واعتقد في قوله، دعته النيّة الى تصديق القول
 بإظهار الفعل، وإذا لم يعتقد القول لم تتبيّن حقيقته.

وقد أجاز الله صدق النيّة وإن كان الفعل غير موافق لها، لعلّة مانع يمنع
 إظهار الفعل في قوله (إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وقوله: (لا
 يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم).

فَدَلَّ القرآن وأخبار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ القلب مالك
 لجميع الحواس يُصَحِّح أفعالها، ولا يُبطل ما يصحّح القلبُ شيء.

فهذا شرح جميع الخمسة الأمثال التي ذكرها الصادق (عليه السلام) أنها تجمع المنزلة بين المنزلتين، وهما الجبر والتفويض.

فإذا اجتمع في الإنسان كمال هذه الخمسة الأمثال وَجَبَ عليه العمل كَمَلاً لما أمر الله (عزَّ وجل) به ورسوله، وإذا نقص العبد منها خَلَّةً كان العمل عنه مطروحاً بحسب ذلك.

فأما شواهد القرآن على الإختيار والبلوى، والاستطاعة التي تجمع القول بين القولين فكثيرة، ومن ذلك: قوله: (ولنبلوئكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) وقال (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال: (ألم احسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يُفتنون).

وقال - في الفتن التي معناها الإختبار: (ولقد فتنا سليمان) الآية وقال في قصة موسى (عليه السلام): (فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) وقول موسى: (إن هي إلا فتنتك) أي اختبارك. فهذه الآيات يقاس بعضها ببعض، ويشهد بعضها لبعض.

وأما آيات البلوى بمعنى الإختبار: قوله: (ليبلوكم فيما آتاكم) وقوله: (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) وقوله: (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) وقوله: (خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) وقوله: (وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات) وقوله: (ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض).

وكلُّما في القرآن من بلوى هذه الآيات التي شُرح أولها فهي اختبار،
وأمثالها في القرآن كثيرة، فهي إثبات الإختبار والبلوى.

إن الله (جلّ وعزّ) لم يخلق الخلق عبثاً، ولا أهملهم سُدى، ولا أظهر
حكمته لعباً وبذلك أخبر في قوله: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً).

فإن قال قائل فلم يعلم ما يكون من العباد حتى اختبرهم؟

قلنا: بلى، قد علم ما يكون منهم قبل كونه، وذلك قوله: (ولو ردّوا
لعادوا لما نُهوا عنه) وإنما اختبرهم ليُعلمهم عدله، ولا يُعذبهم إلاّ بحُجّة
بعد الفعل، وقد أخبر بقوله: (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا
لولا أرسلت إلينا رسولاً) وقوله: (وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً)
وقوله: (رُسُلاً مبشّرين ومنذرين).

فالإختبار من الله بالإستطاعة التي ملّكها عبده، وهو القول بين الجبر
والتفويض، وهذا نطق القرآن، وجرت الأخبار عن الأئمة من آل
الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

فإن قالوا: ما الحُجّة في قول الله: (يهدى من يشاء ويضلُّ من
يشاء) وما أشبهها؟

قيل: مجاز هذه الآيات كلها على معنيين:

أمّا أحدهما: فإخبار عن قدرته، أي أنه قادر على هداية من يشاء،
و[إ]ضلال من يشاء، وإذا أجبرهم بقدرته على أحدهما لم يجب لهم
ثواب، ولا عليهم عقاب، على نحو ما شرّحنا في الكتاب.

والمعنى الآخر: إن الهداية منه تعريفه كقوله: (وأما ثمود فهديناهم) أي عرفناهم (فاستحبوا العمى على الهدى) فلو أجبرهم على الهدى لم يقدرُوا أن يضلُّوا.

وليس كلما وردت آية مشتبهة كانت الآية حجة على محكم الآيات اللواتي أمرنا بالأخذ بها، من ذلك قوله: (منه آيات محكمات هنَّ أم الكتاب، وأخر متشابهاً فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله...) الآية.

وقال: (فبشِّرْ عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) أي أحكمه، وأشرحه، (أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألباب). وقفنا الله وإياكم إلى القول والعمل لما يحب ويرضى، وجنَّبنا وإياكم معاصيه، بمنَّه وفضله.

والحمد لله كثيراً كما هو أهله، وصلى الله على محمد وآله الطيبين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تحف العقول / ٤٥٨ - ٤٧٥

ملحق رقم (٢)

أسئلة يحيى بن أكثم:

ورفع يحيى بن أكثم أسئلة الى الامام كان قد كتبها من قبل، وأعدّها لامتحانه فأجاب عنها الامام وأمر ابن السكّيت أن يكتب أجوبتها. وفيما يلي نص الأسئلة والأجوبة بتصرّف:

س١: قال الله تعالى في كتابه: ^(١) (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك) ان السائل هو سليمان و المسؤول هو آصف فهل كان سليمان و هو نبيّ محتاجاً الى علم آصف؟
س٢: قال تعالى: (ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجّداً) ^(٢) كيف سجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟.

س٣: قال تعالى: (فان كنت في شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب) ^(٣) فان كان المخاطب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد شكّ، وإن كان المخاطب غيره فعلى من إذا أنزل الكتاب؟.

س٤: قال تعالى: (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) ^(٤) ما هذه الأبحر وأين هي؟

(١) سورة النمل: آية ٤٠.

(٢) سورة يوسف: آية ١٠٠.

(٣) سورة يونس: آية ٩٤.

(٤) سورة لقمان آية ٢٦.

س ٥: قال تعالى: (وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين)^(١) فاشتَهت نفس آدم أكل البر فأكل، فكيف عوقب!!

س ٦: قال تعالى: (أو يزوجهم ذكراً وأنثاً)^(٢) إذا كان يزوج الله عباده الذكران، فكيف عاقب قوماً فعلوا ذلك.

س ٧: كيف جاز شهادة المرأة وحدها، وقد قال الله: (وأشهدوا ذوي عدل منكم)^(٣).

س ٨: حكم علي (عليه السلام) في أمر الخنثى أن ينظر الى مبالها فان كان بولها بول الرجل فهي رجل، وان كان بول الانثى فهي انثى، فمن ذا ينظر إليها، فان كان الناظر إليها رجلاً فعسى أن تكون امرأة، وإن كان الناظر إليها امرأة فعسى أن تكون رجلاً، وهذا ما لا يحلّ، وما هو ميراثها؟.

س ٩: رجل أتى الى قطع غنم فرأى الراعي ينزو على شاة منها، فلما بصر بصاحبها خلى سبيلها، فدخلت بين الغنم كيف تذبح؟ وهل يجوز أكلها أم لا؟

س ١٠: صلاة الفجر لم يجهر فيها بالقرآن مع أنها من صلاة النهار وإنما يجهر في صلاة الليل؟.

س ١١: ان علياً قال لابن جرموز بشرّ قاتل ابن صفية بالنار^(١) فلمّ لم يقتله وهو إمام.

(١) سورة الزخرف آية ٧.

(٢) سورة الشورى: آية ٤٢.

(٣) سورة الطلاق: آية ٦٥.

س ١٢: أخبرني عن عليّ لمّ قتل أهل صفين، وأمر بذلك - أي قتلهم - مقبلين ومدبرين وأجاز^(٢) على الجرحى، وكان حكمه يوم الجمل أنه لم يقتل مؤلياً، ولم يجز على جريح، ولم يأمر بذلك، وقال: من دخل داره آمن، لمّ فعل ذلك؟ فان كان الحكم الأول صواباً فالثاني خطأ.

س ١٣: أخبرني عن رجل اقرّ باللواط على نفسه، أیحدّ أم يدرأ عنه الحدّ؟

ج ١: انه لم يعجز سليمان (عليه السلام) عن معرفة ما عرف آصف.. لكنّه صلوات الله عليه أحبّ أن يعرّذف أمّته من الجنّ والانس أنّه الحجّة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه ذلك لثلا يختلف في إمامته وولايته من بعده، ولتأكيد الحجّة على الخلق.

ج ٢: أما سجود يعقوب لولده فان السجود لم يكن ليوسف، وإنما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله تعالى، وتحيّة ليوسف، كما أن السجود من الملائكة لم يكن لأدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله تعالى باجتماع الشمل ألم تر أنّه يقول: في شكره في ذلك الوقت (ربّ قد آتيتني من الملك) الآية.

ج ٣: إن المخاطب بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يكن في شكّ مما أنزل الله إليه ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث نبياً من الملائكة، ولمّ لم يفرق بينه وبين الناس في الاستغناء عن المأكّل والمشرب

(١) ابن صفية: هو الزبير بن العوام قتله ابن جرّموز يوم «الجمل».

(٢) أجاز على الجرحى: أي أجهز عليهم.

والمشي في الأسواق، فأوحى الله الى نبيّه، فاسأل الذين يقرأون الكتاب بمحضر من الجهلة هل بعث الله نبياً قبلك إلاّ وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ولك بهم أسوة يا محمد، وأنما قال: (فان كنت في شكّ) ولم يكن شكّ ولكن للنصفة كما قال تعالى: (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)^(١).

ولو قال: تعالوا فنجعل لعنة الله عليكم لم يكونوا يجيئوا الى المباهلة، وقد علم الله ان نبيّه مؤدّ عنه رسالته، وما هو من الكاذبين، وكذلك عرف النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه صادق فيما يقول: ولكن أحبّ أن ينصف من نفسه.

ج ٤: فهو كذلك لو أن أشجار الدنيا أقلام، والبحر مداد يمدّ سبعة أبحر مداداً حتى انفجرت الأرض عيوناً كما انفجرت في الطوفان، ما نفدت كلمات الله، وهي: - أي الأبحر - عين الكبريت، وعين اليمن، وعين برهوت، وعين طبرية، وحة ماسيدان ترعة لسان، وحة أفريقية تدعى سيلان، وعين باحوران، ونحن الكلمات التي لا تدرك فضائلنا ولا تستقصى.

ج ٥: وأما الجنة ففيها من المأكل، والمشرب والملاهي ما تشتهي الأنفس، وتلذّ الأعين، وأباح الله ذلك لآدم، والشجرة التي نهى الله آدم عنها وزوجته أن يأكلا منها، شجرة الحسد.. عهد الله إليهما أن لا ينظرا إلى من فضّله الله عليهما والى خلائفه بعين الحسد فَنسي ولم يجد له عزماً.

(١) سورة آل عمران: آية ٦١.

ج ٦: ان الله تعالى زوج الذكران المطيعين معاذ الله أن يكون الجليل العظيم عنى ما لبست به على نفسك... تطلب الرخصة لارتكاب المحارم، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد فيه مهاناً... إن لم يتب.

ج ٧: أما شهادة المرأة وحدها التي جازت فهي القابلة اتي جازت شهادتها مع الرضا فان لم يكن رضا فلا أقل من امرأتين، تقوم المرأتان بدل الرجل للضرورة لأن الرجل لا يمكنه أن يقوم مقامها، فان كانت وحدها قبل قولها مع يمينها.

ج ٨: أما قول عليّ: في الخنثى، فهو كما قال، يرث من المبال ينظر قوم إليه عدول يأخذ كل واحد منهم مرآة، ويقوم الخنثى خلفهم عريانة، وينظرون الى المرأة فيرون الشيء ويحكمون عليه.

ج ٩: أما الرجل الناظر الى الراعي، وقد نزا على شاة فان عرفها ذبحها وأحرقها وإن لم يعرفها قسم الغنم نصفين وساهم بينهما^(١) فان وقع السهم على أحد القسمين، فقد نجا النصف الآخر، ثم يفرق النصف الآخر فلا يزال كذلك حتى تبقى شاتان، فيقرع بينهما فأيتها وقع السهم بها ذُبحت ونجا سائر الغنم^(٢).

(١) ساهم: أي قرع بينهما.

(٢) أخذنا هذه الفقرات من تحق العقول وفي المناقب غيرها.

ج ١٠: أما صلاة الفجر والجهر فيها بالقراءة لأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يغلَسُ بها^(١) فقراءتها في الليل.

ج ١١: أما قول علي: بشر قاتل ابن صفية بالنار، فهو لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): وكان ممن خرج يوم النهروان، فلم يقتله أمير المؤمنين بالبصرة لأنه علم أنه يقتل في فتنة النهروان.

ج ١٢: أما قولك: إن علياً قاتل أهل صفين مقبلين، ومدبرين، أجهز على جريحهم، وانه يوم الجمل لم يتبع مولياً، ولم يجهز على جريحهم، وكل من ألقى سيفه وسلاحه آمنه، فان أهل الجمل قُتل إمامهم، لم يكن لهم فئة يرجعون إليها، وإنما رجع القوم الى منازلهم غير محاربين، ولا محتالين، ولا متجسسين، ولا متبارزين، فقد رضوا بالكف عنهم وكان الحكم فيه دفع السيف، والكف عنهم إذا لم يطلبوا عليه أعواناً.

وأهل صفين يرجعون إلى فئة مستعدة، وإمام منتصب يجمع لهم السلاح من الرماح والدروع والسيوف ويستعد لهم، ويسني لهم العطاء، ويهيئ لهم الأموال، ويعود مريضهم ويجبر كسيرهم، ويداوي جريحهم، ويحمل راجلهم، ويكسو حاسرهم، ويردّهم فيرجعون الى محاربتهم، وقتالهم.

فان الحكم في أهل البصرة الكف عنهم لما ألقوا أسلحتهم اذ لم تكن لهم فئة يرجعون إليها، والحكم في أهل صفين أن يتبع مدبرهم، ويجهز على جريحهم فلا يساوي بين الفريقين في الحكم، ولولا أمير المؤمنين

(١) يغلَسُ بها: أي يصلي بها في الغلس، وهو الظلمة في آخر الليل.

وحكمه في أهل صفين والجمل لما عرف الحكم في عصاة أهل التوحيد،
فمن أبي ذلك عُرِضَ على السيف.

ج ١٣: أما الرجل الذي أقرّ باللواط فإنه أقرّ بذلك متبرّعاً من نفسه، ولم
تقم عليه بيّنة، وإنما تطوّع بالاقرار من نفسه، وإذا كان للإمام الذي من الله أن
يعاقب عن الله كان له أن يمنّ عن الله أما سمعت قول الله (هذا عطاؤنا
فامنن أو أمسك بغير حساب) فبدأ بالمنّ قبل المنع.
قد أنبأناك بجميع ما سألتنا عنه فاعلم..

مناقب ابن شهر آشوب: ٤ / ٤٠٣ - ٤٠٦، تحف العقول: ٤٧٧ - ٤٨١.

ملحق رقم (٣)

رسالة الخوارزمي الى أهالي نيسابور

«فلما انتهكوا - أي بني أمية - ذلك الحريم، واقترفوا ذلك الإثم العظيم غضب الله عليهم، وانتزع الملك منهم، فبعث عليهم (أبا مجرم) لا أبا مسلم فنظر لا نظر الله إليه الى صلابة العلوية، والى لين العباسية فترك تقاه واتبع هواه، وباع آخرته بدنياه، بقتله عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، وسلط طواغيت خراسان، واكراد اصفهان، وخوارج سجستان على آل ابي طالب يقتلهم تحت كل حجر ومدبر، ويطلبهم في كل سهل وجبل، حتى سلط الله عليه أحب الناس اليه فقتله كما قتل الناس في طاعته، وأخذه بما أخذ الناس في بيعته، ولم ينفعه أن أسخط الله برضاه، وإن ركب ما لا يهواه، وختل الى الدوانقيي الدنيا فخطب فيها عسفاً، وتقضى فيها جوراً، وحيفاً، وقد امتلأت سجونته بأهل بيت الرسالة، ومعدن الطيب والطهارة، قد تتبع غائبهم وتلقط حاضرهم، حتى قتل عبدالله بن محمد بن عبدالله الحسيني (السند)، على يد عمر بن هشام الثعلبي، فما ظنك بمن قرب متناوله عليه ولان مسه على يديه... وهذا قليل في جنب ما قتله «هارون» [الرشيد] منهم، وفعله موسى [الهادي] قبله بهم، فقد عرفتم ما توجه على الحسين بن علي

465

ب- [فخ] من موسى، وما اتفق على علي بن الأفتس الحسيني من «هارون»، وما جرى على أحمد بن علي الزيدي، وعلى القاسم بن علي الحسيني من حبسه، وعلى غسان بن حاضر الخزاعي حين أخذ من قبله.

والجملة ان «هارون» مات وقد حصد شجرة النبوة، واقتلع غرس الامامة.. وانتم أصلحكم الله أعظم نصيباً في الدين من الأعمش فقد شتموه

ومن شريك فقد عزلوه، ومن هشام بن الحكم فقد أخافوه ومن علي بن يقطين فقد اتهموه...».

وتطرق الخوارزمي الى تسجيل جرائم الحكم الاموي الغاشم ليعود بعدها الى الحكم العباسي مرة أخرى:

«وقل في بني العباس فانك ستجد بحمد الله مقالاً، وجُلٌ في عجائبهم فانك ترى ما شئت مجالاً.»

يجبى فيؤهم فيفرق على الديلمي، والتركي، ويحمل الى المغربي والفرغاني، ويموت إمام من أئمة الهدى، وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته، ولا تجصص مقبرته، ويموت (ظراط) لهم و مسخرة، أو ضارب فتحضر جنازته العدول والقضاة، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاية..

ويسلم فيهم من يعرفونه دهريا، أو سوفسطائيا، ولا يتعرضون لمن يدرس كتابا فلسفيا ومانويا، ويقتلون من يعرفونه شيعيا، ويسفكون دم من سمى ابنه عليا!

ولو لم يقتل من شيعة أهل البيت غير المعلى بن خنيس قتيلداود بن علي، ولو لم يحبس فيهم غير أبي تراب المروزي لكان ذلك جرحا لا يبرأ، واثرة لا تطفأ، وصدعا لا يلتئم، وجرحاً لا يلتحم.

وكفاهم أن شعراء قريش قالوا في الجاهلية أشعاراً، يهجون بها أمير المؤمنين (عليه السلام)، ويعارضون فيها أشعار المسلمين فحملت أشعارهم، ودونت أخبارهم، ورواها الرواة مثل الواقدي ووهب بن منبه التميمي، ومثل الكلبي، والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدي، ودأب بن الكناني، وان

بعض شعراء الشيعة يتكلم في ذكر مناقب الوحي، بل ذكر معجزات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيقطع لسانه، ويمزق ديوانه، كما فعل بعبدالله بن عمار البرقي وكما أريد بالكميت بن زيد الأسدي، وكما نبش قبر منصور بن الزبرقان النميري، وكما دمر على دعبل بن الخزاعي، مع رفقتهم من مروان بن أبي حفصة اليمامي، ومن علي بن الجهم الشامي، ليس الا لغلوهما في النصب، واستيجابهما مقت الرب... حتى ان «هارون» بن الخيزران [الرشيد] وجعفر المتوكل على الشيطان لا على الرحمن كانا لا يعطيان مالا، ولا يبذلان نوالاً الا لمن شتم آل أبي طالب، ونصر مذهب النواصب مثل عبدالله بن مصعب الزبيري ووهب بن وهب البخري، ومن الشعراء مثل مروان بن أبي حفصة الأموي، فأما في ايام جعفر [المتوكل] فمثل بكار بن عبدالله الزبيري، وأبي السمط بن أبي الجون الأموي وأبن أبي الشوارب العيشمي.

وعرج بعد هذا الكلام على بني أمية وما اقترفوه من ظلم العلويين ثم استأنف الكلام عن العباسيين فقال:

وما هذا بأعجب من صياح شعراء بني العباس على رؤوسهم بالحق وان كرهوه، وبتفصيل من نقصوه وقتلوه، قال منصور بن الزبرقان على بساط هارون:

| | |
|-------------------------|-----------------------|
| آل النبي ومن يحبهم | يتطامنون مخافة القتل |
| أمن النصارى واليهود وهم | من امة التوحيد في أزل |

وقال دعبل:

| | |
|-------------------------|-------------------------|
| الم تر أني مذثمانين حجة | أروح واغدو دائم الحشرات |
|-------------------------|-------------------------|

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| أرى فيئهم في غيرهم متقسما | وأيد يهم من فيئهم صفرات |
|---------------------------|-------------------------|

وقال علي بن العباس الرومي وهو مولى المعتصم:

| | |
|-----------------------------|--------------------------|
| تأليت ان لا يبرح المرء منكم | يشل على حر الجبين فيعفج |
| كذلك بنو العباس تصبر منكم | ويصبر للسيف الكمي المدجج |

وقال ابراهيم بن العباس الصولي: وهو كاتب القوم وعاملهم في الرضا

لما قر به المأمون:

| | |
|--------------------|---------------------|
| يمن عليكم بأموالكم | وتعطون من مئة واحدا |
|--------------------|---------------------|

وكيف لا ينتقصون قوما يقتلون بنى عمهم جوعا وسغبا، ويملاؤن ديار الترك والديلم فضة وذهبا، يستنصرون المغربي والفرغاني ويجنون المهاجري والانصاري، ويوالون أنباط السود وزارتهم، وتلف العجم والطماطم قيادتهم، ويمنعون آل أبي طالب ميراث أمهم، وفيء جدهم... يشتهي العلوي الأكلة فيحرمها، ويقترح على الايام الشهوة فلا يطعمها، وخراج مصر والأهواز، وصدقات الحرمين والحجاز تصرف الى «ابن مريم المدني»، والى «ابراهيم الموصللي»، و«ابن جامع السهمي»، والى «زلزل الضارب»، و«برصوما الزامر»، واقطاع «بختيشوع النصراني» قوت أهل بلد، وجاري [المرتّب الشهري] بغا التركي والأفشين الاشروسني، كفاية أمة ذات عدد.

والمتموكل زعموا يتسرى بإثني عشر الف سرية، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو سنديّة، وصفوة مال الخراج مقصورة على أرزاق الصفاغنة، وعلى موائد المخاتنة، وعلى طعمة الكلابيين، ورسوم القرّادين، وعلى «مخارق» المغني، «زرزر»، و«عمر بن بانة المهلي»، ويبخلون على

الفاطمي بأكلة أو شربة، ويصارفونه على دائق وجبة، ويشترون العوادة بالبدر، ويجرون لها ما يفي برزق عسكر.

والقوم الذين أحل لهم الخمس، وحرمت عليهم الصدقة، وفُرضت لهم الكرامة والمحبة، يتكفون ضرراً، ويهلكون فقراً، ويرهن أحدهم سيفه، ويبيع ثوبه، وينظر الى فيئه بعين مريضة، ويشتد على دهره بنفس ضعيفة، ليس له ذنب إلا ان جده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأبوه الوصي، وأمه فاطمة، وجدته خديجة، ومذهبه الايمان، وامامه القرآن، وحقوقه مروفة الى القهرمانه والمفرطة والى المغمزة، والى المزرعة، وخمسه مقسوم على نقار الديكة الدمية، والقردة، وعلى رؤوس اللعبة واللعبة، وعلى مرية الرحلة.

«وماذا أقول في قوم حملوا الوحوش على النساء المسلمات وأجروا لعبادة [المخنث] وذويه الجرايات، وحرثوا تربة الحسين (عليه السلام) بالفدان، ونفوا زواره الى البلدان... وما أصف من قوم هم نُطف السكارى في ارحام القيان؟ وماذا يقال في أهل بيت منهم البغا، وفيهم راح التخيت وغدا، وبهم عرف اللواط؟»

كان ابراهيم ابن المهدي مغنياً، وكان المتوكل مؤنثاً، وكان المعتر مخنثاً، وكان ابن زبيدة [الأمين] معتوها مفركاً.. وقتل المأمون أخاه، وقتل المنتصر أباه، وسمّ موسى ابن المهدي امه، وسمّ المعتضد عمّه..

عن رسائل الخوارزمي

* * *

ملحق رقم (٤)

قصيدة الشاعر العربي الأمير أبي فراس الحمدانية

المعروفة بـ(القصيدة الشافية)

قصيدة الأمير، أبي فراس: الحارث بن يعلى بن حمدان، الحمداني،
المقتول سنة ٣٥٧ هـ

فإنه أمر أن تُشهر خمسمائة سيف بالمعسكر وقت إنشاد هذه القصيدة،
فجاءت بمثابة اعلان كبير وادانة للحكم العباسي.

وهي من القصائد الخالدة ومذكورة في أكثر المصادر، وقام بعض
العلماء بتخميسها وبعضهم بتشطيرها، وتقرأ في بعض المجالس.

بلغت الذروة في الحماسة، وإحقاق الحق، وتزييف الباطل، وقوة البيان،
وجرأة الإقدام، وتحدي الظالمين وكشف الحقيقة.

وتتجلى الروح الثورية في كل بيت منها، مما يدل على روحه الكبيرة
فجاءت رداً على قصيدة «ابن سكرة العباسي» التي يهجو بها العلويين، وهم

ذرية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) التي مطلعها:
بنى علىّ دعوا مقاتلكم لا ينقص الدرّ وضع من وضعه

النص الكامل للقصيدة «الشافية»:

470 الحقُّ مهتضمٌ، والدينُ مخترمٌ وفيء آل رسول الله مقتسمٌ

والناس عندك لا ناس فتحفظهم سوم الرّعاة، ولا شاة ولا نعمٌ

إنني أبيت قليل النوم، أرّقني قلبٌ تصارع فيه الهمُّ والهممٌ

وعزمة لا ينام الليل صاحبها إلا على ظفر عفي طيّه كرمٌ

يُصان مهري لأمر لا أبوح به والدرع والرمح والصمصامة الخدمٌ



وكل مائة الضبعين مسرحها
وفتية قلبهم إذا ركبوا
يا للرجال أما لله منتصر
بنو عليّ رعايا في ديارهم
محلّون، فأصفي شربهم وشلّ
فالأرض إلا على ملاكها سعة
وما السعيد بها إلا الذي ظلّموا
للمتقين من الدنيا عواقبها
لا يطغين بني العباس ملكتهم
أتفخرون عليهم، لا أباً لكم!
ولا توازن يوماً بينكم شرف
ولا لكم مثلهم في المجد متصل
ولا لعرقكم من عرقهم شبهة
قال النبي بها (يوم الغدير) لهم
حتى إذا أصبحت في غير صاحبها
وصيروا أمرهم شورى كأنهم
إن غدّ أهل التقى كانوا أئمتهم
بيوتهم في قريش يستضاء بها
ثم ادّعاها بنو العباس ملكهم

رمت الجزيرة، والخذراف والعنم
يوماً، ورأيهم رأي إذا عزموا
من الطغاة؟ وما للدين منتقم؟
والأمر تملكه النسوان والخدم
عند الورود، وأوفى وردهم كم
والمال إلا على أربابه ديم
وما الشقي بها إلا الذي ظلّموا
وإن تعجّل فيها الظالم الأثم
بنو علي مواليتهم وإن رغموا
حتى كأنّ رسول الله جدّكم
ولا تساوت لكم في موطن قدم
ولا لجدّكم معشار جدّهم
ولا نثيلتكم من أمّهم أمم
والله يشهد والأملك والأمم
باتت تنازعها الذؤبان والرخم
لا يعرفون ولاية الحق أيّهم؟
أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل هم
في النابتات، وعند الحكم إن حكموا
ولا لهم قَدَمٌ فيها ولا قَدَمٌ

لا يذكرون، إذا ما معشر ذكروا
 ولا رآهم أبو بكر وصاحبه
 فهل هم مدعوها غير واجبة؟
 أمّا عليٌّ: فقد أدنى قرابتكم
 هل ينكر الحبر: عبدالله نعمته
 بس الجزاء جزيتم في بني حسن
 لا بيعة ردعتكم عن دمائهم
 هلاً صفحتم عن الأسرى بلا سب
 هلا كففتم عن «الديباج» سوطكم^(١)
 ما نزهت لرسول الله مهجته
 ما نال منهم بنو حرب وإن عظمت
 كم غدره لكم في الدين واضحة
 أنتم آله فيما ترون وفي
 هيهات لا قرّبت قربي ولا نسبٌ
 كانت مودة سلمان لهم رحماً
 يا جاهداً في مساويهم يكتّمها
 ذاق الزبيري غبّ الحنث، وانكشفت
 ليس الرشيد كموسى في القياس، ولا

ولا يحكم في أمر لهم حكمٌ
 أهلاً لما طلبوا منها وما زعموا
 أم هل أئتمهم في أخذها ظلموا؟
 عند الولاية، إن لم تكفر النعم
 أبوكم؟ أم عبيدالله؟ أم قثم؟
 أباهم العَلَمُ الهادي، وأمّهم
 ولا يمينٌ، ولا قربي، ولا ذمٌ
 كالصافحين بيدر عن أسيركم
 وعن بنات رسول الله سبذكم
 عن الشياطين، فألاً نزه الحرم
 تلك الجرائر، إلا دون نيلكم
 وكم دم لرسول الله عندكم
 أظفاركم من بنيه الطاهرين دم؟
 يوماً، إذا أقصت الأخلاق والشيم
 ولم يكن بين نوح وابنه رحماً
 غدر الرشيد يحيى كيف ينكتم؟
 عن ابن فاطمة الأقوال والتهم
 مأمونكم كالرضا، إن أنصف الحكم

(١) علويّ أعدم بأمر المنصور.

وأبصروا بعض يوم رشدهم وعموا
ومعشراً هلكوا من بعدما سلموا
بجانب الطف تلك الأعظم الرمم
ولا الهيرى نجاً الحلف والقسم
فيه الوفاء، ولا عن عمّهم حلموا
لا تدعوا ملكها، مُلاكها العجم
وغيركم أمرٌ فيها ومحتكم
وبالخلاف عليكم يخفق العلم
لمعشر بيعهم يوم الهياج دم
يوم السؤال، وعمّالين إن علموا
ولا يضيعون حق الله إن حكموا
وفي يوتكم الأوتار والنغم
شيخ المغنّين إبراهيم^(٢) أم لهم؟
عليهم ذو المعالي، أم عليكم؟
قف بالديار التي لم يعفها القدم
ولا يوتهم للسوء معتصم
ولا يرى لهم قردٌ له حشم

بأؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته
يا عصباً شقيت من بعدما سعدت
لبئس ما لقيت منهم وإن بليت
لا عن أبي مسلم في نصحه صفحوا
ولا الأمان لأهل الموصل اعتمدوا
أبلغ لديك بني العباس مألكتة
أيُّ المفاخر أضحت في منابركم
وهل يزيدكم في مفخر علم
يا باعة الخمر كفّوا عن مفاخركم
خلّوا الفخار لعلاّمين إن سئلوا
لا يغضبون لغير الله إن غضبوا
تنشى التلاوة في أبياتهم أبداً
منكم «عليّة»^(١) أم منهم؟ وكان لكم
أم من تشاد له الألحان سائرة
إذا تلا سورة غنى إمامكم:
ما في ديارهم للخمر معتصر
ولا تبيت لهم خنشى تنادمهم

(١) أخت الرشيد: مطربة!

(٢) أخو عليّة مطرب وموسيقي.

الركن والبيت والاستار منزلهم
وليس من قسم في الذكر نعرفه
يكاد يمسكه عرفان راحته
صلّى الإله عليهم كلما سجعت
وزمزم، والصفاء والخيف والحرم
الأ وهم غير شك ذلك القسم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
ورق، فهم للورى كهف ومعتصم
عن: ديوان الأمير أبي فراس الحمداني

المحتويات

| | |
|-----|--|
| ٥ | الاهداء..... |
| ٧ | مخاضات السنين..... |
| ١١٢ | نيرون العرب..... |
| ٢٨٦ | سقوط الطاغية..... |
| ٣٩٦ | ما وراء السطور..... |
| ٤٣٤ | ملحقات الرواية..... |
| ٤٣٥ | ملحق رقم (١)..... |
| ٤٣٥ | رسالة الامام الهادي في: «الجبر والتفويض»..... |
| ٤٥١ | تفسير صحة الخلقة..... |
| ٤٥٨ | ملحق رقم (٢)..... |
| ٤٥٨ | أسئلة يحيى بن أكثم:..... |
| ٤٦٥ | ملحق رقم (٣)..... |
| ٤٦٥ | رسالة الخوارزمي الى أهالي نيسابور..... |
| ٤٧٠ | ملحق رقم (٤)..... |
| ٤٧٠ | قصيدة الشاعر العربي الأمير أبي فراس الحمدانية..... |
| ٤٧٠ | المعروفة بـ(القصيدة الشافية)..... |
| ٤٧٥ | المحتويات..... |